

جدل الحداثة
في نقد الشعر العربي

دراسة



جدل الحداثة
في نقد الشعر العربي

خيرة حمر العين

جدل الحداثة

في نقد الشعر العربي

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٦

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة
للمعهد الكتاب العرب

الإهداء

إلى :

أولي

إلى :

أوليه ..

مقدمة

إذا كانت مهمة النقد هي استكشاف ظواهر العيوب والنواقص وإبراز الأهمية التوجيهية بوصفها الرقيب على ممارسة السلطة الوصفية على النص، إذا كان الأمر كذلك في السابق فإن جملة من الفوارق تحدد شمولية الطابع النقدي في الدراسات الحداثيّة التي تصبو لأن تكون مهمتها متصلة «بحوارية النص» ضمن طرائقية كشفية تقوم على الذائقة الجمالية.

فالحركة النقدية الحداثيّة، بهذا الطرح تشكل نقطة انطلاق النص وليس نهاية له، ومن هذا المنظور باشرت تجربة الحداثة في عملية الفحص الذي يقود النص إلى أنظمة التفكير التأويلي، بعيداً عن قناعات النص في طروحه المتناهية الناتجة عن حصيلة معرفة المعلوم الذي يجرنا إلى المراجعة العاكسة. وهكذا نجد أنفسنا رهنا نسيج الحكم الجاهز بفعل التسليم بروابط سلطة الأفكار. في خضم هذه الجدلية تحاول هذه الدراسة فك ضفيرة «غائية القرار» التي تأخذ سبيل السلطة الوصية في مواجهة ممارسة الذائقة الجمالية للغة اللغة Metalangage التي عدتها الحداثة بمثابة كشف الفرضيات اللاحقة بأقنعة النص.

إن تعرية فهم النص تتيح - وبامتياز - فرصة الاطّاحة بسياق دائرة المعنى التي تستدعي الرؤية التأملية للرموز الخبيثة وراء المعنى الظاهر، ومن ثمة يزوب فعل القول، ويمحي أمام الفعل المفكر فيه، لكي يصبح النص قائماً بذاته، إلى ما يمكن الإشارة إليه لاحقاً.

لقد أفرز انتقاد العقل وجهة نظر انتقائية لصياغة النص باختيار نموذج الخطاب الذي يعتمد على المفاهيم الافتراضية، ولاعتبارات عديدة تلقت الذهنية الحديثة هذه الوسيلة الإبلاغية بارتياح، كرس لها التهيئة النفسي نظرا لمستجدات العصر، وبعد أن تحقق هذا على مستوى البنية الاجتماعية كان لابد من وجود رابط داخلي يستمد قيمته من تجربة فعل الأمور العملية بتفاعلات التطور الاجتماعي التي تؤثر تأثيرا مباشرا في ملكة استنتاج المعطيات النظرية. وبما يكن من أمر، فإن تطور الخطاب الفكري والفني استمد بواعثه الخفية من جوهر أفعاله التي حركت فيه غرائزه الباطنية وقدرته العقلية، ولعل التجربة وحدها كفيلة باكتساب المكانة الشرعية للحيز الفكري والابداعي في إشكالات النظرية والجمالية.

كل شيء في الحداثة يدعو إلى التأمل الاستشراقي وحتى في الحالة التي تعود في دراستها إلى الماضي في شموليته، فإنها تنظر إليه بوصفه حقبة زمنية مرهونة بالمستقبل ضمن تطابق تزامني، ذلك أن العقل مطلوب في جميع تصورات بتصوير الأحداث، لكي تغدو متسقة مع إرادة الأزمنة الحديثة. لذلك ليس في وسع أي باحث أن يحاول إخضاع ضرورة طبيعة الحياة في مستجداتها إلى الماضي التاريخي، أو إلى انفصال التراث عن مسارنا الاجتماعي، لأن في ذلك استسلاما لمطلق العقل ونفيا لحرية الإرادة التي تستخدم العقل في انطباعاته الحسية، وتجاوزاته الافتراضية، ومن هنا تأتي إرادة الذات في تقبل الشيء بسنن المعلومات التي تتوافق مع مبادئ سنن الحياة. ذلك أن التجربة الجمالية في تأسيسها الذاتي واكتمالها الذاتي مرهونة بتعزيز التجربة التاريخية لها، كما أن التجربة الفنية لا يمكن أن يكتمل مفاصلها إلا بتوافر قيمة الماضي فيها، وهكذا تبرز المركبات الدلالية اثر الاتصال المباشر بين الحاضر والأبدية، بين خبرة التجربة وأفق الترقب. بهذا المعنى يكمن الجمال الخالد الذي يوحد في صورته الجدلية بين ماهو جوهري وعرضي، أو بين ما اصطلاح عليه بالحداثة، والأصيل العابر الذي ينبثق منه الجديد.

ان سؤال الحادثة في تجلياته المرتقبة يعني بالضرورة ملاحظة التنوع والتعدد في طروح موضوعية الشيء، بغرض انعاش الوعي تبعا لدرجة تقبل هذا الشيء، بوصفه مشروعا يجب تحقيقه وهذا دأب الاستمرارية في البحث، وهكذا تطرح فكرة البديل مع المبرر ضمن منظور الروابط المستجابة للفهم، والحادثة بهذا الطرح تعزو إلى كل المعارف اسهاماتها، وتسند إليها دورها الفعال في اخضاع الحكم إلى الرصد والتجريب، لتشكيل الرؤية الجديدة لعملية الخلق الابداعي.

ان الرأي اللامشروط هو طريق البحث في الحادثة، بوصفه معطى كشافيا، وليس نتيجة حتمية، وبمقدار ماتعمد الحادثة اجراءاتها الافتراضية، بمقدار ماتحقق الكيفية الممكنة للتوقعات المنتظرة لنسيج النص، وبموجبها يتحقق الذوق المستجاب الذي يقوم على وحدة مشتركه يندمج فيها القارئ بالنص، ضمن تفاعل حميمي يبلغ مرتبة الرؤية الافتراضية. وبحسب هذه الفرضيات تتيج لنا تجربة الحادثة معرفة كنه الرؤية التأملية لأقنعة النص. وهنا لايسعنا إلا أن نبدي رغبتنا في إقتناعنا بكون الحادثة في طرائقها الاستنتاجية، وبإعطاء الأولوية لمملكة التجربة القياسية، تفوق في تفاعلها ملكة الحكم على الشئ بوصفه حكما جاهزا يقوم على عمق المشروع الأرسطي، وفي هذه الحال نسلب تصور الفنان إشراكاته الإبداعية، ونربطه بواسطة ملاءمة المدرك الكائن الهادف بتبعيته إلى الرؤية المحدودة. وهنا لاتدفعه حاجة ما إلى التأمل، ولا يألو الحس أثناء ذلك، جهدا لتبيان مقدرة اجتهاداته.

لعل النقد العربي في مختلف عصوره لم يكد ينتج سوى المكرور من المفاهيم والرؤى، وقد ظل هاجس التطلع إلى الجديد محصورا في أفاق تأملية محدودة. وبتأثير من الفلسفات التأويلية، حاول هذا النقد بلورة جزء من تصورات المعرفية. غير أن ذلك ظل ضمن أطر معينة لم تمكنه من النفاذ إلى عمق السؤال، ولذلك ظلت ثقافة النقد العربي ملتزمة بقانون التطابق، ووحدة النموذج.

غير أننا نصادف في النقد العربي الحديث، وبخاصة في مجال نقد الشعراء، من يسعى إلى مساءلة المفاهيم الجديدة بقصد تحويلها إلى أدوات إجرائية للتأمل والفهم، لكنه في أغلب الأحيان لا يكشف عن وعي تام بالقيمة المعرفية لتراثنا النقدي الذي ينطوي على معارف جليلة وعميقة لم تلق العناية الواسعة التي تعيد قراءتها في ضوء الظواهر المعاصرة للفكر.

فهل يمكن اعتبار الحداثة رؤية جديدة قادرة على اختراق قانون التطابق؟

من منظور هذه الإشكالية، ارتأى البحث أن يكتنه عمق رؤيا الذات من خلال رؤيا النص، لتحديد معالم الخطاب النقدي ان الذي أصبح يحدد صلته بتداخل الأجناس الأدبية في خضم ما تنبني عليه نظرية التناس الأدبي التي تسيطر على السياق الفكري في شموليته المعرفية. لذلك وجد البحث نفسه يتحدث عن:

جدل الحداثة في نقد الشعر العربي

ولعل ارتباط مصطلح «جدل» بالحداثة في بحثنا هذا إنما مرده إلى إحالة النص على المراجعة، من الوضع المستقل في علاقته بالذات المبدعة، وبما يمكن الاستدلال به على وجه الاحتمال. وطبيعي أن يكون النص قائما على هذا التصور، لأنه مركب من الشمولية المعرفية، ولأنه يتضمنها، وعلى ذلك يجب أن يصل بافتراضاته الاحتمالية تدريجيا إلى توضيح العلاقة المتكاملة بين ذات النص وذات المتلقي بشكل متداخل، يحدد إطار المنظور التأويلي، بغرض الارتقاء من فاعلية الاستقبال لدى القارئ، وفسح المجال أمام الاستنتاجات اللاحقة القائمة على الآراء المحتملة، وهو ما يبرر وجود مصطلح «جدل» لما يتوافر عليه من قدرة على الاستدلال الاستقرائي للنص. واتصافه بالحركة المتعاقبة للفهم والتأويل.

أما علة الربط بين الجدل والحداثة فإنها لم تدفعنا في حقيقة الأمر إلى التخلي عن إقتناعنا - والتي تشغل بالنا منذ وجودنا على مدرجات الجامعة - من حيث تعدد مستويات النص الواحد، بحسب ادراك الفاعلية

التأويلية. وهكذا يمارس المتلقي ذاته داخل النص وهي رؤية تتزعمها «الحدثاء» في مشروعها المعرفي، الذي يصبو إلى ادخال الذات حيز التساؤل المستمر، بوصفها طرفاً في الكون، لتشكل بذلك «إيقونة» القوة اللامتناهية، والمعرفة الشمولية. هكذا تتبين مهمة الحدثاء ازاء الأنظمة المعرفية بغرض تعزيز الرؤية الاختلافية.

وقد توسط العنوان حرف الجر «في» الظرفية، مرجحة بذلك نصيب الشعر العربي - من غيره - بالدراسة، على اعتبار أن «الشعر أكثر المشاغل براءة، على حد رأي هيدغر، ولأنه السبيل الأكثر ادراكاً إلى فهم الكينونة، يدشن دخوله في عالم الذات عبر ضمير «الكلمة العلامة» لتحديد المعنى الغائب في الإنسان، لذلك كان الشعر عمق الوجود في بنيته الوظيفية.

إن المسلك الذي اختاره: جدل الحدثاء في نقد الشعر العربي، لمناقشة هذه الرؤية الجديدة، ينطلق من منهج استقرائي، يعتمد الاستدلال والرؤية الحدسية. وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذا التصور يستلزم المقدرة العلمية في التحليل، ويضطرنا إلى عدة تساؤلات من شأنها أن تحدد لنا الإطار المنهجي العام لهذا المبحث وطبيعته، لأجل ذلك كانت مهمة البحث تنحصر في استقصاء أسس الحدثاء من خلال طرح السؤال:

هل أيقنت الحدثاء العربية مستواها الحدسي؟

وهي الرؤية التي رافقتنا في الفصل الأول للبحث عن سؤال التأمل، الذي يشغل على فضاء التعدد والاختلاف، انطلاقاً من الأسس المعرفية لمصطلح الحدثاء، وكيف ظهر واستقر في الوعي الغربي بوصفها حركة ضرورية تفترض الباعث الممكن لكيونيتها، مقابل مصطلح المعاصرة الذي يرتبط بالزماني، والعابر، والعرضي. ومن ثمة نشأت ضرورة القطيعة والمفارقة بقصد التواصل مع الأصيل والمبتكر، والانفصال عن المكرور، وأدى حلول الحدثاء في تفكيرنا إلى تأمل الباعث الفكري، وحاجة الرؤيا للعقل، ومن ثمة أيضاً انسجام الشعري مع العقلي والرؤيوي من خلال شيثائية الحدثاء.

لقد أبدت الحداثة العربية موثقا من التاريخ، والواقع، والانسان، لتصير هاجسا معرفيا يفضي إلى رؤية شمولية بغية اكتساب وعي مغاير من خلال استقراء أقتنة النص في جميع مراميه، بما فيها التراثية وهو الأمر الذي مهد السبيل إلى الدخول في الفصل الثاني بطرح السؤال:

وفق أي المعايير تنطلق الحداثة في تقويم التراث؟

وهو الاستفسار الذي راودنا ونحن نستقصي جذور الرؤية الكشفية للنص العربي القديم، من داخل الأجهزة المعرفية للأصالة العربية في ضوء «جدل الحداثة / التراث» وموقف الوعي من هذه الجدلية في ظل الاصطدام بمؤشرات الوعي الغربي المغاير، وكيف تمثلت الحداثة الشعرية متغيرات العصر، سواء ماتعلق باللغة الكشفية، أم بالرؤية المنبثقة من تجليات الوعي الحضاري، والحس الانساني، وكيف انعكس ذلك على جمالية الايقاع الذي انتقل بالقصيدة من قواعد الوزن العتيق إلى مستوى من الوعي الشعري المغاير في تعامله مع البنيات الداخلية والوحدة الشعرية للدقات الموسيقية والنغمية. وهكذا تموضعت الحداثة العربية في فضاء من التأمل الرؤيوي والحدسي الذي يمكنها من تجاوز معيارية النظام الأحادي. ولكن هل أدرك ذلك التغيير استقلالية الرؤية الذاتية؟ لعل هذا المنظور هو الذي حفز فينا محاولة استكشاف خصوصية البواعث التأملية للحداثة العربية في منعطف هذه الاشكالية:

خطاب الحداثة وشعرية النص؟

فإذا كانت الحداثة هي سؤال التأمل بماهي رؤية جديدة، ففيم تمثلت إضافات هذه الرؤية إلى حقل الدراسات النقدية العربية؟ وهل في إمكان النقد الحداثي الذي تزعمه هذه الدراسات استيعاب نظام النص الغامض؟ لعل في تعرضنا لمعظم المبادئ النقدية التي أفرزتها اللسانياتية، والبنائية، والأسلوبية وجمالية التقبل، مايفي بغرض الإجابة عن هذه

التساؤلات من خلال استجلاء بعض المفاهيم النظرية والممارسات التطبيقية لهذه الرؤى النقدية التي تمثلها النقد العربي المعاصر، واتخذت مواقف متباينة من حيث الوعي والممارسة، وتأرجحت بين شعرية النص وشعرية التلقي، من خلال النظر في تنوع مكونات الخطاب وتعدد وحداته اللغوية والدلالية، وهو ما حتمته فرضية البحث في:

وظيفة التشاكل في النقد العربي؟

وهو المسوغ الاجرائي للعملية الابداعية، والأكثر قدرة على استيعاب نظرية النص، وإيقاظ المتلقي بتنوع أدواته التحليلية، وتغيير النظر إليها، بما تقتضيه مؤهلاته التأويلية، لأجل ذلك اقتضت مهمة الفصل الرابع من هذا البحث إمكان تمثل النقد العربي المعاصر هذا الإجراء الذي ظل يفتقد إلى التمرس النظري، وإن كان الخوض فيه يقتصر على الخصائص العامة للمفردات دون الإحاطة الشاملة بكل علاقاتها الدلالية التي بإمكانها الكشف عن أغوار النص، واكتفت الدراسات التي تناولت هذا الإجراء بالمواصفات الخارجية التي تتعامل مع المفردة من خلال تراكماتها الصوتية، والمعنوية، والدلالية، دون أن تعلق كيفيات انسجامها. وظل التشاكل صورة لتراكم أو لتكرار وحدات صوتية، ومورفولوجية، مترسبا بذلك في وعينا النقدي شأنه في ذلك شأن جميع الأدوات الإجرائية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أثار التشاكل، بمفهومه النظري في النقد العربي المعاصر، وعيا يحاول أن يكون مختلفا، بحيث يكمن جوهر تشاكل الإيقاع في تعامله مع النصوص باختراق الدال اللغوي، ومحاولة تكثيف الإيقاع، من خلال رمزية الكلمات، وانسجام الصوت والمعنى، وتراكم الأصوات واشتراكها... ومن شأن هذا المسعى التطبيقي أن يفجر العنق الجمالي لتشاكل الإيقاع. أما تشاكل الاحتياز فقد ارتبط بمستويات القراءة التي تسم النص بالتأمل، وتمكنه من اكتساب بنية متناسقة، وهو بذلك لا ينتمي إلى المفهوم الغرياسي الذي لا يعدو كونه سلسلة من المكرورات

المعنوية ليكون سلسلة تراكبية تحتفظ بتشابك العلاقات الدلالية واللسانياتية إما بالتكرار، وإما بالتماثل، وإما بالتعارض. ويمتد تشاكل التضمين إلى المغزى التأويلي في حدود من التقبل الحر في استكشاف مدلولات النص الباطنية التي يتحول معها التشاكل إلى نوع من التحقق الجمالي والتأثري والانفعالي من خلال الخواص الأسلوبية التي تميز النص في علاقاته التركيبية والدلالية.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول:

أسس الحداثة

* أولاً: الحداثة الغربية

- اشكالية المفهوم
- فكرة المشروع
- تداخل المصطلح
- القطيعة والمفارقة
- شيئية الحداثة :

- آ - من منظور فكري
- ب - من منظور جمالي
- ج - من منظور شعري

* ثانياً: الحداثة العربية

- أوليات التأسيس
- المرجعية / التجاوز
- الحداثة / الرؤيا

أولاً: الحداثة الغربية:

اشكالية المفهوم

لقد أصبحت الحداثة عبر كافة مراحل تطورها متحولة بحسب واقع المتغيرات المستجدة، فإذا هي تستوي في مستويات مختلفة، وإذا هي تشمل، أو تحاول أن تشمل، كل مجالات الحياة بما فيها الممارسات المنصرفة إلى الحياة اليومية، ثم بما فيها طرائق التفكير، وطبائع الرؤية إلى مظاهر الجمال: أرسالا واستقبالا.

وإذن، فليست الحداثة حافظة وثائق تعيد محك التجربة الماضية أو تفسرها، بقدر ما هي انكفاء على قول الشيء في تماثله باختراق المعهود، ذلك بأن «إعادة القراءة في ضوء العصر تختلف جذريا عن قراءة العصر في ضوء الفقه المعطل والجامد»^(١). فكان الحداثة إجراء يجتهد في أن يخترق حدود الأحكام الجاهزة، المصنفة، ويصرف عنايته إلى رؤى المعرفة، وإرادة القوة الفاعلة في خلق المبادرة. وربما كان فكر الحداثة قائما على هذه المزاوجة في استمرارية تجاوز العتبة، بل إن الحداثة تحاول أن تظل أمينة لما كان يتطلع إليه التراث، بعيدا عن وثيقته المرجعية التي ظلت تصور الأشياء كما هي، لا كما ينبغي أن تكون. وإذن، فالحداثة لا تلغي الماضي بقدر ما تحاول أن تحتل هذا الماضي.. فتستوعبه، بعد أن تقوضه، ثم تبني عليه فكرا مشبعا ببعض عناصر الفكر الذي كان، وببعض عناصر الفكر الذي هو كائن، لتستشرق منهما ما سيكون...

١ - عبد الله ونوس: بين الحداثة والتحديث، في قضايا وشهادات (عدد خامس بالحداثة) مؤسسة هيبال، الدار البيضاء سنة ١٩٩٠ ع ١، ص ٨.

وقد يعني هذا أن الحداثة بماهي حتمية تاريخية وبماهي ضرورة حضارية أيضا لم تنبثق من عدم، وإنما كانت لها إرهاصات مهدت لهذا الانبثاق، وتتمثل هذه الإرهاصات أساسا في «الصراع الدائري» الذي ظل محتدما بين القديم والحديث، بالإضافة إلى أن حركتي الفكر والفن، ظلّتا تتحفزان نحو التحور من القيم العتيقة، والاجتهاد في ابتكار قيم جديدة تنهض على هذه القيم العتيقة لكن دون أن تكونها. ومع ذلك فلا شيء يقيني في الحداثة، حتى المعنى نفسه يظل مهزوزا، وملتبسا، وغامضا، وهذا ما يدعونا إلى الاطلاع على دلالة المصطلح لغويا واجرائيا قبل الوصول إلى موقع ممارسة النظر النقدي الشامل لها.

لعل أول إجراء دقيق يحاول به الباحث أن يدخل في عمق مصطلح الحداثة هو العودة إلى الجذور التأسيسية لهذا المصطلح، من أجل هذا كان علينا أن نبدأ بتحديد معنى الحداثة كما ورد في الدلالة المعجمية، وبخاصة العربية على الرغم من أننا نعتزف بأن الغوص في دلالة هذا المصطلح لغويا لايزيد الأمر إلا تعقيدا لما في ذلك من شمولية. تحتوي في داخلها على عدة تقابلات لمختلف الاتجاهات المعرفية، وهو ما قد يجرنا إلى تعارض اجرائي مع الينبوع الأصلي الذي يشكل فعل الرؤية المعرفية للحداثة التي تتعاطى الحدث الابداعي بطريقة تجعله أصيلا ومتفردا. وإذا ما استطعنا ادراك هذه الغاية تيسر لنا أن نحدد طبيعة هذا المصطلح في مقاصده اللغوية بحسب تعريفات المعاجم العربية التي تتفق على أن لفظ «الحداثة» قائم بالأساس على التقابل مع القدامة، أو كما جاء في كتاب العين على أن «الحديث هو الجديد من الأشياء» (١) وما يترتب عن نقيض القدامة للحداثة. على اعتبار أن الحداثة: «كون الشيء لم يكن. ومحدثات الأمور: ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها» (٢) ليصبح كائننا ما لم يكن فيحدث الشيء ويستحدثه على حد ما جاء في قول الطرماح:

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق د. مهدي الخزومي / د. إبراهيم السامرائي، ج

٣ مادة «حدث»، وزارة الاعلام بغداد ١٩٨١.

٢ - ابن منظور: لسان العرب (حدث).

ضغائن يستحدثن في كل موقف * وهيتا وما يحسن فك الرهائن(١)
وتتفق جميع التعاريف على أن الحدث هو الأمر المبتدع بخاصة ماورد
في المعاجم العربية الحديثة التي رددت نصح هذه الدلالات.

وإذا كانت الحداثة في المعاجم العربية العامة تعني «المستحدث» الذي
هو نقيض «القدم» فإن المعاجم الفلسفية تتدرج بالمصطلح إلى ما يوافق
روح العصر في طرائق آرائه المستجدة، حتى ولو كانت المواصفات قديمة.
«ومعنى هذا أن الحديث ليس خيرا كله، كما أن القديم ليس شرا كله، وخير
وسيلة للجمع بين محاسن القديم والحديث أن يتصف أصحاب الحديث
بالأصالة، والعراقة، والقوة، والابتكار وأن يتخلى أصحاب القديم عن كل ما
لا يوافق روح العصر من التقاليد البالية والأساليب الجامدة» (٢) للتراث
على أنها مسلمات لحقائق قد تصبح في يوم ما معلومات في متناولنا، قابلة
للاندماج مع روح العصر، وهو ما يدعونا ضمينا بأن الحداثة «كل مبتكر، أو
مقتبس من نماذج شائعة مألوفة أو متوارثة» (٣) فالحداثة ضمن هذا المنظور
لا تعني الانسلاخ من أغلال الماضي، أو التعلق بالقدمية المفرطة، حتى إن
التعمق في هذا الشأن لا يحتوي في داخل ذاته إلا على استئصال في حق
تطوير مفهوم الحداثة. ذلك أن المشكلة هي طلب «إشكالية الحداثة» من حيث
كونها موقفا يتطلب وعيا مغايرا ويستدعي شعورا بحساسية روح العصر،
وبوصفها تشكل حلقة ضرورية من مجموع حلقات الوجه الحسي لتأثراتنا
المندمجة مع تفاعل المستجدات العصرية.

١ - ينظر: الزمخشري: أساس البلاغة (حدث).

٢ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي ١/ ٤٥٤.

٣ - ينظر: جبور عند النور: المعجم الأدبي (جديد / حداثة).

فكرة مشروع الحداثة

ان حضور الحداثي في حياتنا لم يكن لحظة صخب، أو عبث مجاني، بل كان لحظة كشف، كشف المتناقض، والخفي، والمنسي، واللا مفكر فيه عبر التساؤل الذي طرحه - مثلاً - Henri le febre حين تعرض للطرح الاشكالي لمفهوم الحداثة الذي سيخضع لموجة التفخيم الذاتي التي ترافق الحداثوية "modernisme" والميول الحديثة، وذلك بطرحه السؤال التالي: ما الذي كان يبدو حديثاً، أو كان حديثاً بالفعل في هذه الفترة أو تلك؟^(١). وإذا كان أي وعي لا يخلو من الجمع بين الميل الحديث والفكر الحداثوي الفلسفي، فإن الوعي الحداثي الفني يبدو مشروعاً تهديداً للمعاشية الجمالية لفعل الفكر. وهو الأكثر تجسيدا لهذا المعنى بحيث يتلاقى المجرد مع الحسي، وينصهر الآني في الأبدى، ولا يتجلى لنا من ملامح الحداثة إلا ما نوهم أنفسنا بأنه منها، وبالمقابل «فإن فكر الحداثة لا ينبت خارج حيّزها»^(٢) ذلك أنها نوبة من نوبات التصدي لمعتقد النمذجة الراسخ دون الرغبة في أن تكون البديل الأزلي لطقوسيته، ولعل هذا ما يكسب الفكر الحداثي بعداً مازواً لكونه نافذة لاستشراف ما يحدث دون أن يسقطه في الراهن أو يتمثله من حيث هو انتماء «ولذا، فإن الحداثة تتميز بهذا الجهد العابت من أجل التبنين والتماسك، أكثر من كونها بنية منشأة أو قادرة على اكتساب تماسكها الخاص من خلال نزعة قابلة للمعاشية»^(٣) لكنها - في الوقت ذاته - قابلة لاتساع مجالها الدلالي والرؤيوي على اعتبار أنها قضاء للكشف والتساؤل. ونحن نتفق مع Henri le febre حول تحديد ماهية الحداثة أولاً، ونختلف معه أخيراً، ذلك بأن يزعم بأن الحداثة ليست «بنية منشأة» يفتقر إلى نقاش. إذ لو سلمنا بهذه القولة التي لا تخلو من مغالطة لكننا رفضنا أن تكون للحداثة أسس، وأن تكون قائمة على قيم، وأن تكون مفضية إلى نشاط

١ - ينظر: ما الحداثة، تر: كاظم جهاد، دار ابن رشد ١٩٨٣، ص ١٤ - ١٥.

٢ - مطاع صفدي: عصر الحداثة البعدية، مقال في مجلة الفكر العربي المعاصر، ع ١٦٧/١٦، سنة ١٩٨٩ ص ٤.

٣ - هنري لوفيفر: ما الحداثة، ص ٤٤.

معرفي يتفرد عن الراهن، أو الفارط معا... ثم كيف ينفي هنري لفيثرف عن نزعة الحادثة كونها «قادرة على اكتساب تماسكها الخاص من خلال نزعة قابلة للمعاينة»؟ وهلا أثبت لنا تفسخ الحادثة ورهافتها وتهللهما وتحللها؟ وهل يعني بعض قول هذا إلا أن الحادثة مجرد موضوعة سرعان ما تأتي موضوعة أخرى تنفيها ولاتبعيها؟ وهل مثل هذا الكلام مما يعقل، والحال أن الحادثة لدينا هي مفهوم حضاري يتسم بالاستمرارية الزمنية، ويتميز بالنفوذ الحيّزي المتسلط...

تداخل المصطلح

تقع الحادثة في حدود من الالتباس، والغموض، لا من حيث أهمية التسمية أو طبيعة المصطلح ومغزاه وحسب، بل من حيث كونها ماتزال في صدام وتعارض مع كثير من المصطلحات المتداولة كالتحديث، وما قبل الحادثة، والحادثة البعدية، والحادثة، والحادثة (المعاصرة أو المودرنيزم بمفهوم الدلالة الزمنية) وغيرها. «وتغير المصطلح من مرحلة إلى أخرى يؤكد استمرارية تدفق معطيات الحادثة وقوة زخمها (...) لأنها لاتتوجه نحو مطلق ذي غاية كالرومانسية، بل تتوجه نحو مطلق لايتضمن غاية أو نهاية واضحة»^(١). وفي مقابل تدفقها واستمراريتها، تبدو المعاصرة محايدة، وحيث لايعني الزمن شيئا بالنسبة للحادثة بوصفها انبثاقا كليا، جوهريا وشاملا إذ تنحسر المعاصرة في شكل استجابة ظرفية تخضع لقيم عصر معين، ولشروطه التي تفرض على الفنان من الخارج دون أن يتمثلها بوعيه وأسلوبه الخاص.

١ - ينظر: مبد الله أحمد المهنا: الحادثة وبعض العناصر الحديثة في القصيدة العربية المعاصرة، عالم الفكر / م. ١٩٠٠ / ج. ٣ / ١٩٨٨، ص ٦.

وللتفرقة بين الحادثة والحادثة أو الحداثوية (المعاصرة) نعرض رأي الناقد الانجليزي ستيفن سبندر الذي أضفى على مفهوم الحادثة قيما دلالية أعمق، في سياق التمييز بين كل ماهو حداثي وبين كل ماهو معاصر «فوصل المعاصرين بما أسماه «الانا الفولتيريّة» "Voltairean" تلك التي تنطوي على الأقانيم الأساسية لمفهوم الكاتب المصلح المبشر، ومايقتزن بهذا المفهوم من ايمان الشاعر بنوع من النبوة، تجعل منه مبشرا بعقيدة ليست من صنعه في آخر المطاف، ووصل ستيفي سبندر ماهو حداثي بما أسماه «الانا الحديثة» modern تلك التي تعيش العصر الصناعي دون أن تذعن إلى محتواه وتمارس اختيارها فيه، معاناة تتعمر بها على هذا العصر على نحو يجعل من ابداعها نتاج عمليات لاواعية وممارسة لحس نقدي في الوقت نفسه»(١) ومن ثمة ندرك بأن الحادثة رؤية كونية لاتنحسر في أبعاد محددة بل تتجاوزها إلى كينونة الرفض والاختلاف.

وقد يقودنا هذا الطرح إلى أسباب انحسار الحداثوية، وتراجعها. فبالإضافة إلى كونها محددة ومذهبية، فإنها أيضا حركة مضادة ظهرت في مناخ من القهر الرأسمالي، شعر خلاله الفنان بالاستلاب والنفى الأمر الذي جعل من الحداثوية الغربية أنها لم تحاول أن تستكشف «القوانين الموضوعية للعالم الخارجي وتتعرف إلى العوامل الحقيقية التي تمسح حرية الفنان داخل المجتمع وإنما اكتفت بتقديم تصور مثالي - ذاتي - بالمعنى الفلسفي - لهذا الواقع»(٢) في حين أن الحادثة في جوهرها لاتقدم نفسها على أنها خطاب مرجعي أو تصور نهائي، ولكنها تطرح نفسها على أنها ذلك المعنى الاشكالي الذي يحاكي السؤال ولايعرض عنه.

١ - ينظر: جابر عصفور: معنى الحادثة في الشعر المعاصر، فصول ٤، ٤، ع ٤، سنة ١٩٨٤، ص ٣٨.

٢ - فاضل تامر: مدارات نقدية، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٧، ص ١٧١.

وعلى الرغم من المعنى اللغوي المشترك لمصطلحي الحداثة والمعاصرة، إلا أن لكل منهما خصوصياته التي تتنافى أو تتعارض مع الأخرى، ولعل ذلك ما قد يتضح مما قرره Henri le febre «فالعصرية هي الوعي الذي تكونه عن نفسها العصور والحقب والأجيال المتتالية، فالعصرية بذلك تتمثل في ظاهرات الوعي وفي الصور وفي استقطابات الذات... إن العصرية حدث سوسيولوجي وإيديولوجي»^(١) أي أنها انعكاس لوعي ظاهراتي مرهون بوضع تاريخي معين، أما الحداثة فهي «تفكير بادئ وتخطيط أولي، تتفاوت جذريته، للنقد والنقد الذاتي، إنها محاولة للمعرفة... إننا ندرك الحداثة داخل مجموعة من النصوص والوثائق تحمل بصمة عصرها، ولكنها - مع ذلك - تتعدى، الدعوة إلى الموضة وإلى الجديد: إن الحداثة تختلف عن العصرية مثلما يختلف تفكير ما، عن الواقع»^(٢) والحق أن المعاصر، أو العصري هو كل ما يعاصر دون أن يكون له قدرة الامتداد الزمني، والتسلط التأثيري، على حين أن الحداثي هو الذي تكون له القدرة على مجاوزة عصره، والامتداد إلى عصور تالية، فالعصري ينصرف إلى المفهوم الزمني، والحداثي ينصرف إلى المفهوم الحضاري. ونحن لانرى بأن العصري لايشتمل على نزعة معرفية ما، فهو قادر على ذلك لكن بدون اقتدار على المجاوزة الظرفية، والمعايشة العابرة.. فكأن الحداثة إذن، تكتسب فاعليتها من المسافة الاختلافية التي تعمل على تمديدها، وتوسيعها أكثر، كما أنها مضطرة إلى تحديد اقتناعها المعرفي في إعطاء الفكر الحديث مفهوما مغايرا، غير أن هناك من يؤكد - في سياق التفرقة بين المصطلحين - على الأولوية الأنطولوجية انطلاقا من الأساس الابدستيمولوجي المتناقض المتمثل في اصطدام الوعي الفردي بالنزعة الانسانية والذي يرمي إلى «التمييز ما بين الحداثة بمعنى "Modernité" والحداثوية بمعنى "Modernisme" وتتجلى الحداثة في المعنى الأول في

١ - محمد إدراء: اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة مجلة فصول م. ٤ / ع. ٣ سنة

١٩٨٤، ص ١٣.

٢ - م. س.

مفهوم «التقدم» وهو مفهوم انساني طبيعي في جذره، في حين تتجلى «الحداثوية» في مفهوم العزلة الانطولوجية» (١) غير أن الأمر بالنسبة ليوسف الخال ليس مجرد أولوية أنطولوجية بقدر ما هو اشكال معرفي قائم على الاختلاف، اختلاف الرؤية واختلاف المعنى، ولايتأسس هذا الاختلاف - لديه - على نقض الحداثي للحداثوي بل على انصهار المفهومين في جدل معرفي «ففي حين تنهض «الحداثية» في خطابه بوصفها «موقفا انسانيا - طبيعيا» (أو علميا» من العالم، يشكل «النظرة الحديثة إلى الوجود» على حد تعبيره، فإنها تنهض لديه على مستوى الكينونة الانطولوجية للفرد (وهنا تصبح «الحداثية» «حداثوية») بوصفها موقفا «شخصانيا - وجوديا» من العالم» (٢).

ان عنف الحداثي لم ينف أو يقصي ارادته في الخلق، ولكنه مقابل ذلك جعل من الحداثية موجة بلاقرار، تلتحم بواقعنا المتلاشي في حيز الراهن، في حين ترمي بتخميناتها إلى الما بعد، سعيا وراء المستحدث، والمبتكر. وتعلن في الوقت ذاته على خيبتها في إعادة البناء، وانحرافها إلى العدمية المترتبة عن حركات مثل التكعيبية، والمستقبلية، والدادائية، والسريالية التي ظلت تعيد إسناد مفهوم الحداثية أو المعاصرة إلى قوة المستقبل، بعنف متواصل ينتهي إلى تلاشي معاني الفن الأصلية. إن هذه الرغبة الطلائعية في تدمير كل شيء وتجاوز حتى الحدود الطبيعية للانسان، هي أيضا سيناريو الهدم، والعبثية والعدم. وحتى تنفرد الحداثية رغبات الحداثي في تعنته، ورفضه للمشهدية، أو الوصفية، بل ان من طبيعتها التمرد حتى على نفسها.

١ - محمد جمال ياروت: تجربة الحداثية ومفهومها في مجلة شعر «قضايا وشهادات» (عدد خاص بالحداثية) ص ٢٩٦.

٢ - م. س.

وعلى العموم، فإنه لا يمكن لأية دراسة حدثية أن تتفادى الإطار الجدلي الذي ظهر فيه المصطلح سواء ما تعلق بالمناخ الحضاري أو ما رافقه من تقلبات تاريخية ومعطيات فكرية وفلسفية وفنية.

القطيعة والمفارقة

ينهض المعنى المركزي لمصطلح الحادثة على مفهوم المفارقة، وتعارض الصيغ الحديثة مع كل ماهر تقليدي، ونمطي، وأحادي، وهذه التعددية التي هي من صفات الحداثي ليست سوى نتيجة لعجز البنى القديمة في حل مشكلات تفتح الوعي الذي ظهرت مؤشرات جليا مع بداية عصر التنوير، والذي أبدى رغبته في مخالفة العهود السابقة انطلاقا من القطيعة المعرفية التي دعا إليها التفكير الفلسفي، أو الميتافيزيقا الحديثة. والذي أخضع القيم المعرفية لمعطيات العقل، والبرهان، والتجريب.

ومن ثمة نشأت فكرة الانتقال من القديم إلى الحديث، والصراع بين القدامى والمحدثين، والتفكير حول قدامة العالم وحدثته، أما هنا فإن الأمر قد يتطلب منا وقفة عند البدايات الأولى للحادثة. فعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر حول تحديد بداية تداول هذا المصطلح إلا أن «هبرمان» يعود إلى الحقب الوثنية حيث يستكشف بأن الكلمة «استعملت للمرة الأولى» في القرن الخامس الميلادي للتمييز بين عصريين: أولهما الروماني الوثني، وثانيهما الحاضر المسيحي، «؟» بيد أن مقاربة الحادثة في ظل معطياتها التاريخية تستدعي منا العودة إلى العهود الإغريقية حيث أن اليونانيين وحدهم هم الذين تشوفوا «إلى الإنسان الكلي»، «؟» وقد عدت حضارة اليونان رمزا للحادثة البدئية التي ما تزال تستلهم لا شعورنا الجمعي. ونحن لانعتقد أن مثل القطع بهذا الرأي ما يستقيم، ذلك بأن الغربيين بحكم

١ - كامل حمود: الحادثة الشعرية بين الرنخ والقبول، كتابات معاصرة ع ١١، سنة ١٩٩١، ص ٤٥.

٢ - هنري لوثيفو: ما الحادثة، ص ١٠٠.

مركزية التفكير لديهم، لا يبرحون يزعمون بأن الانسانية مدينة في تفكيرها الشامل للأفريق القدامى وحدهم من حيث نحن العرب لانرى هذا الرأي الذي لا يخلو من مغالطة ومغالاة. ذلك بأن العرب، وخصوصا على العهد العباسي، في أوج عطاء الحضارة الأندلسية أيضا، استطاعوا أن يهتدوا، بالممارسة والتفكير إلى وجود قديم تقليدي، وحداثي يعارض هذا القديم... فكون اليونانيين وحدهم هم الذين تشوفوا إلى الانسان الكلي قد لا يعدو كونه «خرافة» تنتمي إلى التفكير الفلسفي.

وأما ما يراه هنا عبود من أن الحداثة «لم تتجل طوال العصور السابقة إلا مرتين في مكانين وزمانين متباعدين. المرة الأولى تجلت الحداثة في اليونان القديمة، وأطلقنا عليها «الحداثة الزراعية» وكان ذلك قبل الميلاد بعدة قرون، والمرة الثانية تجلت الحداثة في القارة الأوروبية، وكان ذلك بعد الميلاد بكثير من القرون وأطلقنا عليها «الحداثة الصناعية»^(١) لكننا لانحسب أيضا هذا مما يستقيم، إذ نلقيه يقفز على العطاء الحضاري الضخم للعرب المسلمين ويقصر التفكير على غربين اثنين: غرب قديم هو اليونان، وغرب حديث هو أوروبا الغربية. ان هذه مغالطة فكرية ومن المحزن أن نلغي عربا يروجون لها.

وفي جو من بعض هذا الصراع الحاد بين تشدد تعاليم الكنيسة، التقليدية، ودينامية التفكير الحديث، برزت إلى الساحة الأوروبية حركة العصرية لتتماشى مع معتقدات روح العصر آنذاك وكثيرا ما انصرف الناس إلى مختلف أشكال التفكير وحركات القيم التحررية والاجتماعية. ومع تقدم المعارف ازداد الوعي بضرورة ولادة عصور جديدة، وكان عصر الأنوار بداية القطيعة بمختلف أشكالها مع نظام القرون الوسطى، والخروج بالفكر من دائرة المعتقد الراسخ إلى فضاء التحكم الذاتي.

١ - مقارنة الحداثة، مجلة الناقد، ع ٨، سنة ١٩٨٩، ص ٣٢.

إن تحديد مصطلح الحداثة^(١) في المنظور التاريخي، مرتبط أساساً ببلورة المفهوم الذي جاء على أنقاض الكلاسيكية الجديدة أو بما وصف في القرن التاسع عشر بالرومانسية. على اعتبار أن هاتين الحركتين لا تستطيعان مواكبة تشخيص صدارة اهتماماتنا الفكرية؛ وهو الأمر الذي دعا إلى استخدام هذا المصطلح بوصفه بديلاً للحركات الفكرية المتعاقبة «وليفطي مجموعة من الحركات التي جاءت لتحطيم الواقعية أو الرومانسية وكان ديدنها التجريد، حركات مثل، الانطباعية ما بعد الانطباعية والتعبيرية، التكعيبية، المستقبلية، الرمزية، التصويرية، الدادائية، السريالية، مع ذلك ليس هناك ما يوحد هذه الحركات بل أن بعضها جاء ثورة كاسحة على بعضها الآخر»^(٢) وهكذا شأن جميع المعارف والمصطلحات، والمفاهيم السياقية التي تحدث بصورة منتظمة ثم سرعان ما تستكشف نسبيتها - على الرغم من إثارة الجدل القائم بعد الولادة العسيرة - لتصبح هذه «النسبية» خاضعة للتطور المنطقي ثم تتعاقب الأزمنة فتحدث نقلة خاطفة بأبعاد جديدة من واجبها أن تربط الماضي بالحاضر مع ما يرافق ذلك من تأثيرات لاحقة تمتاز بالرؤية الكشفية.

أن طبيعة الحقبة الحالية المعبر عنها بالمنقطع والمتحل (التفكيك) كانت بمثابة ردة فعل مضادة لحقبة امتازت بالتواصلية والاستمرارية - على حد ما جاء لدى لوفيفر -، إلا أن ما يميز وجودنا الراهن بالاضافة إلى ذلك هو نمو الوعي الفردي، وظاهرة الانتشار الحر للأفراد، وكذلك نشوء

١ - سنقتصر في حديثنا عن الحداثة - هنا - بماله ملاقة بتقلبات حياتنا السريعة والتي نعترف مسبقاً بأنها خاضعة حتماً إلى قابلية التغيير المتلاحق شأن ما امطلع على تسميته بالحداثة الأولية ثم الحداثة البدائية، فالحداثة الجديدة. وكلها يعصب في قالب مواقف متغيراتها التطورية في نشاطاتنا الفكرية بخاصة.

٢ - مالك براديري وجيمس ماكفالرلن: الحداثة، تر / مؤيد حسن فوزي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد / ١٩٨٧، ص ٢٤.

فكرة الهدم، والهدم الذاتي.. ومن شأن هذه المفاهيم ليس فقط زعزعة
البنى السابقة، بل هي دعوة لانقراض كلي لكل ما سبق لتتجسد من خلاله
الحدث رؤية كونية، وحركة تغيير شامل.

وبالإضافة إلى تضارب المقاييس حول طبيعة المصطلح، واستعمالاته،
وامتداده التاريخي، وديمومته، والتحويلات التي رافقته، يصادفنا اختلاف
من نوع آخر يدور حول فترات النضج والتراجع والتوتر والتألق لهذا
المصطلح الذي لا يزال قائما، ولم تصل حدوده النظرية إلى بلورة شاملة
لمعالمه المعرفية ودلالاته التاريخية «ولكن بصورة عامة، تعد فترة الربع
الأول من القرن العشرين الفترة التي وصلت فيها الحداثة أعلى درجات
النضج. هناك من يعتقد بأن ذلك النضج تحقق في السنوات التي سبقت
الحرب الكونية الأولى. وهناك من يعتقد بأن السنوات التي تلت تلك
الحرب كانت سنوات النضج الحقيقي لها»^(١) ومهما تعددت الصيغ المفهومية
لهذا المصطلح، واشتبهت معايير النقد بخصوصه، فإنه يظل يقدم نفسه
على اعتبار أنه ذلك المعنى الإشكالي المستعصي، وعلينا أن ندرك هذا
المعنى في إطاره الديالكتيكي المحايد.

شيثانية الحداثة *

أ - من المنظور الفكري

وحتى يتيسر علينا فهم الحداثة في جذورها الأولى، ارتأينا أن ننظر
إليها في منظورها الفلسفي عليها تكئنا من استجلاء وعي العصر غير
الفعل المتجدد الذي يسوغ للتقديم دوما الشعور بالتدرج إلى عصر جديد
يدعو إلى ولادة مثل عليا لخلق وقائع هي التي يشغف الإنسان للبحث عنها،
«وبتأثير هذا الجو وتحت ضغطه نحضر «هيوم» فكرة التسليم بوجود
طبيعة إنسانية ثابتة، أو فعل ثابت، وتجلى ذلك عندما فحصر طبيعة الفهم

١ - مالك برانبري وجيسس ماكفالرلن: الحداثة، ص ٣٧.

الانساني، وأدى هذا المنحى إلى نشوء بعض الحقائق التي اعتبرت في ذلك الحين مستهجنة وموجعة، منها عدم الايمان بقدرة العقل المطلقة لأن التمسك بالوقائع وبالتجربة يحد من قدرته، ويقف حائلا كثيفا أمام انطلاقة الميتافيزيقي. ومنها أيضا، كنتيجة وامتداد للأولى، برزت ظاهرة الشك في الماورائيات، على الأقل، مما دفع ببعض المفكرين إلى المناداة بضرورة تحرير العقل من كل قيد أو سلطان خارجي يحد من استقلاله. ولعل أفضل وأدق من عرف عصر التنوير هو كانط حينما قال: «التنوير هو طريقة خروج الانسان من استحالة استعماله عقله دون الاستعانة بسلطان آخر»^(١). إن اثبات فرضية كانط المحددة على هذا الشكل المستوحى من الحدث المنتج إنما مرده أن الحادثة في نظريتها المعرفية قائمة على خطاب يلائم فكر الحال في كنهه الممكن الذي يحدد مشروع المعاصرة، ذلك بأن سيطرة الإنسان على واقع حاله من شأنه أن يروض فيه ملكة الغاية الممكنة وهو الزعم الذي يتبناه هيجل على اعتبار أن الحادثة عنده «لاستطيع ولا تريد أن تستعير، من حقبة أخرى، المعايير التي بموجبها تتوجه، وهي مضطرة إلى استقاء قوانينها من ذاتها. ودونما سبيل إلى المراجعة، لاستطيع الحادثة الاتكال إلا على ذاتها، هذا ما يفسر حساسيتها الشديدة تجاه الفكرة التي تكونها عن ذاتها، وهذا ما يفسر أيضا حيوية محاولتها لكي تستقر ولكي تصبح مرتكزة على ذاتها»^(٢) عبر تكوين الذاتية الاطلاقية التي تنتج بها المفاهيم، ذلك بأن أكنوم المرتجع الجمعي يحد من تثوير الحادثة. ولاشك في أن حق الاختلاف الذي يتحيز له كل فرد من شأنه أن ينمي فيه روح التفاعلات التأويلية المتلذذة باغواء متعتها الكشفية.

١ - ينظر: د / كامل حمود: الحادثة الشعرية بين الرفض والقبول، مقال في مجلة كتابات معاصرة، ع ١١ / ص ٤٩.

٢ - م. س. ص ٤٧.

ان الخطوط الكبرى لحياتنا اليومية أصبحت ترسم الشكل العام للوحدة الفردية، كما أصبحت تفاصيل علاقاتنا تتحدد طبقا لمطالب النزعة الذاتية في تأملاتها النفعية. وهكذا يتولد الشعور بنبذ العلاقات الجمعية المطردة والميل ما أمكن إلى إرضاء الذات «الفردية» من حيث ما ينطوي عليها جوهر المادة. إن تجربة الشعور بالوحدة الفردية من طبيعته أن يلزم الذات «الفعلية» الإبداعية فيما تتصوره لمستقبلها فتفتح أمامها سبل وجود الأشياء بحسب طموحاتها ومتطلباتها، وأية ذلك أن الحداثة هي نتاج تصادم الذات مع الكون فيحدث التمرد على المسلّمات، ويتألق الفكر نحو خرق المجهول. والواقع أن الذات تواقة إلى الإشعاع الذي جاء على أنقاض التمرکز والانضباط كما نزعّت إلى الانفصال بعد سأمها من الاتصال، وأن المرء هو في حاجة دائما إلى التجديد والتطلع، وإلى المرغوب فيه غير المألوف، فلا غرابة إذن أن تجيء الحداثة وفق هذا المنظور لتحرر الفكر من حبس موضع الشيء، والخروج من أسر العلاقات الارتباطية إلى عالم تقوية الشعور بالارتداد إلى النزعة الفردانية من ثراء عالم الكون المتجدد الذي يعبر عن عمق التجربة الإنسانية.

ب - من المنظور الجمالي:

لم يكن في مقدور علم الجمال الحديث أو الجماليات سوى أن تبنت من المفاهيم التقديرية في مبدئها للقيمة الجمالية، ومن ثمة راحت تبحث لها عن دعائم مستحدثة تتشكل من خلالها بنية الفهم المعاصر لجدلية الإبداع الفني من حيث إنه تفتح «للوجود وانكشاف للحقيقة» فالعمل الفني بهذا المعنى مؤشر ظاهري على معنى باطني، وقد تحدث هيجر وغيره(*) عن شيئية العمل الفني أي جوهريته وكينونته؛ وربما كان سعي الفنان منحصرا في كشف النقاب عن هذه الشيئية الموجودة في عمق الشيء

* - ومن قبله ابن سينا الذي اعتبر أن الشيئية غير الموجود في الأعيان؛ مثال ذلك قوله: فإن المعنى له وجود في الأعيان، ووجود في النفس وأمر مشترك، فذلك المشترك هو الشيئية (النجاة ٢٤٥) ينظر د / جميل صليبا: المعجم الفلسفي ١/٢١٣.

نفسه حيث يشير إلى «أن الجانب الشينئي في العمل الفني إنما هو ذلك الجانب الخصب الذي يكشف لنا عما ينطوي عليه العمل من وحدة فنية. فالشيئية هي بمثابة الدعامة المتينة التي تستند إليها مقومات "العمل الفني" باعتباره موضوعا حسيا» (١) لذلك فقد أثرت الاستطيقا المعاصرة توجيه مساعيها إلى بحث عملية الانتقال من حالة "وعي" إلى حالة "ظهور" أي انتقال الوعي الجمالي إلى ظاهرة الوجود العياني (الواقع) فهي إذن تبحث في كيفية هذا الانتقال من الوعي إلى الظهور.

ولعل بودليير - حسب ما تقناقله جل الدراسات - كان سياقاً في بلورة مفهوم نظري لمصطلح الحداثة. فقد كان شغوفاً في وعيه بعالم يتشكل جمالياً، وظل هذا المصطلح يكتسب لديه دلالات مغايرة تنصهر فيها ثنائية الطبيعي والمصطنع حيث يقول: "ما أعنيه بالحداثة هو العابر والهارب والعرضي ونصف الفن الذي يكون نصفه الآخر أزلماً وثابتاً" وقد اتخذ مفهوم الحداثة عنده وجهين أحدهما سلبي وهو نتاج اصطدام الفن بالتمدن اثر موجة الموضة "La Mode" التي طغت على جماليات الأنا الطبيعي وقد لخص لوثير موقف بودليير هذا في قوله: "أن بودليير يختار معارضة الطبيعة، أي نصرة الفن القائم على الخلق المحض غير المقلد، ما هو معطى ولا ما هو خارجي، أي المتطابق مع المصطنع الخاص بالنتيجة" (٢) أما الوجه الثاني فهو يكشف عن الموقف المتذبذب لحنة الأنا البودلييرية في بحثها عن كينونة - بعيداً عن واقع الموضة - تقيه مغبة السقوط في التناقض.

١ - ذكرى إبراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة ٢٠٢٢.

٢ - ما الحداثة، ص ٢٠.

إن كـيفـيات البـحث تـتباين بحسب اختلاف وجهات النظر كتلك التي دعا إليها سوريو "Souriau" من خلال تحويل العلم الاستطقي - بحسب المفاهيم الجمالية - إلى "علم شيء" Chosiste قصد الولوج في كينونة العمل الابداعي بوصفه "حضرة فنية نتأملها لذاتها" بغض النظر عن أية منفعة ماعدا ابداعيته الأصلية التي هي جوهر تلك الحضرة الكونية نحو خلق الأشياء دون محاكاة، وفي هذا الشأن يقول سوريو: «ان الاستطيقا هي دراسة موضوعية تنصب على تلك الأشياء التي يستحدثها الفن حين يخلع "صورة" أو "ماهية" على المادة»(١).

ان استطيقا الرؤية الحداثية المعاصرة قد سعت إلى فض المسافة الاختلافانية بين الكائن وكينونته المضمرة، في تشكل المعنى الجوهرى للجمالانية.

وقد أيقن الفكر الحداثي حاجة الرؤية إلى العقل ولذلك كان على العقل الحديث المعاصر أن يتحدى ماهو قدسي وماهو مقدس لكي يزيح الستارة والحجاب عما هو وراء الحجاب ليرى مايرى من مطلق ومقدس. هكذا يجاهد العقل المعاصر بشتى الوسائل التقنية والفكرية والتصويرانية لازاحة هذا الحجاب ولرؤية الموضوعانية في صفائها، ولرؤية ما اعتبره كانط الشيء في ذاته، ولرؤية الجمالانية البحتة(٢) وعلى هذا الاعتبار فإن الحداثة الجمالانية هي اقضاء للمعايير الحسية والحدسية واحتفاء بالعقلانية التي تساعد في اقتناص الأنكار التي تصدر عن صراعات توحى بها مضمونات فنية. ومن ثمة نصل إلى مايمكن أن نسميه بالانتقال من الاحساس بالفن إلى التفكير فيه.

١ - زكريا ابراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، ص ٢٥٦.

٢ - سامي أدهم: ما بعد الحداثة، دار كتابات بيروت، ط ١١/١٩٩٤ ص ١٢٠.

هذا الماوراء المستور هو ما تسعى الجمالانية الحديثة إلى كشف ملامحه عبر تجلياته المختلفة في شتى الفنون، وذلك بواسطة التجريد الذي لا يعد ملصحا عصريا وحسب، ولكنه أيضا بمثابة الأس الجمالي الذي تقوم عليه الأعمال الفنية الحديثة «فالفنون التجريدية المعاصرة التي أوغلت في التجريد الفني، في الرسم، والشعر، والنحت، والموسيقى، ما هي إلا المعبر الأساسي عن روحية هذا العصر في التصوير العقلاني المجرد. والعمل الفني المجرد هو تصور تجريدي وقيمة تجريدية تخضع لقواعد التجريد، فليس من الصواب بشيء القول بأن الفن المعاصر هو محاولة في الانقلاب والفوضى، بل هو خط تجريدي معقولي يستعمل التجريد ذا الطاقة الهائلة للوصول إلى العقلانية»^(١)، لذلك فهو يدخل ميدان المعقول وينسجم مع العقل ويصوب نحو العقلانية.

ج- من المنظور الشعوري:

إن الإحساس بالشيء، وإدراكه في صورته المثالية ناشئ عن سياق الخبرات الذوقية، ودمج التصور الذهني بالفعل في صورة المدرك للخبرة الجمالية وذلك حين تتفاعل الصورة الشعرية ببعض المؤثرات الجمالية القائمة على نظرية الغاية المعرفية التي تخضع لثقل التوجه الذوقي وما يترتب عليه من تحليل للخبرات الفنية بتحديد مجال الرؤيا الشعرية. ولا شك في أن الصورة الشعرية في علاقتها بمدركات فيضها الداخلي مردها إلى الفوص في صميم النشاط الكوني والفكري للموجود البشري الذي أبدع بمغامراته في طبيعة الأشياء التي من شأنها أن تحرك النسق الحضاري في حركيته المتسارعة.

١ - سامي أدهم: المرجع السابق، ص ١٢١.

فإذا كانت الحداثة في الفكر العربي القديم - كما ورد بعض ذلك منذ أبي حيان التوحيدي - هي وصل الشيء بالزمان، يكون به في الحال، لا تقدم له من قبل،^(١) فإن الحداثة في الطروحات الغربية ظهرت مع بودليير الذي كان يحاول التفكير جماليا في العالم الحديث، مخضعا للفن الأنواع الأخرى من الفعل والمعرفة،^(٢) إلا أن ذلك كله لم يسعفه في تحقيق نبوءة "الحداثي" الذي سرعان ما ارتطم بإهنية الواقع المدمرة والساحقة، على الرغم من أنه استطاع خلق أفضليته العلمية، ليستكشف من بعده فلوبيير ومالارميه ما يمكن وصفه بالجانب المنسي من بقايا الحلم البودلييري الذي افتتح به عصرا لحداثة شعرية لم تتجل بماهي رؤيا جمالية وحسب، وإنما شقت أفاقها الجديدة بأساليب غير مطروقة، ولا مألوفة. ولم تكتف بذلك، بل دعت إلى التدمير الشامل لكل المعايير السالفة.

لقد نظر الفنان إلى فنه برؤى الابتكار والخلق، والتعدد، وأمن بمقولة رامبو Rimbaud التي ترى أنه « من الضروري أن نكون محدثين بصورة مطلقة »^(٣) وذلك شأن الفنان الذي ينبذ صفات التقليد، ومبدأ التواصل معه، ويتطلع إلى استخلاص قيمة من واقع طموحه، وصدى أفكاره ورؤاه، وليس بما يفرض عليه من الخارج. وقد عبر فلوبيير عن هذه النزعة الجمالية التي وسمت عصر الحداثة بقوله: « كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتابا جميلا حول لاشيء، وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية، يفرض نفسه بحكم قوة أسلوبه »^(٤) ولنا أن نتساءل للوهلة الأولى - من خلال رغبة المبدع في جعل نتاجه الفني بنية مكثفية بذاتها - حول جوهر هذه الجمالية. ونحن إذ نوافق فلوبيير على أن تكامل هذه الشعرية لا يتم إلا في ظل أسلوب حر ومبتكر إلا أن ذلك وحده لا يكفي، فالثورة الأسلوبية

١ - الإمتاع والمؤانسة، ٢٢/١ - ٢٦.

٢ - ما الحداثة، ص ٢٢.

٣ - ينظر: مالكم برادبري، وماكفارلن: الحداثة، ص ٢١.

٤ - جيمس ماكفارلن، ومالكم برادبري: الحداثة، ص ٢٥.

التي نشأت في مناخ من الحرية لم تمكن فناني القرن العشرين من التعمق أكثر في حقيقة الوظيفة الشعرية بوصفها ممارسة إبداعية لمقاربة الحس الانساني، وبخاصة حين نلاحظ أن فنان هذا العصر قد منح حظا أوفر من الحرية التي تساعد في تخطي حدوده الأنية نحو عوالم مجهولة.

وفي وسعنا نحن أيضا أن نتصور ما يمكن أن تسفر عنه مثل هذه المناخات من أبعاد ونتائج، وأثر ذلك في الإنتاج الفني، وبخاصة الشعر. فإذا كانت الحداثة تفكيراً في اللامفكر فيه، فإنها، شعرياً، بحث عما لم يحدث - على حد ما جاء لدى مالارميه، إلا أن "س. س. لويس" لا يشكك أو يتساءل - وإنما يستقرئ ملامح العصر حين يقول: «لا أتصور أن هناك عصراً سالفاً أتى بأعمال محيرة ومدمرة كالأعمال التي جاءت بها الدادائية والسريالية، أعتقد جازماً بأن هذا ينطبق على الشعر... لا أستطيع أن أتصور انساناً يشك في أن الشعر المعاصر هو أكثر تجديداً من أي شعر حديث" وهو أيضاً جديد بطريقة جديدة، ببعد جديد تقريبا» (١) وقد يكون المقصود من الطريقة الجديدة والبعد الجديد في الشعر الحديث، هو ملامح الرؤية الشعرية الحديثة على مستويات النص من حيث أساليبه المميزة، أو أشكاله الجديدة، أو لغته المبتكرة، أو هذه العناصر مجتمعة ومشكلة ثورة شاملة على مختلف أشكال الفن، ومضامينه التقليدية التي لم تر فيها الحداثة الشعرية نقصاً لذاتها وإنما انكرت على نفسها صفة التقليد من حيث هي جزء من مبادئها التجديدية في نشدان عالم الكشفي. وبهذا نستطيع عد الحداثة حركة تسير في طريق تعميق ادراكنا الفن والانسان. إنها تريد تحقيق فن لا وجود له الآن (٢) أي أنها سيرورة نحو تعميق إحساسنا بمعنى الإنسانية والفن.

١- نفسه، ص ٢١.

٢ - جيمس ماكفارلن. ومالكم برادبري: الحداثة، ص ٢٨.

تلك هي الحساسية الجديدة، أو الرؤية الحديثة، التي نظر بها الجيل الجديد إلى فنه، حيث لم تعن له الحداثة سوى انهيار القيم الراكدة التي ظلت تسيطر مدة قرون؛ لتكون الحداثة هي الهزة التي تفصل عصرنا الحالي عن العصور السالفة لما يتسم به من اختلاف، وتجديد، وطموح، وبما يمتلكه من قدرة على التجاوز والتفرد، والابتكار. ولعل ولادة الحداثي لم تكن سوى نتيجة لتلك التحولات الكبرى التي شكلت النواة البدئية لنظرة المغايرة والتي تبلورت في ضوئها - من بعد ذلك - ملامح الحداثة البعدية.

وليس معنى ذلك أن الحداثة قد بوركت لما حظيت به من اهتمام لدى أنصارها لكونها حركة تغيير شامل، وإنما اعتبرت الكنييسة لعنة العصر، كما لم تسلم من انتقادات لوكاش من حيث انسجامها مع الذاتية المفرطة، وتكريسها لمبدأ العزلة الأنطولوجية للأفراد، ويرى هاري ليفن أنه على الرغم من أن الأدب الحديث يقف بجراسته، فإن ثمة عضوا واحدا من الجسم يبقى ذكره في الغالب محظورا ألا وهو العقل. ولعل ما يؤخذ على المحدثين أنهم كانوا مغرمين بأنكارهم الشخصية وهذه هفوة لا يمكن تجاوزها لعصر أبطال الثقافة فيه من غير عقل^(١) الأمر الذي يعكس التناقض الفظيع الذي تورطت فيه الحداثة. إذ في مقابل ما حققت من انتصارات ايجابية عبر تحولاتها، نلمس مقدار ما جرّت من أضرار إلى الفنون تمثلت في قوى الهدم والتفكيك، وما جلبت إلى الشعر بخاصة من استلاب وفوضى، وانعدام الوعي، والخوض في الضبابية والغموض.

١ - ينظر عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر الحديثة في القصيدة العربية المعاصرة، عالم الفكر مر ٩.

لقد وقف التاريخ صامتا إزاء اللغة التي شكلت انعطافا حقيقيا، لا من حيث تجريديتها المفرطة وحسب، ولكن من حيث أن اللغة «هي التي ستصبح الجذر الجامع لكل الفنون. إذ أن الفنون ستقدم نفسها، أسوة باللغة، باعتبارها لغات متخصصة، تقنيا، في الرسم، أو النحت، أو الموسيقى» (١) فأوغلت في التجريد الذي هام به الشعراء والفنانون منذ بودليير بقصد تحويل الخطاب الجمالي عبر اشتباك الحلم بالواقع من خلال بطاقات الإبداع المتجددة.

ثانيا: الحداثة العربية

أوليات التأسيس:

تندرج تحت مصطلح الحداثة صيغ مفهومية واصطلاحية ملتبسة، لا من حيث المعنى وحده، وإنما من حيث محمولاته الدلالية المتعددة. ولا مناص من مقاربة هذا الإشكال التصوري - بحسب عبد السلام المسدي - بالجوء إلى "استئصال مولدات الالتباس بين البنية الاصطلاحية والمقاصد الدلالية" (٢) وأولى هذه الالتباسات ارتباط مفهوم الحداثة بالزمن. وفي هذا الشأن يقترح المسدي قياسا نسبيا تتجاوز من خلاله مقولة الحداث بعدد الزماني الفيزيائي، وتقترون - فنيا - براهن الحال "الحاضر" بوصفه نزوحا نحو صيرورة التحول الدائم. واعتبارا من هذا الطرح يخلص المسدي إلى "أن نواة الكثافة الدلالية المحددة لمفهوم الحداثة كامن في مبدأ "النسبية" وهذه النسبية - التي تتراوح متدرجة من نسبية الزمن والاعتبار ونسبية الحكم والحقيقة، إلى نسبية التصور والتصديق، بل وإلى نسبية المرجع الذي نستند إليه في القطع بوجودها أو إنعدامها - هي لب ماهية الحداثة باعتبارها مقولة ذات جوهر" (٣) وإذن، فلا يمكن مقاربتها إلا في مستوى الزمن الذهني أو التصوري الذي لا يرتبط بآنية معينة، وإنما يظل انفتاحا أيديا على ما يحدث.

١ - لوثير. ما الحداثة من ٢٥/٢٤ .

٢ - النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت من ١٨ ط ١ سنة ١٩٨٣.

٣ - م. س. من ٩.

ليس مهما البحث عن النواة الجينية لمصطلح الحادثة في واقعنا العربي، وإنما الاطار الجدلي الذي تبلور فيه هذا المفهوم هو الإشكالية الأكثر أهمية في دراستنا، ومع ذلك لا يمكن فهم الحادثة العربية إلا في إطارها المعرفي، والمفاهيمي والتاريخي الذي ظهرت فيه بدءاً من مرحلة الانتقال من عصر التخلف إلى الانفتاح النهضوي. والملاحظ أن مصطلح الحادثة عندنا لم يتجاوز دلالة المعجمية، ولم يكتسب أية ظلال مفهومية خارج المعجم اللغوي للكلمة إلا في أثناء الاصطدام بالحادثة الغربية.

وإذا شئنا مقارنة المصطلح في سياقه النقدي والاصطلاحي دون الاعتماد على المظاهر الجزئية، فثمة دراسات جمة قد أفلحت في فحص دلالات الرؤية الفنية الحديثة، واتجاهاتها الجمالية، مع الإشارة مسبقاً إلى أن مصطلح الحادثة العربية لم يسلم هو أيضاً من مظاهر الجدة، والتجديد، ونزعة الحداثوية، ومقولة الحادثة من حيث هي مفهوم جوهري يتجاوز المعنى الزمني دون أن يقع في وهم المخالفة المبنية على محاولة إسقاط التراث من سلسلة تاريخية تمتد قروناً من وجود الإنسانية.

في حين لا يعني هذا في شيء أن الحادثة هي سلبية أصول نشأت «عن حاجة المجتمع العربي الشاملة للتجديد والتحديث في مختلف القنوات الحضارية من اقتصادية واجتماعية وثقافية، إنها انبثقت، بطريقة جدلية، من داخل التجربة الشعرية العربية وإنها لم تكن مقطوعة عن الموروث الشعري العربي والانساني، وإنما كانت تمثل مواصلة متطورة له، كما أنها من الجانب الآخر لم تنشأ بمعزل عن التحسس بأهمية نزعات الحادثة والتجديد في الشعر العالمي وبشكل خاص في الشعر الأوربي وبعض روافده المؤثرة» (١) وفي أصدق حالاتها تبدو الحادثة ولمدة الانعتاق من الحيز التراكمي / المعرفي وضرورة اللحاق بركب الحضارة. أي أنها وليدة الوعي

١ - فاضل تامر: مدارات نقدية في إشكالية النقد والحادثة والإبداع، ص ١٨٦.

بضرورة التغيير، والخروج عن النمطية والتخلص من عقدة التراث. لكن الصدمة الحقيقية لحدائتنا تمثلت في انشقاق الوعي العربي بين حضارة تقدمية تنادي بالانفتاح، وبين سلفية ماضوية تدعو إلى التمسك بالأصول. وقد عبر عن هذا الانشطار المعروي من خلال قوله: «منذ النهضة ونحن نعيش بأجسامنا في قرن، وبأفكارنا وشعورنا في قرن سابق بدعوى المحافظة على (الروح الأصلي)» (١) ولعل مثل هذه الصدامية التي ماهي إلا نتيجة لصراعات داخلية، وأخرى خارجية قد كانت بمثابة الارهاصات الأولى لاختلاف أشكال التغيير، والتطور، والتجديد.

وعلى الرغم من أن مظاهر القطيعة البدئية قد تمثلت فيما اعتبره القدماى خروج المحدثين عن ضروب القول المعتادة، وتمردا على نظام اللغة المألوف إلا أن «الحدائنة في المجتمع العربي بدأت كموقف يتمثل الماضي ويفسره بمقتضى الحاضر، ويعني ذلك أن الحدائنة بدأت سياسيا بتأسيس الدولة الأموية، وبدأت فكريا بحركة التأويل» (٢) والملاحظ أن أدونيس ينطلق في تحديده لمظاهر التحديث من واقع مشكلاتنا التراثية (التعارض بين القديم والجديد).

هناك تياران مثلاً لقطبي الحدائنة العربية، أحدهما سياسي / فكري تمثل في الحركات الثورية التحررية ضد النظام القائم، وفي الصوفية، وآخرهما فني يلغي عصمة الأوائل في القرن (٣) فالثورة تعني الرفض، والالغاء يعني انكسار النموذج التقليدي، والتحول الذي يرمي إليه أدونيس ليس في الموقف وحسب، وإنما أيضا في أنماط الوعي، وطرائق التفكير التي يوسعها أن تتيح للإنسان مزيدا من المعرفة بنفسه، وبالعالم يتشكل من حوله باستمرار.

١ - ينظر: محمد برادة اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحدائنة، فصول ٤٣٤ /

١٩٨٤ ص ١٩.

٢ - أدونيس: الثابت والمتحول ج ٣ "صدمة الحدائنة" دار العودة - بيروت ط ٤ / ١٩٨٣ ص ٩.

٣ - ينظر المرجع نفسه، ص ١٠.

وإذا كانت تجليات الحداثة العربية قد تمثلت "إيديولوجيا" في محاولة تغيير أنظمة الحكم السائدة، و"فكريا" في الحركة الصوفية و"فنيا" في البعد التأويلي - على حد ما جاء لدى أدونيس - فإن ذلك لا يعني مطلقا بأن العربي ظل حبيس مشكلاته ومفهوماته المحدودة دون أن يحاول الأخذ بمختلف عناصر التحديث والتجديد التي ظهرت معالمها الكبرى في الغرب. وربما يكون نشوب الحرب العالمية الأولى بداية حقيقية لعصر التقلبات الحضارية (العصر الحديث) حيث شهدت المجتمعات العربية آنذاك إعادة تشكيل بنياتها المجتمعية، والثقافية والاقتصادية.

وهذا النوع من التقلبات وإن لم يكن جذريا في بدايته إلا أنه شكل مخاضا لا يمكن حصره في ميدان دون الآخر، وإنما تعلق الأمر بكثير من المضمونات الحيوية والسلوكات، والمفاهيم، والرؤى، والمواقف، والبنىات، وشملت المعارف والعلوم والفنون والفلسفات لتصبح في يومنا هذا جدلا حادا، وسؤالا متجددا. ولم تعد اشكالية الحداثة في الأحجام عنها، أو في الاقدام عليها، والأخذ بها؛ بل صار لزاما علينا فهمها أولا في إطارها الجدلي وتمثلها من بعد ذلك بخصوصياتها الأكثر جوهرية «والحداثة اليوم، في العلم كما في الأدب والفلسفة والمناهج والاجتماع والاقتصاد الخ، لا وطن لها، أو على الأقل لم تعد محصورة، ولا قابلة للحصر في رقعة من الأرض دون أخرى، الحداثة اليوم حداثة غازية كاسحة، ان لم تأخذ بها أخذتك، وان لم تعمل جاهدا من أجل المساهمة في صنعها، أو على الأقل من أجل تبيينتها في واقعك وخصوصيتك، جرفتك واقتلعتك من جذورك، أو همشتك وألقت بك خارج الحاضر والمستقبل، تجتر الماضي، بل يجتر الماضي نفسه فيك» (١).

١ - محمد عابد الجابري: "الحداثة طريقنا الوحيد إلى العصر" يومية الخبر، ١٩ / ٠٤ / ١٩٩٤ من "اليوم السابع".

المرجعية / التجاوز

منذ زمن والصراع بين القديم والجديد مظهر من مظاهر كفاح الانسان، وتصاعد ارادة الخلق والابتكار في ذاته، وتنامي حاسية الذوق لديه، وكذلك دليل على رفض الثبات وأشكاله، والبحث المستمر عن قيم جديدة خارج التصور المؤلف تماشيا مع ايقاعات الحياة المستجدة، والتي غالبا ما تشكل دافعا قويا للاستكشاف، وحافزا حقيقيا للتخطي، والتجاوز والاختلاف. وقد حفل التاريخ بمثل هذه المغامرات التي اتخذت مضامين مختلفة تجسدت فيما بعد - عبر منجزات الفكر والفن - في مشروع الحداثة.

لقد وجه المنظور الحداثي اهتمامه إلى حقيقة جوهر الصراع «باستكشاف نقطة القطيعة، والتمييز بأكبر قدر من الدقة بين السمك الضمني لما هو قائم، والوفاء للإرادي للرأي القديم، وقانون الضرورات والحتميات الخطابية، وبين حيوية الخلق والاتجاه نحو اختلاف يتعذر انكاره أو رده إلى القديم»^(١) ففي حين يتخذ الجديد صفة الانبثاق المتجدد للحقائق والأشكال، يتخذ القديم أشكالا من التكرار من حيث كونه رمذا للترسبات. وبينما يجسد الجديد بفعالية مدهشة جوهرية الإبداع، يكتفي القديم بكونه مساحات للتراكم، وميدانا للسكون، وإعادة النماذج والخبرات، وكل ما ليس بموجود في خانة الجديد يظل يفتقر إلى الأصالة، والجدة، والتدرة، والقيمة وكل ما هو ممثل للقديم خال من الحيوية والتدفق.

ويتضح مما تقدم أن ميشال فوكو قد طور الرؤية الحديثة لتاريخ الأفكار والابداعات إلى الحد الذي لايفصل فيه بين قديم وجديد، وأصيل ومكرور إلا من 'زاوية الاستحقاق والقيمة' وبمنظرة جمالية ثابتة يميز بين نوعين من التعابير، تعابير ذات قيمة وعددها قليل نسبيا، تظهر لأول مرة، دون أن يكون لها نظير سابق، فتصبح إذا اقتضى الحال، نماذج لتعابير

١ - ميشال فوكو: حريات المعرفة، تر / سالم يفرات المركز الثقافي العربي ط ٢ سنة ١٩٨٧،

ص ٢٣٩.

أخرى، وفي هذا الإطار تغدو جديدة بأن ينظر إليها على أنها تمثل إبداعات. وأخرى تافهة ومبتذلة، عددها كثير، لا تتمتع بأية أصالة بل تكرر ما قيل قبلها، وأحيانا تعيده بحذافيره^(١) مما يبدو أن ما يرمى إليه فوكو ليس تلك الصفات التي يضيفها على نوعين متعارضين من التعابير، بل أن القصد من وراء ذلك هو توجيه التحليل نحو مخالفة الرؤية التقليدية في عزل البنيات القديمة عن البنيات الحديثة. وقد عبر عن ذلك بجعله الإبداع مرادفا للتحويل والتغيير، وماعدا ذلك فهو مجرد تكرار لتراكمات بائدة. وهكذا نفهم المغايرة والاختلاف على أنها وعي بالتحويلات الجذرية التي بينت «كيف انسلت الحقيقة من الخطأ، واستيقظ الوعي من سباته الطويل، وانتصبت الأشكال الجديدة بالتدريج، لتقدم لنا المشهد الحالي الذي نعيشه»^(٢).

أما مشروعنا الحداثي الذي حاول أن يتلمس مثله الأعلى في الثقافة الغربية أثر موجة الانفتاح على الحداثوية الغربية، فقد توالى البحث لديه عن تقنيات جديدة تتلاءم ومشروع طموحه. ونظرا إلى أن مرحلة ما بعد الحربين قد شهدت تهاوتا شديدا مصدره التطلع إلى الجديد، والرغبة في التمايز، فقد قامت محاولات جمة بجعل السائد يتنافى تنافيا مطلقا مع البائد بدافع التحديث والتجديد وما رافق ذلك من نزاعات بين تيار المحافظين (المقلدين) وتيار المجددين (المحدثين).

وقد لانذهب بعيدا حين نستدرج بعض ملامح ذلك الصراع إلى مستوى الحركة الشعرية العربية باعتبارها حقلا معرفيا وجماليا مما قد يكون عرضة لمختلف التحويلات والتغيرات التي شهدتها الحقب والعصور المتتالية، غير أننا لن نغوص في الذاكرة الجماعية لموروثنا الشعري لنكشف عن أولى ملامح التمرد الفني أو ما اعتبره القدامى خروجاً عن عصمة الأوائل.

١ - حفريات المعرفة، ص ١٢٠.

٢ - نفسه، ص ١٢٠.

قد يقودنا هذا التحليل إلى الحديث عن حركة التجديد، في النقد الأدبي، التي ابتعثت فاعلية الخلق الشعري الذي ظهرت مزاياه التحولية على استحياء في أواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد في عصر النهضة العربية التي كان ينتظر منها أن تنهض على أساس التفرد، والمفايرة وليس على إعادة مواقف سابقة أو طرح أسئلة قديمة، وهو الأمر الذي يدعونا إلى طرح الاشكالية التالية: لماذا لم يكن البارودي مجددا، وظل يسائر الحركة الاتباعية في انصياعها للرؤية السلفية على الرغم من أن بواذر النهضة في حينها كانت مدعاة للابداعية لا للاتباعية؟.

ولعل اعتبار البارودي(*) ~ لدى بعض السلفيين - فاتحة لعصر النهضة على صعيد الحركة الشعرية راجع إلى طبيعة الفترة التي استعادت أنفاسها بعد مرحلة الانحطاط، بدافع القومية من جهة، ومن جهة أخرى احتفاء بإحياء التراث بدافع الرغبة في مضاهاة الغرب بامتلاكنا ذاكرة خاصة بنا. ومن ثمة بدأ السعي إلى استعادة النماذج التقليدية لغة وأسلوباً، وتمثل هذه الذاكرة بكل مقوماتها وقيمها، ومواقفها.

لم ينظر شاعر النهضة إذن إلى شعره بعين الرؤيا والابداع، وإنما نظر إلى ماضيه بروح القداسة، فلم يصف شيئا، وإنما ظل مشدودا إلى جذوره متخذاً إياه بمثابة مثله الأعلى وهذا لا يعني أن الشعر الجديد يبدأ من لا شيء، وأن على الشاعر ليكون مجددا، أن يستأصل جذوره الماضية، وينفصل عن التراث، وإنما يعني أنه إذا كان لابد من العودة إلى القديم فلايجوز أن تكون عودة إلى أشكاله بل إلى الدفقة الحية التي ولدت هذه

(*) - يرى أدونيس أن الأسس التي استند إليها النقاد في موقفهم من شعر البارودي ومن تبعه أمثال شوقي وحافظ، لم تكن وليدة رؤيا ابداعية متسجمة مع روح عصره وإنما اقتصرُوا في ذلك على إعادة منطلق الأوائل وأحكامهم. ينظر (صدمة الحداثة) ص ٥٠ / ٥١.

الأشكال. فالارتباط بالشعر القديم لا يكون، تبعاً لذلك، ارتباطاً بطرائق تعبيره، بل بالروح العميق الذي حركه^(١) والتجديد - جوهرياً - هو أن تحول بينك وبين أشكال القديم، ومضامينه الراكدة وليس مع العناصر النابضة فيه على الدوام وذلك بأن تضيف أشياء جديدة.

وإذا كانت مسألة "القديم والجديد" في الشعر العربي قد أخذت نصيبها من النقد والتمحيص، والتساؤل فإن "التقليد والتجديد" قد ظهرا مع بداية التفتح النهضوي بشكل مغاير حيث لم يقتصر الأمر على تقليد القدماء، وإنما فتحت فوهة أخرى على الغرب فصار الأخذ بحضارته الحديثة تقليداً سائداً، وصفة مميزة وبخاصة في فنون الآداب والشعر. وفي هذا الشأن نقف عند رأي طه حسين لنتعرف من خلاله على أهم بؤابر الحداثة الشعرية حين ألحَّ « على أن طرائق صنع الشعر القديم ولغته لاتستطيع أن تنفذ إلى المشاعر والحياة المتبدلة لتلتقط جواهرها فتجعل الشعر العربي الحديث متميزاً في روحه وجوهره ولغته عن الشعر القديم. وفي السياق ذاته وبالقوة نفسها، أيد حق الشعراء الشباب في أن يجددوا الشعر ويتحرروا من قيود الوزن والقافية إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم فلا يطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين غير متكلفين، وصادرين عن أنفسهم غير مقلدين لهذا الشعر الأجنبي»^(٢) ومعنى ذلك أن معايير الشعر العربي القديم لم يعد في مقدورها استيعاب تفجر المكبوت الحضاري الجديد، وما يرافقه من ظهور لمفاهيم ومشاعر وأفكار مختلفة وهو الأمر الذي قد يدعو إلى ابتكار صيغ لم تكن سائدة من قبل، ذلك بأن الابداع يتنافى مع الاتباع والخضوع، وهو سعي دائم نحو الاستكشاف الحر.

١ - م. س. ص ٥٦

٢ - من أدبنا المعاصر (المجموعة الكاملة) المجلد ١٢ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤ ص ٢٤٦ وما بعدها.

ان انكسار النموذج التقليدي بتراكماته كان بداية وعي جديد ظهرت في مناخه بعض ملامح التغيير لعل أغلبها ناتج عن رفض المحاكاة، وإعادة خبرات الماضي، وضرورة التكيف مع روح العصر، والرغبة في تأسيس جديد لبنية روح الشعر العربي.

ولا يمكننا، ضمن هذا المنظور، مقارنة المسألة الشعرية في قوالبها الزمنية باسقاط تلك الجهود التي قامت بها جماعة الديوان التي نعت حركة التقليد في شاعريتهم؛ لأن الذي ناسب القديم لايناسب الجديد. وهكذا كانت سهام جماعة الديوان حادة، ومصوبة في اتجاه كل مقلد بمن فيهم أحمد شوقي. وهكذا كان الشأن مع جماعة المهجر التي عملت هي أيضا على بث روح التجديد بما يدعو إلى انتشار الأدب من الخمول (١) وإذا كان "التجديد علامة وجود الشاعر في اللحظة الراهنة أو المعاصرة (٢) فإن خليل مطران ربما كان صورة لهذا التجديد، حيث حاول إلباس الواقع ثوبا جديدا عوض أن يسعى إلى تحديثه من الداخل فانعكس ذلك الوعي على قيمة الفنية التي ظلت مرتبطة في جوهرها بالأصالة، ومتصلة في ظاهرها بمتغيرات العصر وتحولاته، وعلى الرغم من ذلك فهو يعتبر الفن إبداعا والقصيدة عنده لاتقول الواقع المرئي وإنما "تحاول أن تقول ما لم يره الآخرون من قبل" أي أن حالة الإبداع هذه "تكون وتبتكر" (٣) وقد اعتبر أدونيس قصيدة "المساء علامة كبرى في مجال التجديد المبكر.

١ - وقد تجد هذه الملامح أيضا لدى جماعة الرومانسيين، وجماعة الرمزيين.

٢ - صدمة الحداثة، ص ١٠٢،

٣ - ينظر: صدمة الحداثة، ص ١٠٢.

أما الحداثة فهي حالة من انكشاف الإنسان في الوجود، حينما أوجدها جبران خليل جبران في أفضية الرؤيا والجنون، فهو ذلك الراي الذي يرى "بالعين الثالثة" التي هي عين القلب أو كما يسميها "عين العين" من حيث كون "الرؤيا الجبرانية قائمة على فكرة اللامنتهي"^(١) الذاهبة صوب التطلع، والبحث والكشف وفي هذه الحال يكون مطران مجددا في حدود محاكاة العصر، ويكون جبران حداثيا في تجارزه للآنية نحو معانقة المجهول.

ولاشك في أن حركة الشعر الحر التي ظهرت بالعراق شكلت ارهاصا حقيقيا للبنات الحداثة الشعرية، وذلك استجابة لتطور البنات، والعلائق، وتغير الأنساق. وقد كانت هذه الحركة بمثابة ثورة على أنظمة التواليد الموروثة، وانعتاقا من العروض الخليلي الذي لم يعد يتناسب وطموح القصيدة الحديثة في ابتداعها لنظامها الإيقاعي الخاص، والاعتراف لها بحقها في التجريب. وقد بادرت نازك الملائكة - في جمعها بين الممارسة التطبيقية والتنظيرية - إلى إثارة الجدل حول بعض القضايا التجديدية من خلال قولها: «والذي أعتقد أن الشعر العربي يقف اليوم على حافة تطور جارف عاصف لن يبق من الأساليب القديمة شيئا، فالأوزان والقوافي والأساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعا، والألفاظ ستتسع حتى تشمل أفاقا جديدة واسعة من قوة التعبير، والتجارب الشعرية "الموضوعات" ستتجه اتجاهها سريعا إلى داخل النفس، بعد أن بقيت تحوم حولها من بعيد»^(٢) غير أن الشاعرة ظلت متأرجحة بين انشدادها إلى أواصر الماضي، وانجذابها إلى قيمة الفنية والدفاع عنها، وبين الطموح إلى تفتح الذهنية العربية على معطيات العصر الإبداعية ومسايرتها. فافتقدت بذلك قدرتها على الثبات مبدئيا حول مسألة التغيير الجذري، والذي يجب أن يعم الشعر العربي مما أوقعها في اشكال. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها في مجال التجديد ظل النقد العربي الحديث يأخذ عليها موقفها

١ - نفسه، ص ٢١٥.

٢ - شغلایا ورماد: المجموعة الكاملة، دار العودة بيروت / ١٩٧١ ص ٢٧-٢٨.

المتأرجح من الشعر الحر حين تراجعت الرؤيا لديها فقررت: «وإني لعلى يقين من أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد وسيرجع الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد أن خاضوا في الخروج عليها والاستهانة بها وليس معنى هذا أن الشعر الحر سيموت وإنما سيبقى قائما يستعمله الشاعر لبعض أغراضه ومقاصده دون أن يتعصب له ويترك الأوزان العربية الجميلة» (١) ولعلنا نخلص من رأي نازك بأن التقفية التي هي روح الشعر العربي القديم، كانت لاتزال توجه الذائقة الابداعية آنذاك، وهذا يعني أن حركة الشعر الحر لم تخلص الشعر الجديد من غلّ الرواسب القديمة (كليا وجوهريا)، ولم تكسر العمودية، ولم تتجاوز المعيارية إلا في بعض مظاهرها الجزئية.

وعلى الرغم من أن آراء أدونيس المبتوثة في مختلف كتاباته، تتطلع باستمرار إلى ما ينبغي أن يكون عليه الشعر العربي، وتصدر عن تصور جمالي يفتح بالتنيق والكشف، ويتنامى بالرؤيا، إلا أنه لا يتردد في أحد مواقف من مواجهة واقع الشعر الجديد الذي نزح إلى الفوضى، وانسلخ من الأصالة، وظل يبدو خاليا من أية حيوية، منحدرًا إلى الابتذال والغرور. وموقفه هذا^١ كن قوله بأن «المشكلة الآن في الشعر العربي الجديد لم تعد في النزاع بينه وبين القديم، وإنما أصبحت في معرفة الجديد حقا، وتمييزه، فالواقع أن في النتاج الشعري الجديد اختلاطا وفوضى وبين الشعراء "الجدد" من يجهل حتى أبسط ما يتطلبه الشعر من إدراك لأسرار اللغة والسيطرة عليها، ومن لا يعرف من الشعر غير ترتيب التفاعيل في سياق ما.» (٢) أما ذلك التطور الجارف العاصف الذي تحدثت عنه نازك الملائكة، فعلى الرغم من أنه لم يستوف ملامحه لما انطوى عليه من نقائص إلا أنه كان تمهيدا لتأسيس مسرح القضاء الشعري الحداثي فيما بعد.

١ - المجموعة الكاملة: مقدمة (شجرة القمر) المجلد الثاني من ٤١٨.

٢ - زمن الشعر، ص ٩٥.

أما الذين تجاوزوا عتبة القديم، وتخطوها بجرأة، فأولئك هم الذين سيفتحون نوافذ مشرعة على ثورة الحداثة وعنقها من حيث كونها رؤية حديثة، وموقفا مغايرا من الحياة والفكر.

الحداثة / الرؤيا

ان سؤال الفهم الجمالي الحديث بخصوص الخطاب الشعري سؤال متجدد، كما أن الحداثة مبادرة فعل لاستنتاج، وليست صفة ثابتة، بل هي حركة ابداع لا اتباع، وهذا ما يمنحها حضورا توالديا يتكون باستمرار، من خلال ديمومة الفعل. وتبعا لذلك فإن الفهم الحداثي على عكس التصور الكلاسيكي لا يخضع لقيم سائدة ومعايير جاهزة، بقدر ما هو تساؤل مستمر يتعارض ومنطق الثبوت. ومن ثمة تسعى الحداثة الشعرية إلى تكريس طروحاتها الجمالية بحثا عن قضائها الرؤيوي المتميز.

وكما انبعثت الحداثة الغربية من بقايا الحلم "البودلييري"، كذلك تأسست الحداثة الشعرية العربية على أنقاض الرومانسية، وغير بعيد عن مؤثرات الحداثوية الغربية بمظاهرها السيئة والضيقة. وقد حقق جيل الرواد بعثا حقيقيا في القصيدة العربية التي انبثقت في أفقها رؤياوية الذات والعالم، مشكلة بذلك قضاء جديدا لمعنى الوجود، ومعنى الانسان. ومن ثمة تشكلت نواة الرفض الأولي، لتتبلور من بعد ذلك الرؤية الجمالية للقصيدة العربية «ولعل السياب أول من استحق أن يسمى تجريبيا في الشعر العربي المعاصر، فقصيدته لم تتجمد عند نموذج محدد، ولم تتخل عن شكل ثابت لتؤسس لها شكلا ثابتا، بل كانت تدع الشكل ليتكون كما يمليه المضمون، ليلتحما معا، ويتكاملا، حتى يكونا معا كلا واحدا لافكاك لأحدهما عن الآخر»^(١) وهذا معناه أن الوعي الجمالي / الحداثي هو وعي للنسيج اللغوي، والايقاعي الذي يبتعد بالخطاب الشعري باتجاه الرؤيا التي لا تفصل بين ظاهر النص الخارجي وبنيات الباطنية.

١ - سامي مهدي: أفق الحداثة وحداثة النمط، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٨٨ من ١٦ .

وإذا كانت الحداثة في صميم جوهرها هي رؤيا تساؤل، وتحول، وانبعاث، فقد بدت تجلياتها واضحة في الانتقال من نمط الكلام إلى إحياء الكلمات، وذلك عبر تحولات اللغة ومتغيراتها بوصفها مجالا خصبا، لإمداد الخطاب الشعري بالزخم الجمالي والرؤيوي، على اعتبار أن الرؤيا حلم، والحلم عالم تخيلي، ومن هنا كان تعارض الرؤيا مع غريزة التقليد. وحيث ترتبط الرؤيا بعالم الرموز، فإن من طبيعة التقليد محاكاة الواقع، الأمر الذي يدفعنا إلى «التمييز ما بين "الرؤيا" بالمعنى الميتافيزيقي الحدسي لها، الذي ينقل معرفة داخلية مباشرة، و"الرؤية" بمعنى الرؤية الفكرية والسياسية والايديولوجية للواقع. وفي حين يركز المفهوم الأول التجربة الشعرية في الأعماق الداخلية للذات ويقربها من تجربة الانخراط والاشراق الداخلي، فإن المفهوم الثاني يقربها من عالم الخارج» (١) في تماسه مع المكرر والنموذجي، والمبتذل، دون محاولة النفاذ إلى حفريات العميقة واختراقها بقوة من دافع التشوف. ذلك بأن الشاعر لا يقدم آراء، ولكنه يقدم رؤيا و "لايعبر عن الحياة ولكنه يخلق حياة أخرى معادلة للحياة وأكثر منها صدقا وجمالا ولكنه لا بد أن يخلق". (٢) وإعادة التشكيل والخلق نابغة من مواكبة الأنظمة التعبيرية الناشئة والمتشكلة على الدوام، بعكس الأنظمة الموروثة التي اتخذت النمطية وطابع النمذجة صفة ملازمة لها. ومن ثمة فقد تجاوزت الرؤيا الحديثة كل الأطر لتخلق أفقا جديدة من التفكير ليس فقط على مستوى الموضوعات، وإنما أيضا من حيث النظرة الشمولية إلى العالم التي تعمل على إعادة خلقه، وكذلك من حيث أساليب الكشف والاستقراء والتأمل التي قفزت بالقصيدة العربية من واقع "الرؤية" السطحية والمباشرة التي تنقل الحداثة وتصفها وتعكسها، إلى فضاء "الرؤيا" التي تخترق الحجب والاستتار، وتسائل الواقع ولاتواكبه، لارتباطها بما يحدث.

١ - محمد جمال باروت: مقارنة للبنيات الجمالية الشعرية في الخطاب الشعري الحديث في سوريا، مجلة الموقف الأدبي، عددان (١٩٢-١٩٤) / ١٩٧٨، ص ٩١.

٢ - صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، دار العودة ١٩٧٧، ص ٦٦.

ان طموح الشعر الحديث هو أن يكشف عن مجموع العلائق والمشاعر والصفات والتداعيات التي تستجيب لمضامينها المتناقضة، وهو في أثناء ذلك يسعى إلى تغيير أدواته الكشفية التي لم يسبق لها نظير، والشعر الجديد بهذا المدلول «رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة. هي، إذن، تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها... إن الشعر الجديد نوع من المعرفة التي لها قوانينها الخاصة في معزل عن قوانين العلم. إنه إحساس شامل بحضورنا، وهو دعوة لوضع معنى الظواهر من جديد، موضع البحث والتساؤل»^(١). وهكذا تكسب القصيدة / الرؤيا معنى مغايرا بابتعادها عن حيز الراهن المكور، إلى فضاء الممكن المتجدد، ومن قيد اليقين الثابت، إلى سؤال الكشف والاحتمال.

غير أن الابتهاج بهذه الرؤيا لم يضمّر في حقيقته كثيرا من الأصالة، فعوض أن يؤسس الشاعر العربي رؤياويته الذاتية الخاصة بكيانه وكيان مجتمعه، ظل يعكس همومه في مشكلات غيره. وقد تمثل الرؤية الوجودية بكل مظاهرها الاغترابية والاستلابية، فتحوّلت رؤياه إلى مجرد أثر من آثار الحداثوية الغربية، وصورة عن استلاب الفنان في مجتمع بورجوازي، «وفي غياب الوعي الاجتماعي الملتمز، بدأ الشاعر الستيني يصوغ تجربته الحداثية، ويتعامل تبعا لذلك بانفتاح يكاد يكون مطلقا مع مفردات الحداثة في الأدب العالمي ويستلهم الكثير من جوانب النزعة الحداثية (المودرنيزم) في الأدب الغربي، ويتأثر ببعض أوجه التجارب الطليعية والتجريبية في مختلف الآداب والفنون»^(٢). غير أن المآخذ السلبي الذي سجله النقد الحداثي على ممثلي أولى البدايات. الرؤيوية للقصيدة الحداثية هو اصطناع المشكلات والهموم الميتافيزيقية والصوفية التي لاتعبر عن تجربة صادقة

١ - زمن الشعر. ج١ ٩ وما بعدها.

٢ - فاضل تامر: مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والابداع، ص ١٩١.

ونابعة عن وجدان أصيل، وتبني الرفض لأجل الرفض^(١) دون وعي نقدي، أو موقف رؤيوي تجاه الأساليب والموضوعات التي زاحمت الفكر العربي فتبناها بدل أن يقف ازاءها موقف الشك والتساؤل والريبة. ومع ذلك ظلت "الحداثانية" مدينة للشاعر العربي المعاصر بما حققه من مظاهر ايجابية تمثلت أساسا في القطيعة الجمالية بمعظم خصائصها الفنية مع كثير من المعايير النمطية، وتنامي الرؤيا الكونية لديه.

لقد كان هذا التحول صوب الحداثة محاولة جريئة، وواعية. ولاشك في أن جيل سنوات الستين هو الذي قاد الشعر باتجاه الرؤيا «وهنا تكمن نوعيته وقيمته التي ستتعمق من رؤيا الهلع الذاتي والفرداني الميتافيزيقي إلى رؤيا الفعل الثوري الكامن أو المستمر في الواقع»^(٢) من حيث هو مشروع لتحول جذري يواكب طبيعته الاختراقية التي لا تترك مجالا للتراجع أو المقايضة.

غير أن الواقع المقصود ليس ذلك الواقع التفصيلي، بل الواقع الممكن باتجاه صيرورة مستقبلية قادرة على مساءلة احتمالاته، والتنبيؤ بغيبياته، واحتواء متناقضاته. ومن ثمة تبدو هذه الرؤيا بعيدة عن التكلف، وبإمكانها احتضان مأزق الذات والوجود، والواقع الذي لم يعد يتراءى للشاعر العربي المعاصر من خلال ما نضيقه على الأشياء من معان، بل وكذلك من حيث انعكاس تلك الدلالات والظلال والصور على وعينا وتجربتنا الذاتية.

١ - ينظر فاضل تامر: المرجع السابق، ص ١٩٢.

٢ - محمد جمال باروت: الشعر يكتب اسمه، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨١، ص ٦٢.

تلك هي الرؤيا التي ينصهر فيها الواقع في الحلم، وتمتزج اللغة بالفكر، ويتحد الشكل بالمضمون، ولا يعود الشاعر إلا راثيا، أي يكون "ذاته وغيره في آن واحد" ذلك «بأن مهمة الشاعر الحقيقي ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلا، بل رواية ما يمكن أن يقع. ولهذا كان الشعر أوفر حظا من الفلسفة وأسمى مقاما من التاريخ لأن الشعر بالأحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي» (١) فالقصيدة / الرؤيا بهذا المعنى هي تجسيد جمالي / مثالي لانتقال الشاعر من التعبير عن العالم إلى كيفية رؤيته، وإلى قوله. وهذا الانتقال هو بمثابة التحول من رؤية الظاهر إلى رؤية الباطن. وتلك هي كيمياء الشعر وما يصاحبها من مفردات ذات صلة بجوهر الرؤيا مثل الكشف، والتحويلية، والتجاوز، والاختراق، والتنبيؤ، انطلاقا من كون القصيدة / الرؤيا في جوهرها رؤية كونية أو شمولية، مكثفة للوجود المعيش الذي تعبر عنه، بوصفها انعكاسا للنسيج الحضاري المعقد والمتداخل (٢) فضلا عن أن الانسان متطلع إلى الآتي، شغوف بالممكن، ومتعلق به فـ "الممكنات كائنة في المستقبل، وهاجس المستقبل صيرورة واستباق، هاجس تحول" (٣) يذهب بتطلعات المرء نحو اتجاهات بعيدة، وأفاق جديدة، ومبتكرة وتولد وتبعث، وتتجدد بتجدد رغباته، وأحلامه، ورؤاه.

ومما لاشك فيه أن الابداع ليس مجرد حدس أو تفكير، إنه فعل جمالي خلّاق يحتضن في صميمه تكويننا يتشكل على الدوام، وتبعاً لذلك «يشبه ابن عربي الرؤيا بالرحم؛ فكما أن الجنين يتكون في الرحم، كذلك يتكون المعنى في الرؤيا. فالرؤيا إذن نوع من الاتحاد بالغيب، يخلق صورة جديدة للعالم، أو يخلق العالم من جديد كما يتجدد العالم بالولادة» (٤) وثمة مكنم لطموح الذات في تخطين واقعها نحو شرفات المستقبل.

١ - أرسطو: فن الشعر، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة - بيروت ط ٢ / ١٩٧٣، ص ٢٦.

٢ - ينظر: د / عبد الله العشّي، نظرية الشعر في كتابات الشعراء المعاصرين، بحث دكتوراه مخطوط. جامعة وهران ص ١٨٩.

٣ - أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة - بيروت ط ٣ / ١٩٧٩، ص ١٠٢.

٤ - صدمة الحداثة، ص ١٦٦.

وحتى لا تظل هذه الرؤى استيهاما غامضا، أو أشتاتا من حلم، يلقي البياتي بفانوس الرؤيا إلى قاع الحاضر حين يقول: «أن التوجه إلى المستقبل لا يمكن أن يتم إذا لم يستطع الشاعر أن يعايش ويستوعب الحاضر لأن المستقبل لا يولد من الفراغ أو اللاشيء» (١). على الشاعر إذن أن يستلهم مضممرات الكون بمقتضى الفطرة، وأن يطالع النفس لمحة من خفاياه، وذلك بفض النظر المباشرة، وتبني الرؤية التأملية. وتبعاً لذلك فإن «هوى حلم الانسان المعاصر تقمص محاولة الهرب من المشهد الخارجي البهيج، والدخول في عالم ملكوت الفيض الداخلي إلى حيث عالم الممكن في المحدودية رغباته، والتطلع إلى ما وراء حدوده المعرفية» (٢).

لقد كان ذلك التحول باكورة مشروع لحداثة رؤياوية حاولت أن ترسم أنفسيته، وأن تبلور أسئلتها بمعزل عما كان سائداً، وشائعاً، ومألوفاً، وعلى الرغم من كونها لم تنشأ في غياب الأثر الاجنبي، وتبني المثال الأسمى (*) إلا أنها حاولت أن تكون كنه ذاتها.

أما على صعيد الممارسة فقد تجلت ملامح تلك البواكير في "مجلة شعر" فلا أحد ينكر جهود مؤسسيها في وصل الجيل الجديد بمفاهيم حديثة أفرزتها الثقافة، وتداخل الحضارات، وجدل الخطابات. وكان من شأن هذا الجيل أن وجد نفسه مغموراً بها، ومنقذاً فيها إلى القرار. ونحن لانود أن نخرج على مسار "مجلة شعر" والمناخ الايديولوجي الذي تأسست فيه، غير أن ما يهمنا هو ما الذي حققته للحركة الشعرية المعاصرة؟ وما الجديد الذي أضافته؟.

١ - عبد الوهاب البياتي: المجلد الثاني "تجربتي الشعرية" دار العودة ط ١٩٧٩/٢، ص ٣٤.

٢ - عبد القادر فيدوج: دلائلية النص الأدبي دراسة سيميائية للشعر الجزائري ديوان المطبوعات الجامعية ط ١٩٩٣/١، ص ٦٥.

(*) - في بعض النماذج التي تبنتها. مثل: تبني صلاح عبد المعبور والسياب للمكر اليوت / وتأثر نازك بادر، جاد الان بو.

تكاد تتفق جل الدراسات الموجهة لانتقاد "مجلة شعر" على رميها بالفشل واتهامها بالنقل والانتحال، ووصفها بكونها ورشة لاعادة انتاج صيغ ومفاهيم غربية سريالية. وكانت قصيدة النثر محور جدل حاد بحيث طرحت على الساحة الابداعية بوصفها البديل الذي يقوم على الايقاع الداخلي بدل الوزن، والمعجم الايحائي عوض الصورة العيانية، واحتضان عالم الداخل بدافع من اللاوعي في اقتناص التداعيات مسيطرة للكتابة الآلية التي تعمل على تحرير طاقة الخلق من رقابة الوعي، وتطهيرها من شوائبه.

وإذا كان محمد جمال باروت قد توسم في قصيدة النثر روح الحرية المطلقة في ابتكار ايقاعات جديدة لاحدود لها، ثرية ومتجددة، وغير منغلقة أو محدودة حين ألح على أن الحداثة (رؤيا) قبل أن تكون شكلا فنيا، إلا أن كل حداثة تفترض شكلا فنيا جديدا. وأفاق القصيدة النثرية كشكل طليعي، وفسحة حرية كاملة، هي الأكثر طليعية في ركام الانتاج الشعري العربي الحديث(١). وإذا كان الأمر كذلك لدى جمال باروت فإن سامي مهدي -على العكس من ذلك - يرى بأن قصيدة النثر قد جرت جيلا بكامله إلى وهم الايقاع وهم التنوع «لأنها فوضوية، لأنها بلا شكل، بلا إطار بلا وحدة عضوية، بلا ايقاع حقيقي، بلا مضمون صلد، لأنها كل ذلك معا أصبحت "نمطا" أرادت أن تتخلص من "النمطية" ف وقعت فيها»(٢). فانحدار قصيدة النثر بوصفها شكلا فنيا مطلق الحرية لم ينجم فقط عن إعادة كتابة "سوزان برنار" في كتابها "قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا(*)" والذي أصبح فيما بعد "إنجيل" المؤمنين به كما يقول سامي مهدي. ولكن ذلك الانحدار كان مرده أيضا إلى قطع كل الصلات مع المحاولات التي سبقت رواد مجلة شعر، ويعني بذلك أمين الريحاني وخلييل جبران،

١ - محمد جمال باروت: الشعر يكتب اسمه، ص ٥٥.

٢ - أفق الحداثة وحداثة النمط، ص ٤١٤.

(*) - المصادر في ١٩٥٩.

وحيث لا يزال الجدل قائماً حول بعض المسميات وتداخلها مثل "قصيدة النثر" و"قصيدة الوزن" و"قصيدة التفعيلة" و"قصيدة الجملة"، و"الشعر الحر" و"الشعر المنثور" وغيرها من المسميات، يحاول أدونيس أن يحسم بعض جوانب هذا التداخل حين يصف ذلك الجدل بالصبياني والعقيم، ولا يرى فرقاً بين قصيدة النثر وقصيدة الوزن إلا بما يتفجران به من معاني الكشف والرؤيا، وما يطفحان به من دلالات التجاوز، والاختلاف، وذلك من خلال قوله: «إن قصيدة النثر مثل قصيدة الوزن شكل تعبيرى، الأساسى هو فيما يفصح عنه هذا الشكل، وليس فيه بحد ذاته... ما يجب التركيز عليه إنما هو الإبداعية» (١) أي الخصوصية الفنية الخلاقة التي تميز شاعراً عن شاعر آخر، فالشاعر يتخير أشكاله، وله الحق في تغييرها بما ينسجم مع رؤاه وتصورات، المهم هو المعنى الجوهرى الذى يمتاحه المتلقى من هذه الرؤى، «وهكذا لا تكون الحداثة الشعرية جمالية وحسب... بل تكون تغييراً شاملاً يفتح طرقاً جديدة لتغيير الفكر والحياة والإنسان» (٢) حتى نتمكن من التعامل مع معطيات هذه الحداثة في مجالها الأرحب بقصد إثارة الأسئلة، وليس بقصد البحث عن أي الأسئلة التي بإمكانها أن تستوعب ثقل الاشكالية، لأن باستيعاب السؤال لها تكون قد انتهت هذه الحداثة.

١ - حوار مع أدونيس، إجراء: محمود الراشد مجلة أوراق الصادرة بلندن، ع ١٤/ ١٩٨٤، ص ١١.

٢ - نفسه، ص ١٤.

الفصل الثاني

تجليات الحداثة في الوعي العربي

- ١ - عقدة التراث وصدمة الحداثة
- ٢ - موقعة الحداثة
- ٣ - حركية الحداثة الشعرية

١ - عقدة التراث وصدمة الحداثة

١- الأنا الأعلى للتراث

يشكل التراث بكلياته المادية والمعنوية حضورا دلاليا وكيנוنيا في الوعي النقدي والفلسفي الحديث. ولعل مايميز حضوره هذا هو نوعية الأسئلة التي يثيرها بوصفه معطى حضاريا كليا، غير مجزئ، والكلي هو الجوهري المتحرك، الخاضع دوما لجذلية التحول والاستمرارية والتطور. وبذلك يظل حضورا حيا، ونايضا فينا، ليس يدافع الحاجة أو الضرورة، أو بوازع ديني أو ايديولوجي، ولكن بوصفه «ذلك الكيان المنسجم مع نفسه، والذي يمتلك قدرة على تحريك الواقع المعاش أدبيا وشعريا» (١) وحتى لانقع في الفهم التقليدي الذي لايبتعد عن «وجدان» القديم على اعتبار أنه منبع للالهام؛ إذ لايمكن استحضاره، ابداعيا، بقدر ما يمكن استرجاعه، تذكريا، أو ما يمكن أن نطلق عليه: اقترانا عبر مصفاة مراحل التداعي. نقول بأن القديم يظل في حيز المتراكم بينما يبقى التراث قوة اثارة وتجدد.

وتبعاً لذلك يجب أن نفرق بين أن يكون الماضي ذلك المعطى الجمالي لديمومة إبداعية متحركة، ومستمرة بدافع من قوة التحول «ماضي الحداثيين» وبين الماضي من حيث هو سكوني لا يوحى إلا بثبوتية معاييره المغلفة «ماضي السلفيين» غير أن القصد من ذلك ليس استبعاد معطيات التراث. فمثل هذا الزعم يناهني «الاعتقاد بأنه على قدر مايجب توجيه الحاضر بالماضي يجب كذلك تغيير الماضي بالحاضر» (٢) ومثل هذا التكافؤ لا يسعى إلى تغليب الحداثي على التراثي، أو ربط اللاحق بالسابق واخضاعه له، وإنما هي رغبة في اعتبار الجديد مكملاً للقديم بشرط أن يكون جديدا بالفعل، أو على الأقل يحمل مؤشرات الجدة والجدية. ولعلّ الأمر الذي دفع

١ - حنا عبود: القصيدة والجسد، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ٨٨ من ١٩٩٣.

٢ - ت. س. البيوت وآخرون: الشعر بين نقاد ثلاث، تر: منج خوري، دار الثقافة، بيروت ص

بادونيس إلى ضرورة التمييز «في التراث بين مستويين: الغور والسطح. السطح هنا يمثل الأفكار والمواقف والأشكال. أما الغور فيمثل التفجير، التطلع، التغيير، الثورة، لذلك ليست مسألة الغور أن نتجاوزه بل أن ننصهر فيه. لكن لانكون أحياء مالم نتجاوز السطح. ذلك أن السطح متصل بالواقع والفترة الزمنية أي بتجربة تاريخية معينة. بينما يتصل الغور بالإنسان، كإنسان، الغور مطلق، أما السطح فتاريخي» (١) ومن ثمة يشكل التراث قيمة إنسانية تقترب بالوجدان الحضاري، وتتصل بإمكانات الفرد المتحققة أو التي لم تتحقق بعد. فهو ليس مجرد رصيد مادي نغترف منه معارفنا متى شئنا وكيف شئنا، ولكنه أيضا رصيد روحي ومعنوي يجب أن نتخذ ازاءه مواقف مختلفة، وضمن منظورات مغايرة «فالتراث ليس النتاج كله الذي أنتج في الماضي وإنما هو الطاقة الإبداعية التي تجسدت في منجزات لا تستنفد بل تظل فعالة، متوهجة وجزءا من حركية التاريخ ومن هنا، ليس التراث كتلة موجودة في فضاء اسمه الماضي، وعلينا «العودة» إليه، و«الارتباط» به، وإنما هو حياتنا نفسها، ونمونا نفسه، وقد تمثلناه ليكون حضورنا نفسه، واندفاعنا نفسه نحو المجهول» (٢). وهكذا تنصهر الأنا في النحن على مستويي الواقع والحلم لتصير الذات امتدادا لضميرها الجمعي من دون الإرادة الفاعلة في تداخل تناصي : تناص الوعي الذي يعيد للعصر توازنه وتناص الوجدان الذي يستمد قوته من الحياة الباطنة العامة، غير أن الفرق يكمن في طريقة إدراك هذا الوعي، والاحساس بالزمن.

١ - زمن الشعر، ص ١٦٨ و ١٦٩.

٢ - أدونيس: كلام البدايات دار الآداب، بيروت ط ١/ ١٩٨٩، ص ٤٥.

وإذن فيجب تقديم التراث على أساس أنه رسالة، خطاب مفتوح، ومن ثمة استدعاؤه بما هو متصور ذهني ليقع في حدود "الهنا" أو "الهناك" أو "الما قبل" و"الما بعد" ولا يرصد في لحظة زمنية حيث هو رفض دائم للتموضع والتفكير «أنه تراث وليس ميراثاً، ليس مالا، وبضاعة، ومخطوطات، يتوارثها الجيل عن أبائه ويورثها أبناءه. ذلك هو الميراث، ذلك هو المنقول وأما التراث فهو مالم ينقل بعد، مالم يكن هناك لينتقل إلى هنا... إنه التراث غير الموجود حقا. ولا يوجد إلا كلما تفكرت به، كلما استطعت أن تكتشفه في ذاته»^(١) ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال فض المؤسسات الميراثية ومساءلة الكون التراثي بوصفه الممكن الذي لم يتحقق بعد. والبحث عن المسافات المحوثة في فضاء هذا الممكن، أي البحث عن الوجه الخفي للتراث. فهو ليس كلا سلبيا، وإنما هناك زوايا عميقة مجهولة في حفريات لم تكتشف بعد أو لم تضأ. ولذلك «فالتراث في الوعي العربي المعاصر لا يعني فقط» حاصل الممكنات التي تحققت بل يعني كذلك «حاصل» الممكنات التي لم تتحقق، وكان يمكن أن تتحقق. أنه لا يعني «ما كان» وحسب بل أيضا، ولربما بالدرجة الأولى، ما كان ينبغي أن يكون»^(٢). ومع ذلك فإن اكتشاف الكينوني في تراثنا العربي يحتم ضرورة التحرر من الموروثات المعيقة لحركية تراثنا وفاعليته التي لم نكشف عن جوهريتها الفاعلة باتجاه البناء الدائم، والذي يرفض التوضع أو الخضوع لندخل في صميم جدلية العصر التي تقفز بالفكر الابداعي نحو خوض تجربة اللامقول ضمن ما يتفجر به الواقع من مدى اختراقي / فوضوي وماتمتع به الذات من طاقة استيعابية لفوضى الذات، وفوضى العالم.

١ - مطاع صفدي: استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية / مركز الانماء القومي، بيروت ط ١ / ٨٦، ص ٢٤٥.

٢ - محمد هابد الجابري: «التراث والحداثة» دراسات ومناقشات المركز الثقافي العربي / بيروت الدار البيضاء ط ١، ١٩٩١، ص ٤٧.

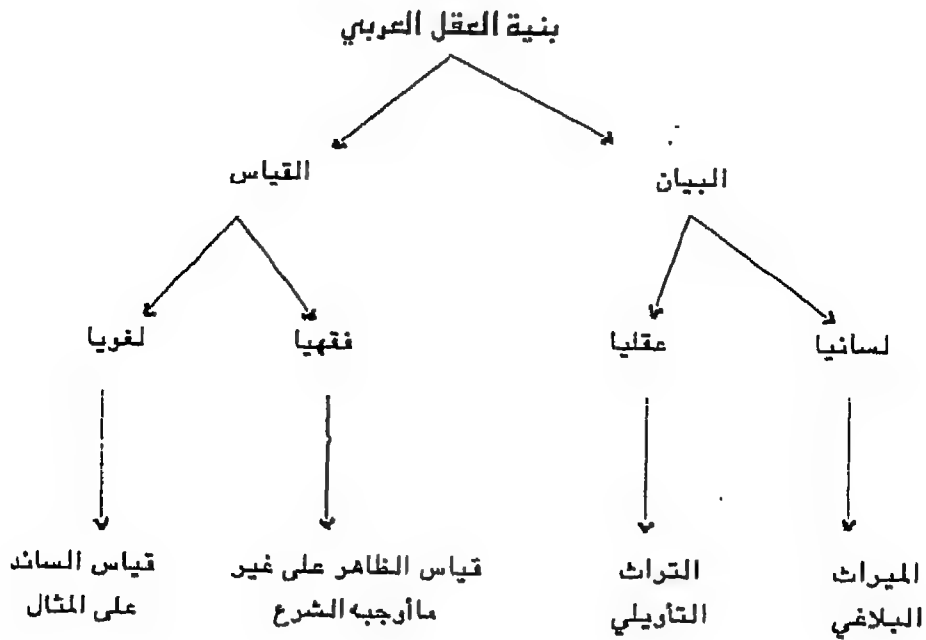
إن ما يمكن ملاحظته هو أن اشكالية التراث في الوعي العربي، قد استعيدت النهج القديم نفسه الذي طرح في ضوءه. أي أن مسألة التراث عادت لتكرر أسئلة الماضي بصيغته الجاهزة، دون أن تعيد صياغة أسئلتها ضمن فضاءاتها الحداثية، المنبثقة أساسا من واقع منتجاتها الفكرية والأدبية، وانطلاقا من قيمتها المستمدة من قناعاتها الإبيستيمولوجية والتأملية. ولعل من أهم عوامل ذلك، وأكثرها تأثيرا هو تداخل المصطلح بالإيديولوجي عوض أن يتفاعل مع حركية الإبداع.

لذلك لم يمنحنا "اشكال التراث" إلا ما احتوى في داخله من تحديات عديدة ومتمايزة، في وقت نحن في أمس الحاجة إلى أن تتيح - هذه الاشكالية - الفرصة لنفسها بتحقيق مسعاها من خلال رجحان الاستشراف على السائد أو الراهن.

وبذلك فقد كانت النهضة بمثابة ردة فعل قومية، صاحبها موجات معادية للاحتلال تخضعت عندها البواكير الأولى لإحياء التراث بدافع من نهوض "الأنا" العربي في مواجهة "الآخر" الغربي. ويبدو أن النهضة اكتفت بإعادة التراث من حيث كونه مجرد ركام، وليس بوصفه مجموع مواقف ورؤى إنسانية وحضارية متكاملة، والأجدى أن نستبعد حضور التراث كـ "دال" ثابت ومستقر وألا نستحضره إلا بوصفه ذلك «المدلول» الدائب الحركة، ولانكتفي بإضاءته ومقاربة مفهوماته بل يجب استيعاب كلياته الجوهرية، وتمثلها في واقعنا الإبداعي والفكري.

والواقع أن استيعابنا للتراث يستدعي تحديد الرؤية والمنهج اللذين يتحدد في ضوءهما علاقتنا بهذا التراث، ووعينا له، وفهمنا إياه. فكيف نستوعب تراثنا في أفق جديد؟ وكيف نوظف هذا الاستيعاب في ممارساتنا الحضارية بشكل مفاير؟.

لقد ظلت البنية التحليلية للعقل العربي تستند إلى منطق البيان (لسانيا وعقليا) وإلى القياس (فقهيا ولغويا) بحيث أصبح «القياس في شكله الميكانيكي» ذاك العنصر اللامتغير (الثابت) في نشاط بنية العقل العربي، العنصر الذي يجمد الزمان ويلغي التطور ويجعل الماضي حاضرا باستمرار في الفكر والوجدان ليمد الحاضر بـ «الحلول» الجاهزة» (١) إلى أن أضحى بمثابة الثابت البنيوي للعقل العربي. ويتشكل على النحو التالي في هذه الرسمة:



١ - الجابري: «نحن والتراث» قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي / المركز الثقافي العربي

بهذه النظرة الأحادية التي تحيل الظاهر إلى الباطن «قياس الغائب على الحاضر» أي قياس المستقبل المجهول على الماضي المعلوم، تكون النظرة القديمة للنص الأدبي وماتبعتها قد غيّبت كثيرا من الخصائص الجوهرية للتراث الذي ظل في وعي السلفيين رهين الحكم المعياري الذي يرجع الأولوية لسلطة النص: سلطة / أصول، سلطة / ماضي مكرور، بحيث ظلت «القراءة السلفية للتراث، قراءة لا تاريخية، وبالتالي فهي لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو: الفهم التراثي للتراث؛ التراث يحتويها، وهي لا تستطيع أن تحتويه لأنها التراث يكرر نفسه» (١)؛ ذلك بأن السلفيين الذين اشتغلوا بالأدب والفقه أدبوا على منطلق الأسلوب الواحد وتوارثوه. إما لعجز في الرؤية وإما لقصور في المنهج، فكانوا يكتفون بالجزئيات الظاهرة ورصد التراكمات الكمية / التاريخية دون التوغل في فهم العلائق الداخلية لجمل الوقائع، وانعكاساتها على الوعي، والفكر والإبداع. أو لأن طرائق المنهج التي سادت العصر - آنذاك - لم تحتو في داخلها الآلية الاستقرائية التأويلية؛ ذلك بأنه لا يمكن أن نظل عسرا بطلب استيفاء شروط العمل السائدة في الراهن. وشئ طبيعي أن يكون الأمر كذلك، وإلا لما كان لروح تطور المناهج طعم المقاربة الدوقية في مراحل تقبلها.

وتكاد الدراسات تتفق على رؤية تنحصر في ترسيخ الأصول والنظر إليها من زاوية البعد الظاهري، الذي أنتج أشكالا متكررة من المعرفة استبعدت الحس التاريخي من حيث كونه ادراكا للمحدود من الزمان واللامحدود منه. ومن ثمة تضاعف وعي الأفراد بأهمية التاريخ الجوهرية في وصل الصلات بين الأجيال. واشتغل التيار السلفي - هذا - في تكريس مفاهيمه السائدة، والصادرة أساسا عن الأنظمة الفقهية وبالتالي «فقد كان الفقهاء منشغلين في تقعيد التراث، أي تحويله إلى قواعد ونمطية شعائرية وأنظمة سلوك جماعية واقعية يومية ثابتة... غير أن صراع أجهزة الانتاج المعرفي (أي البيان «البلاغي» والبرهان والعرفان) كان يميز الانتاج

١ - المرجع السابق، ص ١٣.

الفلسفي بذلك الاستقطاب الحاد بين مصطلحية العقل والنقل، فيبقى بذلك على شعلة جدلية المثاقفة والمشاكلة مشتعلة فيه، تزرع بذور القلق بين الاتباع والإبداع»^(١) وهذا هو اللهب الذي حرك أسلافنا، لهب السؤال الذي ينبغي أن نتواصل معه، على الرغم من أننا أمام نمطين من السلفية: نمط السلفية الموعلة في المحافظة على التراث [الميراث] وأغلاق باب الاجتهاد فيه. ونمط آخر قاشم على التفاعل معه بوصفه خطابا مفتوحا، غير أن الآلية المستعملة تكاد لا تبعده عن الصفة «المنقولة» الأمر الذي أبعدنا - نسبيا - عن مساءلة التراث لإعادة بنائه وفق ما يقتضيه الراهن، حتى يكون مستساغا من أجل تخطي الكينونة.

وقد حاولت المادية التاريخية أن تكون البديل الجوهرى لسؤال جديد يرتقي بهاجس التراث إلى الأفق الخاص بنتائجنا المعرفي، وجهازنا التحليلي أي، إلى مستوى من الوعي، والاستقراء التاريخي يتجاوز البنيات المعرفية السالفة التي انتجت معرفتها بتراثها في ظل معطيات محدودة. غير أن البديل الثوري الذي كان يجب أن ينبعث في ضوءه تراثنا من حيث علاقته بمنتجاته، ويعكس - ضمن قوائين الحتميات الطبيعية لتغير المجتمعات - صيرورة الفكر التحرري ظل مجرد امكان، على اعتبار أنه أحدث القطيعة مع الممارسات المتعصبة والتي ظلت تختزل صورة التراث في الجانب الغيبي، والمثالي والقدرى، عوض أن يكون نافذة للتفاعل المعرفي.

لقد تصور حسين مروة المادية الجدلية مثالا أعلى لقراءة التراث القومي والفكري، وتمثله بوعي حضاري، واستلهامه بروح العصر ومن ثمة جوهر اكتشاف علاقته بالفكر الحديث. وفي اعتقاده «أن المنهج المادي التاريخي وحده القادر على كشف تلك العلاقة ورؤية التراث في حركيته التاريخية، واستيعاب قيمه النسبية، وتحديد ما لا يزال يحتفظ منها

١ - مطاع المصطفي، استراتيجية التسمية، ص ٢٥٧

بضرورة بقاءه وحضوره في عصرنا كشاهد على أصالة العلاقة الموضوعية بين العناصر التقدمية من تراثنا الثقافي وبين العناصر التقدمية من ثقافتنا القومية في الحاضر» (١) وهي الرؤية التي تنظر في علائق بنيات الفكر العربي الاجتماعية والتاريخية وتحاول تمثل واقع التراث الثوري وعناصره التحررية، ورفض الموقف الايديولوجي الذي يعمل على تحويله عن واقعيته التاريخية. بكل تفاعلاتها ليدفعه إلى الاستلاب ويجرده من محتواه الحضاري والانساني.

كما يطمح المنهج الجدلي إلى رفض علاقة التماثل (تماثل الماضي / الحاضر) لأنها لاتنتج معرفة جديدة ولكنها تقضي إما بإعادة انتاج المفاهيم السابقة وإما باسقاط المعرفة الحاضرة على المعرفة السلفية. بينما تقوم العلاقة هنا على التطور التاريخي الذي يستمد قيمته من مبدأ حتمية التحول.

غير أن ابراز المحتوى الكينوني لتراثنا، ووصله بالمحتوى الدلالي لثقافتنا المعاصرة، لم تستوعبه الرؤية التاريخية الجدلية التي سرعان ما تحولت إلى «سلفية ماركسية» تتبنى هذا النهج على أنه مثال «أعلى للتطبيق وليس محاولة» فعالية لفعل القراءة. «لأن الفكر اليساري العربي المعاصر لايتبنى في - تقديرنا - المنهج الجدلي كمنهج لـ (التطبيق) بل يتبناه كـ (منهج مطبق)» (٢). ولاشك في أن ذلك يعود إلى قصور في المنهج الماركسي الذي أثبت فشله في ظل مستجدات النظام الجديد للتكوين البشري، فهو لم يتعد كونه مجرد قوالب نظرية، غيّبت الحوار بوصفه مؤشرا فعالا لتحريك آلية الفهم اليقيني للتراث على اعتبار أن الحوار مع الماضي «يستدعي تأويله من حيث هو طرف آخر، أشبه بالانت، ولكن دون أن تكون العلاقة به ومعه سجالية صراعية على طريقة الجدال الهيفلي أو الماركسي» (٣).

١ - النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ج ١، دار الفارابي بيروت، ط ١، ١٩٧٩ ص ٧.

٢ - الجابري: نحن والتراث، ص ١٥.

٣ - ينظر: مطاع الصقدي: استراتيجية التسمية، ص ٢٣٤.

لعل انتقال الفلسفة النقدية المعاصرة من واقع البحث عن الشيء إلى ضرورة البحث فيه، ومن تفسيره إلى إثارة السؤال من حوله، أي، إلى تأويله؛ لعل مثل هذه النقلة، كانت قد جردت النظرة الحديثة إلى التراث من محتواها الوصفي والتفسييري، واتجهت بها نحو (فن الفهم) أو (فن التفكير) التأويل الذي يعتمد إلى إلغاء أية أسبقية أو أصولية وجعل التراث في فضاء من إعادة الكشف.

والحقيقة أن النقد الحديث، تمكن من اقتباس خصوصياته المعرفية من «نظرية التأويل التي كان مطمحها الأساسي يتمحور حول إعادة اكتشاف العلاقة الكينونية بين الوعي والتراث بشموليته الإنسانية، وعمقه التاريخي (...) بين أن يكون موقف المؤول ناقلًا ومفسرًا للماضي، وبين أن يكون سائلًا ومحاورًا. فالمؤول لا يرث ميراثًا ولكنه يستحضر تراثًا» (١) ويذهب فيه إلى مساءلة الأصول والأنظمة عن طريق تفكيك البنيات القديمة للفكر العربي في ضوء ماتولد عن الأنظمة المعرفية الحديثة. وتبعًا لذلك تكمن أهمية التأويل ضمن طرائق التفكير في اللامفكر فيه، واللامؤول، واللامقروء ولكن ليس بالقراءات الماضية التي أعادت الأصول، وإنما بالوعي الحداثي الذي يستنهض القوى الفاعلة التي خلقت تلك الأصول، ويتحد بالفعل الانبعاثي الذي يخلق التراث من جديد.

وليس من شك في أن مثل هذه القراءة لاتخالف المقاييس والمعيارية، وتنفي كل تجريدية أو ذاتية، هي بالأساس موقف يميز سؤال المؤول للتراث موقف يخص الإنسان أمام تاريخه الشامل، وكشخص من حيث هو ذو هوية اجتماعية معينة يتوجه إلى تراثه هو بالذات فالعلاقة بالتراث تتجاوز كل موضوعية أو ذاتية التي تجمع الوعي به ضمن سؤال المسؤل عن تراثه في ظل البحث عن الكينونة المستقلة للفرد المفكر والفرد المبدع (٢) تلك هي النظرة الداعية إلى اللاتطابق، حتى لاتكون الإبداعات والفنون برمتها، تنويعات على الماضي.

١ - المرجع السابق، ص ٢٤٩.

٢ - ينظر المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

ب - موقف الوعي من التراث

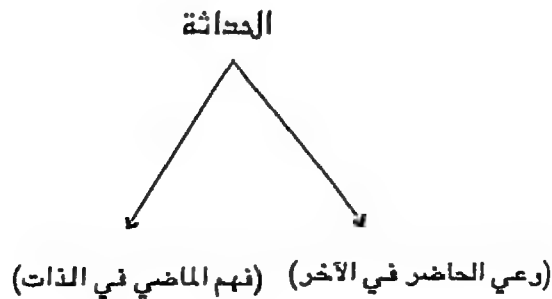
إن التراث يطرح اليوم على أكثر من مستوى وفي أكثر من اشكالية، ويحوم التساؤل حول مؤشرات التي لم تفصح بعد عن كل امكانياتها في تجاوز عتبة المنقول. إلا أن البحث في أشكال هذا التجاوز، يبقى يشكل جدلا معرفيا أمام سؤال لا يعد بأي جواب: هل ننطلق من روح العصر في فهمنا للتراث؟ أم من التراث ذاته؟.

لا بد من أن تكون المسألة مسألة حاضر قبل أن تكون مسألة ماض؛ ذلك أن الفكر الحدائي يسعى إلى تجاوز البنى الجاهزة للمعرفي الماضوي، ليس من أجل تعويضه بالمعرفي الحدائي، وإنما بغية انشاء علائق جديدة تصل الماضي بالحاضر عبر جدل كينوني مستمر. «و حين نقول الماضي، فإننا نعني تحديدا، تجاوزا لتصورات معينة للماضي، أو لفهم معين، أو لبنى تعبيرية معينة، أو لعلاقات معينة، أو لمعايير، وقيم معينة، ولا يعني اطلاقا أننا ننفك وننفصل عنه، كأنه أصبح عضوا ميتا زال وتلاشى. فهذا محال عدا أن القول به جهل كامل، لا بالماضي وحده، بل أيضا بطبيعة الانسان، وطبيعة الابداع»^(١) على اعتبار أن الماضي ليس دائما في حكم «الذي كان» بقدر ماهو امتداد دلالي للذي ينبغي أن يكون.

والواقع أن مثل هذه التصورات تحتاج إلى وعي نقدي وروبيوي يمكنها من ترسيخ اقتناعها المعرفي في طرح السؤال البديل، على أن لا يفهم من هذه العبارة استبدال نمطية معيارية بنمطية أخرى، وإنما المقصود هو تحقيق القطيعة الابستمولوجية التي لانتصور معها عودة الثابت الأزلي لبنية العقل العربي، وذلك حين يتم هدم هذا الثابت المتحدر إلينا من عصور الانحطاط، واسقاط الفهم المقرر مسبقا، بانتاج مفاهيم جديدة تنقل التراث من الموروث الذاكري إلى واقع اكتشافه من جديد، من التلقي إلى المسألة، والاستفهام، واستنطاق المسكوت عنه وذلك عن طريق الحدس

١ - أدونيس: كلام البدايات، ص ٢٤٤.

الاستشرافي بوصفه «رؤية مباشرة ريادية استكشافية تستكشف الطريق، وتسبِق النتائج وسط حوار جدلي بين الذات القارئة والذات المقروءة» (١).^١
ان قراءتنا ماتزال تعاني فراغا منهجيا ورؤيوا، نخلرا لغياب الرؤية التحليلية، وارتباك الفكر العربي أمام ثقل التراث وعدم المقدرة على مساءلة حيثياته. وهكذا تكون اشكالية الحداثة هي بالدرجة الاولى اشكالية وعي مزدوج: وعي الحاضر، وفهم الماضي.



فعلى الرغم من تصادم الذات مع الآخر، إلا أنها لم تنع، ولم تنع ذاتها. فظلت مرتدة إلى «السلف» ولم يكن باستطاعتها تجاوز كل بنياتها المفاهيمية السابقة وتحول الآخر مرآة لذاتها «لذلك اقتصر الحوار النهضوي العربي مع الغرب على علاقة تماه في ميراثه أو رفض كامل له» (٢) ومن هنا تأتي صدمة الحداثة لتكون مبررا لكثير من المبدعين والمفكرين لرفض التراث والبحث عن الخلاص في المجتمعات الغربية، وإلحاقه بالتراثات الإنسانية وهو الموقف الذي يسعى من خلاله يوسف الخال إلى تحقيق الثورة الممكنة التي تجد خلاصتها في الحضارة الغربية التي هي - بحسب تعبيره - «حضارتنا بقدر ما هي حضارتهم، ونحن لا قيمة لنا ولا مستقبل لنا، في العالم العربي، ان بقيت خارجها، ولم نتبنها من جديد ونتفاعل

١ - الجابري «نحن والتراث»، ص ٢٥.

٢ - مطاع الصفدي: استراتيجية التسمية، ص ٢٢٥.

معها ونفعل فيها. إنها لنا - وهي نحن -» (١) ومثل هذا الموقف يقترب كثيرا من موقف جبرا ابراهيم الذي لا يسعى إلى قلب المفاهيم الموروثة وإنما إلى إزاحتها واستبعادها تماما والانتهاز من الفكر الأوروبي نموذجا أعلى لكل حركة حديثة أو تدعى الحداثة «علينا أن نرى حركة الشعر العربي الجديد متصلة بحركة الفن الحديث بأوربا - أو قل في العالم كله -» (٢) فهو لا يفصل الإبداع الشعري الحديث عن مجموع حركات البعث الحديثة في أوربا وفي العالم، بل ويذهب إلى نفي معطيات التراث النقدي العربي بوصفها لاتلائم مشروعاتنا الحداثية في وصل رؤيتنا الإبداعية بالفن العالمي الجديد. من ذلك أنه - بحسب قوله - «من العيب أن نستشهد بالقدامى ونستند في أحكامنا إلى سوابق لن نجد لها في كتب الأدب التي وضعت قبل بضعة قرون» (٣). غير أن مثل هذه النظرة السلبية ما تليث أن تختزل التراث إلى حضارة ماض فقط بوصفه سجلا للأحداث التاريخية. وتبقى روح العصر لدى هؤلاء متعارضة مع ما يدعوه أدونيس بـ «جوهر التراث» فإنه هو يؤكد على كونية التراث واعتباره جزءاً من هذه الكونية فإنه يعلن أن الموقف منه لا يمكن أن يكون موقف قبول أو رفض إذ ليس لدى الإنسان من خيار في قبول تراثه أو رفضه. أن ما يجب تغييره هو فهمنا لهذا التراث، والمنظور الذي من خلاله نتطلع إليه ونمارس حكمنا عليه» (٤) وما نستخلصه من موقف أدونيس في سعيه إلى التواصل مع المعنى العميق للتراث، والانفصال عما لا يشكل سوى بعض مظاهره الجزئية، هو التمييز بين البحث عن هذا العمق في علاقته بالتراث البشري والإنساني، وبين فهم التراث في مدلولاته الجديدة وتغيير طرائق الفهم والتلقي.

١ - ينظر: كمال خيربك حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر دار المشرق ١٩٨٢، ص ٨٢ (ط ١).

٢ - جبرا ابراهيم جبرا: الرحلة الثامنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ٢، ١٩٧٩ ص ٨.

٣ - نفسه، ص ٨.

٤ - المرجع السابق، ص ٨.

وإذ يبدو لدى بعض الباحثين أنهم منقطعوا الصلة بتراثهم فإن اهتمام شعراء التجربة الجديدة بجوهر التراث من حيث كونه، مكونا ثقافيا وجماليا، يدخل ضمن الثقافة الإبداعية للشاعر الذي يرتبط به ارتباطا كيانيا، ويستلهم منه صفات الديمومة التي تتسم بالفعالية بحيث يغيب لديهم التراث «الأسطورة»(*) ويحضر التراث الرمز بحمولته الدلالية التي توافق سياقاتنا الشعورية والإبداعية بدافع من استمرارية الوجود والوعي بمدركات العمل الفني ويصبح من شأن المبدع أن يحيا في كيان تراثه باقتناصه عناصر الرؤيا، وخصائص النماء والحضور، حتى تتعمق الصلة بوجودان، لماضي، ليس يوصفه صورة مطلقة للمثال، بل بما هو امتداد طبيعي لما هية وعينا وادراكنا. شريطة أن ندرك الفرق بين دلالة الاتصال به والانفصال عنه فبمقدار ما يكون التراث مضيئا، ودالا ومتحركا، بقدر ما يكون في استطاعتنا الغوص فيه ومساءلته بتجاوز مظاهره الخارجية إلى باطنه المعرفي والجمالي الأصيل.

٢- موضوعة الحداثة

١- الوعي والقطيعة

إن الوعي بضرورة التحول، واستمرارية تطور طبيعة الأنواع والصيغ التطورية للمفاهيم، من شأنه أن يتيح الفرصة لبروز الكثير من التصورات والتحليلات، والخلايا المعرفية والمفهومية التي تجسد بفعالية روح العصر وحركية الفكر المعاصر. بيد أن هذه الخلايا لا تؤمن برابط يوحدّها بقدر إيمانها بالمستوى العميق لوحداثها، وماتمتع به من قدرة على إحداث التغيير.

(*) - المقصود بالتراث / الأسطورة: عقدة التفوق التي يمارسها النقص / النبوة، النقص / الوعي فإذا كان الماضي ملزما بأن يكون الأكمل (مقائديا) فليس من الضروري أن يكون الأكمل (جماليا).

وربما كانت الحادثة باعثاً حقيقياً لهذا الوعي، وتمثيلاً جوهرياً لانوجاده، بوصفها دافعا لانبثاق الوعي المغاير الذي بوسعه أن يساير عمق التحولات، وحركاته الجذرية. وهذا لا يعني استبدال الخطاب «الحدائي» بسلسلة الخطابات السابقة بعناصرها، وما تشكل ضمنها من رؤى ونظريات. أي استبدال حاجة إعادة البناء بحاجة الفهم المدرك للانتماء المرجعي. لأن مثل هذا الزعم يجر الحادثة إلى الثابت الزمني والسياقي الذي يخزلها إلى واقع، أو مناخ الحضارة التي أفرزتها.

ويبدو أن ما يميز الحادثة لا يكمن في تبادل المواقع والأدوار بين البنيات التقليدية والبنيات الحدائية، بل أن ما يميزها بحق هو إخضاع كل ما يدخل في نطاقها إلى المسألة المستمرة، والبحث الدائب، واستقصاء المتغيرات العميقة في حركية منبثقة على الدوام.

والحادثة من حيث كونها شكلاً جديداً، لم تسلم من الالتباس: لا من حيث المعنى والدلالة وحسب، ولكن هذا الالتباس ينطبق أيضاً على مستوى الرؤيا التي من خلالها يبحث الفكر العربي عن معادلات واحتمالات يكيف وفقها مشروع حادثة عربية. وهنا تدخل الحادثة منعطفاً يجعل منها نموذجاً كونياً، ومثل هذا التصور يعني نفي المحطات الإشعاعية وإلغاءها في الفكر العربي، وبالتالي التورط في الفهم الخاطئ لمضمونها الدلالي، ومحتواها التجاوزي والوقوع في مغالطة تقود إلى اعتبار الفكر الغربي فكر مساءلة، والفكر العربي فكر تقبل. الأول يعيد الاستكشاف ويتبنى المبادرة، والثاني يتلقى، ويستحضر ضميره ضمن إطار نشدان الميراث. وفي هذه الحال لا يكون الوعي بالقطيعة المعرفية وعياً «استيعابياً» يعي ويستدل ويستقرئ، وإنما يتحول إلى «انقطاع» سلبي عن التراث تتحكم به آليات الغرب التي يسترشد بها الفكر العربي دون أن يلتفت إلى مساءلة العقل وهكذا نقلنا المنجزات ولم نأخذ الموقف العقلي الذي أدى إليها^(١) وهو

١ - أدونيس: فاتحة لنهايات القرن دار العودة بيروت، ط ١٩٨٠، ص ٣٢٨.

الجوهر الذي تفتقده الحداثة العربية. ففي الوقت الذي تسعى فيه المجتمعات الغربية إلى تحديث وسائل نقد العقل، يتراجع العقل العربي ويتعثر في مرجعيات دخيلة تفتك منه كينونته، ولا يصبح إلا نمطا يستبدل بنياته بأخرى أكثر هشاشة من تلك التي اكتسبها في الماضي.

وفي هذا الشأن يسعى يوسف الخال إلى ربط مفهوم الحداثة بضرورة العودة إلى نقد العقل العربي، وهي مقاربة ابيستيمولوجية ترجع سبب الانحطاط إلى اختلال في النظام المعرفي على اعتبار أن «الحداثة هنا هي النظام المعرفي الذي تقوم عليه»^(١) فالتقنية والعقل ليسا حدثيين، وإنما تكمن حدائتهما في عمق الرؤية الحديثة التي في ضوئها يتشكل العالم من جديد. ونحن لانكون حدثيين مالم نواكب صيرورة الأشياء في جوهر كينونتها. ولا يكون الوعي الحداثي في مستوى هذه الرؤية «زيا أو شكلا خارجيا مستوردا، وإنما هو نتاج عقلية حديثة تبدلت نظرتها إلى الأشياء تبديلا جذريا وحقيقيا، انعكس في تعبير جديد»^(٢) يتوسل لغة الممكن والمحتمل، ويكتسب طابع التعددية التي تحيل الحداثة إلى سؤال مفتوح يشتغل بدلالات يشوبها الغموض والغياب، والترقب.

وحينما يتعلق الأمر بسؤال الحداثة يصطدم الفكر العربي بكثير من الاشكالات والتحديات، لعل من أبرزها اشكالية الوعي الذي أنتجها، وأفرز معطياتها، وربما قد تجاوزها الآن. واشكالية الوعي الذي تلقاها في أجواء ملتبسة وغامضة. وفي خضم كل هذا، تزداد حدة التوتر بين نية الاستباق في مواجهة النموذج الذي تشكل بعيدا عن أطرنا المعرفية والحضارية، وبين محاولة ازاحة النموذج المسبق.

١ - ينظر: محمد جمال باروت: تجربة الحداثة ومنهومها في مجلة شعر: قضايا وشهادات (دورية) الحداثة ١، ص ٢٥٦.

٢ - يوسف الخال: الحداثة في الشعر دار الطليعة بيروت، ط ١، ١٩٧٨، ص ١٣.

أما عندما يقترون الأمر بـ «حادثة» السؤال الذي يكتنه كثيرا من الدلالات والأبعاد، فإن الفكر العربي يجد نفسه أمام حقائق وتحديات لا يمكن القفز عليها يملوها واقع التحولات السريعة والمستجدة في كل حين.

وفي كلا الأمرين، تبدو الحادثة في المجتمع العربي، إشكالية مفهومية جدلية لا يمكن أن تستوعبها المقاربات النصية، ذلك بأنها تمثل فضاء شرعيا للتغيير. وتمتلك القدرة على تحويل الواقع، والأشياء والسلوكات. والمفاهيم أنها منطلق ورؤيا وليست مفهوما «وهي جوهريا رؤيا تساؤل واحتجاج: تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد، فلحظة الحادثة هي لحظة التوتر، أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وماتتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها» (١) وهي بهذا المعنى سعي دائم لأحداث التغيير النابع والجذري، وفق تصور مغاير وأسلوب مختلف يواكب الانبثاق المفاجئ، والمتنوع للأشكال، والأفضية والأزمنة، والتعابير، وتسائر التحول الذي لا يستثنى واقعا، أو حساسية أو نظاما. ومثل هذا التصور يضع الحادثة في تماس مع المحسوس، والمعيش والمتخيل؛ كما يجعلها موصولة بأكثر من دلالة أو معنى.

إن سؤال الحادثة يتضمن بالضرورة سؤال وعينا بها «غير أن هذه المسألة مشروطة بالفعل المعرفي، لا بالانفعال الذاتي» (٢) حتى لا تتحول إلى موقف أنطولوجي يتماهى مع نزعات فردانية محايدة دون التفاعل مع كليات العقل في نتاجاته الفاعلة والممكنة. ولا يجوز لخطاب الحادثة أن ينكر على الأفراد تبني مشروعاتهم التأملية، ومواقفهم التأويلية تجاه معطيات الفكر، والفن، والواقع. ولكن ما يعيب هذه التوجهات هو افتقادها لقيمة المبدأ، وسقوطها أحيانا في الفراغ.

١ - أدونيس: فاتحة لنهايات القرن، ص ٣٢١.

٢ - محمد بنيس: حادثة السؤال، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ١، ١٩٨٥، ص ١٣٢.

وهكذا تنشئ الحادثة وجودها بذاتها من عمق السؤال الذي يفجر المعنى ولا يسميه. وهو السؤال الذي يقاربها ولا يحتويها لأن مصادرها المعرفية هي التخطيطي والإنكشاف «وكون الانسان مركز الوجود وكون الفن خلقا لواقع جديد [...] الحادثة بهذا المعنى رحلة اختراق وانتهاك لاتني، ومشروع كشف وريادة لا يهدأ. الحادثة هي، جوهرية، روح البحث والإكتناه في عالم بدأ فجأة جديدا بكل ما فيه» (١).

لقد بدأت الحادثة العربية موقفا معرفيا من الحياة، ثم تجلت رؤيا. ومن ثمة حاول الوعي العربي استلهاها وتمثلها في أبرز سماتها المجسدة في «الفردانية» التي أعطت للفرد أولوية كبرى، ليس بوصفه شخصا، وإنما من حيث هو إنسان حرّ التفكير والإبداع، والتعبير وأتاحت له فرصة الابتكار والكشف ليختزل بذلك الكون في ذاته ويصير المحور، والمنطلق، والغاية.

وإذا كان بعض النقاد يرون بأن مثل هذا الموقف يحجب، ويخفي وراءه «الموقف الأنطولوجي - القيمي للحدثانية العربية بما فيه من غيبية وميتافيزيقية ورفض لليقين، والعقل ولكل فعل ثوري» (٢) فإننا لانلمس عبر رأي كهذا محاولة للكشف عن الجوانب السلبية والمرضية في الحادثة، وإنما يكتفي بجعل الحادثة العربية مجرد استنساخ للنزعة الحدثانية (مودرنيزم) التي أفرزتها موجة التضخم الذاتي، وقد أدت إلى استلاب الإنسان المعاصر، ولدت - بالتالي - لدى الإنسان العربي صدمة عنيفة على مستوى الواقع، والرؤيا، والفكر، والإبداع.

١ - كمال أبو ديب: الحادثة / السلطة / النمن، مجلة فصول ع ٢ / م ٤ / ١٩٨٤، ص ٣٧.

٢ - فاضل تامر: مدارات نقدية، ص ١٩٤.

فإذا كانت الحداثانية قد تعلقت ببعض المظاهر الجزئية، وأهملت - نسبيا - بعض العناصر الجوهرية فإن «الحداثة فعل شمولي كوني تخترق المألوف والمعتاد سعيا وراء تحقيق مقاربة أفضل للقانون الأمثل» (١) والتعبير الأسمى لتأكيد ماهية الوجود في ظل حرية صنع الكائن للكشف والرؤيا. وفي هذا الشأن ينبغي التمييز بين السياق الفعلي، والتداول الاصطلاحي لمفهوم الحداثة.

تبدو الحداثة في سعيها إلى التخلص من معوقاتهما أقرب إلى «العقلي» وأبعد عن النمطي والساند. وفي أثناء ذلك تبدو أشد ارتباطا وتطلعا إلى النموذج الأسمى، وبالتالي فهي فعل تطوعي «متمرد على ماهو واقعي من أجل البحث عن صيغة أقرب إلى القانون الذي مابعده قانون» (٢) وكان الحداثة مشروع غير مكتمل أو أنه يبحث عن غاية اكتماله بعدد .

وإذا كانت الحداثة العربية هي رفضا لماض يرتهن برويا الكمال وتجاوزا لحاضر لايمتلك قوة اكتماله في ذاته، فإنها - في منظور بعض الباحثين - بدت «غائبة عن حياتنا، وأنها تظل مشروعا نظريا مطروحا أمام المستقبل ليس إلا» (٣).

فهل معنى ذلك أن الوعي العربي لم يتمكن بعد من طرح سؤاله الحداثي؟ أم أنه لم يتحرر أسئلته الجوهرية حول فعل الحداثة في أفق اصطدامنا بها؟ وهل نظر إليها من حيث هي نتاج مفاهيمي غربي خالص؟ أم على أساس أنها محصلة تفاعلية حضارية أفرزت صيغا متعددة في الفهم، والتأويل، والفن، والفكر والإبداع، والكشف...؟ أم هي القاسم المشترك بين هذا وذاك، وهي تساؤلات عميقة الدلالة، نابعة في أصلها من الاحتجاج على السائد، والاستفسار عن الممكن...؟

١ - حنا عبود: مقاربة الحداثة / مجلة الناقد، ص ٣٢.

٢ - نفسه، ص ٣١.

٣ - فاضل تامر: مدارات نقدية، ص ٢٠٢.

ب - مؤشوات اصطدام الوعي العربي بحركة الحداثة

لقد أدى تحرر العقل - مؤخرا - دوره التنويري من ميتافيزيقا التأمل الذاتي إلى تحرر الفكر النقدي، لدراسة ميدان المجتمع وقوانينه كما خرج عن نطاقه الضيق ليخترق حدود الطبيعة العامة التي تسيطر الحركة الاجتماعية، وبذلك تحققت انتصارات العقل في سعيه الدؤوب إلى التخلص من كل أشكال الموروث «الاسطوري» فتغير اتجاهه «من فكر يهتم بالموضوعات وبالأشياء إلى فكر ينشغل بقضايا التفاهم بين الناس القادرين على الكلام وعلى الفعل»^(١) وفي أفق هذا الوعي، تراجعت فلسفة الذات لصالح العقل التواصل، الذي يعد بتحويل امكانات الأفراد من «العقلانية المعرفية الادائية إلى العقلانية التواصلية التي يسميها هابرماس - بعبدا عن كل غائية تنتظم داخلها المقاييس والأطر والعلاقات - بالاستعداد الذي يبرهن عليه الناس القادرين على الكلام والفعل، على اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ^(٢).

بذلك يجب أن يجدد العقل العربي علاقاته مع الأشياء بتجديد نظرتهم إلى الوعي والذات، ومن جانب آخر يسعى إلى امتلاك فلسفة مغايرة يوجه من خلالها ارادة المعرفة وارادة السؤال.

لكن العقل أو الوعي العربي الذي داهمته تلك التحولات، وأحدثت لديه صدمة عنيفة مع متغيراتها من جهة ومع ثوابته (هو) من جهة أخرى وجد نفسه في جدالية صراعية «كذلك الإنسان المشدود بين قطبين جاذبين بنفس القوة لا يستطيع أن يتقدم ولا يستطيع أن يتأخر ولا يكف عن الحركة للخلاص من هذا الانشداد. هذا الانشداد المتناقض والممزق هو محنة الوعي

١ - محمد نور الدين أفانيا: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية الحديثة - المريتيا الشرق

المغرب - ط ١ / ١٩٩١، ص ٢١٠.

٢ - ينظر المرجع السابق، ص ٢١٢.

العربي، بكل ماتعنيه كلمة محنة من أبعاد مأساوية، ومن رغبة في الخلاص والخروج من الذات» (١) ومؤدى هذا الانشطار لا يقف عند حدود الذات، وإنما يتصل أيضا بمعرفة هذه الذات ووعيتها ضمن التاريخ الكلي للإنسان ومفردات تحولاته عبر ثنائيات السلطة / الوعي، المعرفة / السيطرة، التوسع / العلم... «ووعي السيطرة، في أسبابها وآثارها، يدفع بإنسان المجتمعات التابعة إلى وعي مختلف يفتش عن زمن مختلف يبني فيه حدثا مختلفة، تصحح معنى التاريخ، من أجل دخول صحيح إلى التاريخ الانساني المفترض. وفي هذه الحدود، تكون المقاومة والبحث عن الذات مدخلا لأية حدثا محتملة» (٢).

تمثل هذه النظرة أحد المؤشرات الصدمية مع الحدثا بوصفها حركة عالمية من خلال انبثاق الوعي المغاير والبحث عن الهوية انطلاقا من البحث عن واقع مختلف، وتاريخ انساني ممكن. إلا أن مثل هذا الرأي يطابق المنظور القائل بكون الحدثا الغربية نموذجا كونيا. وهو ما يجعل المجتمعات التابعة دائما في موقف المتخلف والمسيطر عليه. وبالتالي فإن رأيا كهذا يفرغ الحدثا الغربية من مدلولها الحضاري ويحصرها في نطاق إيديولوجي / سلطوي تتحول معه العلاقة إلى عامل / معمول به بحيث لاتجد الذات خلاصها إلا في الآخر.

ويعتبر يوسف الخال أحد الذين يقرون هذه النظرة ويدعمونها بحجة الانتساب إلى الواعية الجماعية بحيث يصبح العالم الجديد عالم الجميع دون أن تفصل بين شعوبه حواجز أو حدود. هكذا يتوسل الخال خطابا الحدثا في مرآة الغرب أفاقا ورؤيا حين ينظر إلى الحدثا عبر الغرب

١ - ينظر أسيمة درويش: مسار التحولات قراءة في شعر أدونيس، دار العودة ط ١ / ١٩٩١، ص ٢٨.

٢ - فيصل دراج: الحدثا والوعي التاريخي، قضايا وشهادات، ص ٨٥.

الليبرالي الذي يحضر في هذه النظرة بوصفه عالميا، وكونيا وشموليا، ويعود ذلك - بحسب الخال - إلى أن «الغرب نتاج العقل الذي يتميز بكونية وشمولية قوانينه»^(١) وتبعاً لذلك فإن الحداثة العربية تظل مرهونة بتلمس طريقها نحو العالم الحديث [الغرب] ولا يبقى من روح الفكر العربي سوى آليات التلقي والاقتباس.

وإذا كانت الحداثة بماهي مؤشر حضاري وتقدمي قد سعت منذ بداياتها إلى قصف البنيات الهشة بدافع من إعادة تشكيلها، فإنها مع ذلك لم تتوقف عن نشاطها التدميري. غير أن تجربة تحديث المجتمعات المرفلة في موروثاتها أثبتت فشل مشروعها في محاولة تكييف هذه المجتمعات ودمجها في صيرورة شاملة لفعلها واستمراريتها.

ولعل ذلك ما يبرر كونها دائماً في جدل حتمي مع عنف الحداثة وشراستها. وهنا تتخذ المواجهة طابع الارتداد إلى السلف باستعادة ترميزاته التقليدية في طابعها الثابت والمستقر دون أن تتطلع إلى إديولوجيا التغيير. وقد يدفع هذا الإنسان العربي إلى أن يتخذ شكلاً من أشكال الهروب أو الرفض المطلق (اللاستياعي).

وإذا كانت الهوية بيننا وبين الغرب - بحسب تعبير مطاع صفدي - تكمن في حداثة التقنية فإن سيميولوجيا الأشياء التي استوطنت كيان الإنسان بتحويل خطابه التواصل إلى مجرد «جدلية ما بين المشكلات» هي المعادل الموضوعي لحداثة الغرب. غير أن انعكاس ذلك على المجتمع العربي يبدو أكثر حدة بوصفه مجتمعاً غير التقني استغرق «في عمليات التماهي الكلي مع السياقات الترميزية لشكلانية التقنية، والواقع هو أن المشكلة

١ - ينظر جمال باروت: تجربة الحداثة ومفهومها في مجلة شعر دورية قضايا وشهادات، ص

النهضوية المسيطرة في مختلف حقول التغيير عندما تتعاطى مع ترميزات المختوجات ' التقنية ' ، فإنها تعجز عن اكتشاف حقول دلالاتها الأصلية في بنية مشروعها الغربي» (١) وهذا العجز هو ما يؤكد أننا مازلنا لم نع بعد حقيقة الحادثة في بعدها الجوهري، أو أننا نعيش في حالة من الدهشة لم تؤد سوى إلى تراكم تقنوي.

وعوض أن يلتفت الفكر العربي إلى مساءلة ذاته، وتفكيك ثوابته البنوية، قصد إعادة بناء جديد لأنقته المعرفي، لم يلبث أن اهتز لرياح الغرب الحداثي دون أن يأخذ بالأسباب الجوهرية لفعالية الانتاج والتوجه، ودون أن يكتسب دينامية جديدة في الفكر والتحليل، وهو الأمر الذي أفضى إلى «كوننا شكلا في العالم الحديث، وبين كوننا جوهرًا في خارجه (وهذا التناقض) يضطرنا إلى معاناه قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناه قضايا عالم حديث، في مجتمع قديم» (٢) ولسنا في حاجة إلى مزيد من توضيح هذا التناقض فالموقف يحمل دلالات من تمزق الوعي من جانب، وضبابية الرؤية من جانب آخر. كما أنه يحمل إشكالية البعدين لحدثة تتعثر في مجتمع طوباوي لم يتخلص من يوتوبيا الماضي (الذهبي).

وبينما يكمن البعد الأول في اعتناق الماضي بحجة المحافظة على الهوية والأصالة، يتلخص البعد الثاني في تبني مشروع حداثي «مستعار» يجهض باستمرار.

ضمن أفق هذا الطرح يمكننا استخلاص مايلي:

(١ - ينظر: أنيسة الأمين، امرأة الحادثة العربية (قضايا وشهادات)، ص ١٠٨.

(٢ - محمد جمال باروت: قضايا وشهادات، ص ٢٥٤.

أ - لقد تمثل الفكر الغربي وجوده انطلاقاً من وعيه لذاته على الرغم من الاختلافات التي يفرزها هذا الوعي. أما نحن فقد تمثلنا وجودنا انطلاقاً من وعينا (لذاتهم) وتلك هي المفارقة في الحداثة العربية. أنها لم تتمثل وعيها الخاص، لم تقرأ الآخر عبر الذات، وإنما اكتفت بقراءة ذاتها عبر الآخر.

ب - ومن ثمة فإن غياب الحداثة العربية أو حضورها ليس مشروطاً بتبني مشروعات العقل الغربي وآلياته، وإنما هو مرهون بإعادة طرح أسئلتها النابعة من واقع مشكلاتها والشروع في مساءلة العقل العربي بإعادة تفكيكه ونقده.

ج - وبالتالي فليست الحداثة مجرد استعارة لشيئيات الحضارة الغربية، أو تماهيا مع أشكالها، ومفززاتها الخارجية، وإنما هي حوار مفتوح مع ترميزاتها ودلالاتها المتعددة.

٣ - حركية الحداثة الشعرية

الحداثة شعرياً هي فعل وجداني وشمولي، يتحد بفعالية الرؤيا وهي حضور متجدد يرافق الروح المتوثب في استشراف عدلها المطلق. وبذلك يكون الشعر حدساً ابداعياً يستلهم ابداعيته من هاجس الخلق الأصيل. والشعر لا يضيئ حياتنا وحسب، وإنما يتمها من حيث كونه يكشف لنا عما تعجز عن تلمسه حواسنا، وينقل لنا تلك العوالم الجديدة التي نرغب فيها، وليست العوالم التي نراها على الدوام.

فإذا كانت الحداثة هي بداية الوعي بالتجاوز والاختراق، فإنها تنطوي على مجال للرفض الشمولي، والفعل الخلاق. ومن ثمة فهي لا ترتبط «بالحدث» وإنما هي قرينة «الإحداث» الدلالي الذي يستأثر بلحظات التوتر، والتحول باتجاه التغيير الكلي. وقد جرى في الاصطلاح الفلسفي أن «الإبداع أعلى رتبة من التكوين والإحداث. فالتكوين هو أن يكون من الشيء وجوذاً مادي. هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود [...] والاحداث

أن يكون من الشيء وجود زباني. أما الابداع فأقدم منهما، لأن المادة لا يمكن أن تحصل بالتكوين، والزمان لا يمكن أن يحصل بالاحداث لامتناع كونهما مسبوقين بمادة أخرى وزمان آخر [...] فالابداع اخراج الشيء من العدم إلى الوجود بغير مادة (١) والابداع الشعري هو إضافة وحضور دائم لطبيعة ثانية مبتكرة ومحتملة.

ولكي يكتسب الابداع وجوده، عليه أن يتجاوز ألياته الانعكاسية نحو الانفتاح على تلك اللغة الحلمية في تفجراتها التي تبتدع حالاتها، وعلاقاتها في حركة جدلية توالدية. ومن ثمة اعتبار هيدغر اللغة « أكثر المشاغل براءة » (٢) ذلك أن مهمتها « أن تجعل الموجود موجودا منكشفا بالفعل وأن تضمنه من حيث هو كذلك. وفي اللغة يمكن التعبير في كلمات عما هو الأخرى كما يمكن التعبير عن الغامض والشائع والمتداول » (٣) وتلك هي معضلة اللغة التي تجعل الشعر يتحد بفعل التعرية. أن يعري الأشياء لكي يسميها، ويعيدها إلى سماتها وخصائصها البدئية، لكي يكشف عن كينونتها، وكل ذلك لا يحدث إلا في عالم اللغة التي هي جوهر كل كينونة.

تبحث حركية الابداع إذن في انقوى الكامنة فيه. هذه القوى هي التي تمنح الشاعر تراصلا أعمق مع وجدان الضمير الجمعي في تفاعلية خلاقة يستمد منها ينبوع الرؤيا.

١ - ينظر: أدونيس تأصيل الأصول - دار العودة - بيروت، ط ١ / ١٩٧٧، ص ٢٤٣.
٢-٣ - مارتن هايدغر: في الفلسفة والشعر، تر: عثمان أمين، الدار القومية القاهرة، ٩٣ / ص ٨٤.

وليس من شك في أن مثل هذه الحركية تقتضي واقعاً تأملياً تنصهر فيه كينونة الإبداع الحداثي بوصفه مشروع تساؤل حضاري مغاير ذا أبعاد مستقبلية. وتبعاً لذلك فإن الإبداع «هو نتيجة تعارض وانقطاع بين الواقع القائم وطموح الذات (الفردية والجماعية) إلى واقع غير متحقق. لذلك فإن كل تعبير فني هو حركة توتر بين راهن ومحتمل»^(١) عبر ديمومة جدلية تستوعب صيرورة العلاقات بين مستويات النص ودلالاته، ومتغيرات الواقع ومتناقضاته.

إن الإبداع الحديث هو أيضاً وليد الوعي المتعدد الذي يمنح النص ثراء وفعالية، ويدفع به إلى فضاء الممكن والدلالة، والسعي إلى القبض على المتناهيات، وماليس بكائن أو ماهو في حالة من عدم الامكان. وهذا التصور الذي يتأخم صفة اللاوعي / الحلم، يبحث عن اكتناه جمالي يشقه من صيغ متعددة غير متشكلة ولا متبلورة. وانطلاقاً من ذلك فإن «الخطاب الشعري لم ينطلق من «الحداثة» كإشكالية مكونة، بل كإشكالية تتكون وتجرب باستمرار، ومن هنا تأتي أهمية مقاربتها داخل الوعي الجمالي - الشعري الذي تهضت فيه»^(٢) واكتناه خصائصها ومفارقاتها من خلال اختلاف أفاق التطلع والكشف، وتباين أساليب هذا التطلع ونتاجاته، الرؤيوية التي تنوعت بين الثورية التغييرية، والسريالية الصوفية، ودحض الواقع ورفضه، ومحاولة تخطيه إلى جوهره، عبر مفارقات تأملية توحيدها الرؤية الكشفية.

١ - خالدة سعيد: حركية الإبداع، دار العودة، ١٩٧٩، ص ١٣.

٢ - محمد جمال باروت: مقاربة للبنيات الجمالية - الشعرية في الخطاب الشعري الحديث في سورية، مجلة الموقف الأدبي، ع ٩٣، سنة ١٩٨٧، ص ٨٧.

١- الرؤى والكشفي

١- رؤيا الخلاص

وهي المخاض الانساني الأليم الذي رافق رحلة الانسان في بحثه عن الخلاص. ولايتأتى ذلك دون الحلول في اللغة. والحلول في المصيرورة التاريخية، والانتماء إلى معنى الإنسان ولايمكن أن تكون الرؤيا مجزأة، ذلك أنها في جوهرها شمولية، انصرف بفعلها المبدع من التعبير عن وجدان الانا إلى التوحد برؤيا الكون (وجدان الإنسان).

إن الذات وهي تحدد اختيار وجودها فإنما من شأن هذا الاختيار أن يرمي إلى الكشف الحقيقي لهذا الوجود بكيفيات متفاوتة تكون غايتها الفاعلية الهادفة بتجاوز رهن الحال إلى واقع الممكن من خلال النظرة الفاحصة للتفكير الانساني لتجديد مكاننا في الكون.

ولكن القول بثمرة المعتقد المذهبي من شأنه أن يخلق التناقض بين التقيد والحرية لأن الإنسان من طبعه إذا مال إلى المؤشرات الخارجية وقع فيما يسمى «بالخطيئة»، وهو الأمر الذي وقع فيه الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي اتخذ من الوعي القومي شرطاً يجب تنضيده وتجسيده في الواعية العربية من خلال الرؤية الابداعية ظناً منه «أن الشعر متى فقد بعده القومي فقد بعده الحضاري، وبالتالي صار عديم الانسانية أي أنه يخلق فرداً غير ملتزم بشئ... فهو ضد القيم كلها لكنه ليس ضد شيء معين» (١) غير أن الشعر لايتحدد ببعد معين بل لايحده حدٌ بالأصل. وتظل حقيقته الجوهرية كامنة في بعده الإنساني على اعتبار أن الإنسان هو غاية نفسه ومثالبها. وتبعاً لذلك فإن ما يهمه هو كونه الطاقة المحرصة للذات للتعبير عن اختيارها ووعياها لهذا الاختيار.

١- البحث عن ينابيع الشعر والرؤيا (حوار) مجلة دراسات عربية، ع ١٢ / سنة ١٩٩٠، ص

ولاشك في أن الإبداع الشعري يمثل أحد أهم هذه المِرْضات الانسانية في فعلها الشمولي بوصفه الأكثر تعبيراً عن سمو الانسان وتميزه وقدرته على تحقيق الحرية وعلى امتلاكها، ومن ثمة تنحصر الذات المبدعة باتجاه التوسع الكلي في وجدان الضمير الجمعي مع نكران أية عقائدية من شأنها أن تنزع عن الإبداع خاصية الإبداعية.

ومما لاشك فيه أن الشعر ليس مجرد مرسلّة غائية تستهدف إثارة المتلقي، وإنما جوهر الشعر هو تشوير العالم من الداخل، بوصفه حاسية كونية. فليس الشعر إذن خطاباً يتوسل وجوده في وعي محدد بقدر ما يلتمس كينونته في الوعي الانساني المنشود، لأنه كشف دائم لعوالم مجهولة، واحتضان كوني لأبدية الوجدان الانساني بخاصة عندما يمتزج طموح الذات المبدعة بالرؤية الفلسفية والفكرية التي من شأنها أن تنمي فيها روح التأمل الكشفي، وتعمق لديها حس المدركات الباطنية في استكناه معالم الوجود.

إن كون الشعر «رؤياً» لا يعني أن هذه الرؤيا هي مجرد استيهام يزلزل كيان الشاعر، ان الشعر - تبعاً لذلك - لا يقيم إلا في يوتوبيا أحلام الشعراء. بعيداً عن أرض الواقع، وصداميته العنيفة من خلال تناقضات الوعي الإبداعي بين طموح الذات وواقعها الملّزم بل إن أهميتها تكمن في كون القصيدة المعاصرة هي تلك «التي تمتلك أكبر حيز من الرؤيا المستوعبة لأكبر حيز من العالم واقعا وحلماً، والتي تمتلك من الشجاعة ما تنفي به عن نفسها كل ما يثقل شعرنا من خلايا ميتة وأوهام وعادات مسيطرة، وقداسة مبتذلة. هي نشوتنا السرية، في الصعود والهبوط، ومواجهتنا لذواتنا، ودهشتنا أمام ما ينكشف فجأة في يقظات أشبه ماتكون بالأحلام (١) ومن ثمة يغدو الشعر تعبيراً عن هوس العالم، وصميمية الانسان، ودهشته العميقة أمام سالا يمكن له أن يعيه، أو يسميه لأنه أبعد من الحدود الضيقة لوعيه :

١ - ينظر: عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثّة في القصيدة العربية

المعاصرة، ص ٢٢

وإذن، فالرؤيا لا تستلزم الواقع، وإنما تعيده إلى جوهره، أي أنها تتجاوزه وتتخطاه إلى كنهه وابتعائه. لذلك يجب التمييز بين الواقع المعطى في سكونيته، والواقع الممكن في حركيته، ذلك بأن المسألة مرتبطة بنوعية الأداء الشعري وكيفية، وهي الكيفية التي تمكن المبدع من فهم واقع، ورفعته إلى مستوى شروط التطور الحضاري في اتصاله بنظام الأشياء والممكنات.

وهكذا أصبحت قيمة الشعر مرتبطة أساساً بمدى إبداعيته الأصيلة، وقدرته على الاستكشاف، ووصل عالم الإنسانية، ببراءته الأولى. ورد الإنسان إلى نقائه الداخلي، دون الخضوع لأية مواصفات مسبقة، ذلك أن الشعر لا يواكب الواقع، أنه حركة تجاوز واستباق ونوع من التخريب الخلاق، والنمو الدائم «كما أن الشعر يعيش وينضج في مملكة العقل الباطن المشحونة بالايقاعات والرموز في الذاكرة الجمعية، وهي العناصر التي تتبلور على شكل رؤيا للمستقبل تمنح الشاعر سمة النبوة (١) وهو إذ يمتاح حدسه، من الفيض الذاكري، فإنه ما يلبث أن يتخطاه إلى اندماج الذات في عالمها المتشود. بينما يظل المعنى الجوهرى لكيان الشعر يتضمن الوجدان البشري وانصهار مضموناته. وهذا التطلع هو في حقيقته نوع من التوهج الرؤيوي، والحضور الكشفي العميق.

٢ - الرفض الاستيعابي

إن جنوح الشعر العربي الحديث لا ينفي أي شيء كان بمعزل عن مسعاه التحرري، وسعيه إلى التحرر من خلال إلحاحه على إبطال بعض المسلمات ونفيها عبر الجدليات الهيغلية، ورفضه لبعض المعايير وتخيره لبعضها الآخر، ومحاولة خلق نوع من الانسجام بين زوج التمرد الجذري وبين واقع المجتمعات العربية التي لم تع وعيا كاملاً معنى هذه الروح، أو لم تكن مهياة لهذا الوعي المنبثق فجأة. إن ذلك كله هو ما يشكل عالم الرفض الاستيعابي الذي يعتنق المسألة الاستدلالية التي تتولد من سياقات

١ - محمود شعبان: البحث عن ينباع الشعر والرؤيا، ص ٩٥.

التجربة الابداعية المعاصرة، يكون في نيتها كسر النموذج وخرق الجدار. وهذا يعني أن «الحدث» ليست صيغة تنطوي على استمرار تقاليد التجاوز فحسب... بل هي - في المحل الأول - صيغة تنصرف إلى الفعل، وتنطوي على الاختيار، وتتضمن بعدا للقيمة بالضرورة^(١) ولعل الرفض كدلالة على وجود ارادة واعية لامنقادة، مستوعبة، لاموجهة منبثقة عن وعي داخلي، وليست صادرة عن تيار خارجي هو ما يمنع هذه الدلالة صفة الديمومة من حيث كون سؤال الرفض هو عينه سؤال القطيعة الجمالية في الخطاب الشعري الحديث، وهو السؤال الذي فجر النواة الرحمية لكل تجاوز خلاق.

وبإمكان الرفض أن يكون قيمة متضمنة في كل حدث. بخاصة عندما يتحد بالوعي الثوري العميق الذي يطمح إلى التغيير، في تطلعه إلى مايفير الواقع المألوف «فالغاية الأخيرة التي يتطلع الشاعر إليها ليست رفض العالم... وإنما هي إقامة صلح دائم وانسجام دائم بين الروح والعالم. إذ ليس هناك في حدس الشعر فاصل أساس بين العالم الذي نراه والعالم الآخر (٢) لأن الرؤيا توحد الكليات والمتناهيات فلا يبدو العالم منفصلا عن ذات الشاعر أو مجزءا إلى باطني وظاهري وإنما هو صورة شمولية وامتداد كوني لماهية الذات التي تبحث عن سر انسجامها من خلال انسجام العالم في ذاتها.

لقد اتخذ مفهوم الرؤيا حيّزا واسعا في أدبيات النقد والشعراء على السواء. ليس بوصفها معطى تأمليا انعطف بالتوجه المعرفي والنقدي نحو استقراء معالم الوجود وحسب، ولكن بما حملته من دلالات الرفض، والتجاوز، والتمرد، والثورة، وانبثاق الوعي المفاير. ومع ذلك فإن لحظة الحدث الشعري هي لحظة «التبين» المتشكل في فضاء السؤال، على عكس «البنية» التقليدية التي اكتفت بثابتها البنيوي. ومن ثمة تبدو البنية

١ - جابر عصفور: معنى الحدث في الشعر المعاصر، فصول ع ٤ / م ٤ / سنة ١٩٨٤، ص ٣٧

٢ - أدونيس: سياسة الشعر دار الآداب، ط ١ ١٩٨٥ ص ٣٢ .

الشعرية الحديثة وكأنها «بنية مضادة، لها من الإكتمال بقدر ما لها من الارتجاج. بل إن هذه البنية هي ما يبرر الحداثة الشعرية العربية ومصدر صلابتها وانكسارها في أن (١).

٣ - اللغة الكشفية

لقد تمثل الشعر العربي المعاصر وجوده كينونيا انطلاقاً من هذا التشكل المتواصل، والتبيين المستمر. ولكن بأية حصانة يضمن لنفسه هذا الوجود. الكينوني وديمومته؟ أليست اللغة هي التي تمنح الشعر صميمية أقوى، وجوداً أعلى؟ أليست هي صورة من انكشاف الإنسان في الوجود؟ إن اللغة ليست مجرد هاجس معرفي راقق الإنسان في حدوسه وتصوراته فقط ولكنها «أولاً وعموماً ما يضمن إمكان الوقوف وسط موجود هو موجود منكشف، وحيث تكون لغة يكون عالم أغنى، ذلك العالم المتغير أبداً» (٢) هكذا تفعل اللغة في الوجود، تروحي بتفاصيلها وطلاسمها التي يشتق منها الشعر هويته بتحويل معجمه من القصديّة إلى الإيحاء المبدع.

اللغة الكشفية إذن، هي تشكيل جديد لعلاقات جديدة بين دلالات الألفاظ في تلاحمها الداخلي. لذلك ينبغي تفجيرها من العمق، من حيث حضورها كتعبير دال. ثم إن علاقة الشاعر بالكون هي علاقة بين فعل الإبداع وموضوع هذا الفعل. غير أن هذه العلاقة لا تتحدد بما يقرّره الموضوع من معطيات، ولا بما تحمله اللغة من دلالات واحتمالات، وإنما من حيث توظيف هذه الإمكانيات «فمجال الشعر هو بطريقة استعمال اللغة، كما يقول أدونيس.

١ - محمد بنيس: حداثة السؤال، ص ١٥٥

٢ - هايدغر: في الفلسفة والشعر: تر: عثمان أمين، ص ٨٦

والشعر ليس مجرد تجربة ذاتية، إنما هو تجربة كشفية ترتبط بمدى كشفها عن باطن الإنسان ومدى تجاوزه لوجوده، واستباقه للحياة فيما هو انبثاق أزلي عنهما. وتحتضن اللغة هذه التجربة بما تتمتع به من قدرة على الخلق والتكوين «أما لغة الكشف فهي تجاوز للمثال المتحقق، وابتكار لمثال مايلبت أن ينقض، وهذا يعني حركية العلاقة بين الإشارة والدلالة التي تحملها، أي حركية الشكل. هذه العلاقة الحركية أو المتغيرة هي مفصل التجدد والنمو. فالمبدع يحتفظ بحق الحركة بعيدا في اتجاه الواقع المبتدع، والمسافة القائمة بين المتحقق والمبدع هي مسافة الحرية (١) في خرق قانون المطابقة الذي يسمى الأشياء بحثا عن وجه العالم الخفي. وهو مايميز اللغة الشعرية التي لا تحيل على المعنى المرجعي المطابق وإنما إلى المعنى الإيحائي المضمّر.

ولا تكون اللغة الشعرية خلاقة إذا لم تتضمن في عمقها طاقات حية من قوة الاندفاع، والكشف، والفعل. والشاعر في هذه الحالة لا يمكن أن يستمد هذه الفعالية من السيولة اللفظية أو المعجمية، وإنما جوهر تلك اللغة المنشودة هي اكتناه جمالي يتوسل تفجير نواتها الرحمية.

الشعر إذن تجربة إنسانية، ومعاناة وجدانية، ورؤيا جديدة واقعا، وحلما. تحتضن مجهول العالم والإنسان. ولذلك فإن مايميز الشعر الجديد هو رغبته في التطلع إلى أحداث مالم يحدث، والالتيان بمالم يؤت به.

ومن طبيعته أيضا، ألا يكتفي بالاختلاف، وإنما هو يطمح إلى أن يغيّر الحياة بغية استكشافها فيما هو يستكشف الوجود الإنساني. ولاستطيع اللغة العادية أن تحاكي هذا المطمح لأنها لا تعطي إلا المؤلف، ولا تنتج إلا السائد والمتداول. واللغة - تبعا لذلك - ليست مجرد أداة للتعبير وتفجير المكبوت فحسب، وإنما هي كيان متجدد بإمكان الشاعر إحياءها على الدوام. بأن يضيف عليها مزيدا من الدلالات والإحياءات المبتكرة المستمدة من الوجدان البشري، والمعنى الانساني.

١ - خالدة سعيد: حركية الإبداع، ص ١٥.

وحيثما نقول بالتمرد على اللغة، فإننا نعني الثورة على اختزالها في منظومة نحوية أو بلاغية مكرورة. والسعي إلى اكتشاف طاقتها الإيحائية، من خلال تحويل هذه الطاقة إلى تعبيرات نابضة ومكثفة «وإنه لفرق كبير بين استغلال الإيحاءات التي تثيرها المفردات خلال عملية الإبداع وبين قصر عملية الإبداع على الإيحاء: (١) فالقيمة الجمالية والشعرية لا تكمن في المفردات بذاتها وإنما فيما تحمله من فيض إيحائي، وفيما تنشئه من علاقات، وما تتمتع به من إشعاع دلالي.

إن الفارق بين التذكر والحلم هو أنه في الأول تستعاد اللغة مجردة من محتوياتها الدلالية، وفي الثاني تتفجر اللغة بمدلولات مبتكرة. أضف إلى ذلك أن: «الحلم خلق متجدد مصدره الأنا المطلق ومادته الخيال. أما التذكر فرشح لتجمع الآخرين في الأنا يكتفه مادة الذاكرة وقدرتها على التشكيل» (٢) أما حينما يكون الشعر حلما ورؤيا، فإنه يعيد اللغة إلى وهجها الداخلي.

وهكذا لم يكتف الجيل الجديد بلغة نموذجية مألوفة، مما يبرر جنوحه إلى ابتداء معجمه الشعري الخاص الذي يتفق مع معاناة الإنسان المعاصر وطموحاته. غير أن ملامح الرفض تختلف من شاعر إلى آخر. فمنهم من سعى إلى تطوير المعجم الشعري القديم وبعثه بإضفاء قيم دلالية جديدة على ألفاظ قديمة. ومنهم من تمرد عليه ودعا إلى مقاطعته، وخلق لغة جديدة بالخروج عن مدلول اللغة الموروثة. إلا أن تجربة كهذه لا تخلو من بعض النقائص والسلبيات مما أفضى ببعض النصوص الشعرية إلى التورط في أوهام الغرابة والغموض التي افتقدت للجمالية. وانصراف الشاعر إلى الإفراط في تعقيد تراكيبيه، وفقدان المعنى الدال، وضياع الينبوع الفطري لجوهر القول.

١ - منير العكش: أسئلة الشعر، ص ١٦.

٢ - المرجع السابق، ص ١٦.

إن ثراء التجربة الشعرية هو من صميم اللغة التي هي صنولهم التشكيل. ومن ثمة أثّرت حرية التعبير والابتكار في حقل اللغة بوصفها ظاهرة تخضع للتغيير والتبدل، وتلون دلالاتها، وانطباعها بطابع الوجود الذي تحيا فيه، والواقع الذي تنبثق عنه. ولذلك «لقد أبيح وسيباح أبداً، لكل جيل أن يسك من الألفاظ ما طبعته روح العصر. فكما أن الغابة تستبدل أوراقها كلما انسلخ عام، مانبت منها قبل غيره، كذلك الحال مع الألفاظ، أقدمها أسبقها إلى الزوال. أما الجديد منها فمزهو نام مثل جيل فتي»^(١) وكما كان من طبيعة اللغة أن تنتخب ألفاظها ولا تكررّها. فقد ظل وله الرمزيين بلغة استثنائية مطمحا جوهريا يتغيا النفاذ إلى باطن الأشياء ويقتنص مدلولاتها مما يطفو عليها من ظلال «والرمزيون يرون أن لغة الشعر المعاصر لابد أن تتكى في تمردّها على الفيض السوري، وعلى الحذف ترفعا عن الابتذال، وعلى الألوان وظلالها وعمل العلاقات من خلال مبدأ وحدة الجوهر في الأشياء وتوقف وجود الأشياء على وجودنا، وعلى نقل الجو الإيحائي الذي يدفع الشاعر إلى تشكيل لغة في اللغة، وعلى الإبهام الناشئ من حركة التضاد الأولى بين كثافة المادة المعبر عنها وضالة الأداة المعبرة»^(٢)

وحين يصبح الواقع علامة في اللغة، يلتحم الدال بالمدلول ولا يكون الإبداع انجازا للواقع، وإنما يتحول إلى اكتناه جمالي - كشفي يتعدى تجربة المعاش إلى استخلاص خصوصية العمل الإبداعي، انطلاقا من تلاحم الرمزي بالدلالي، والواقعي بالحلمي، والرؤيوي بالأسطوري فه ليس الفن إلا واقعا في العمل الفني ولا وجود له خارجه، والفنان قد يكون متخفيا دون أن يتغيّب كليا... وليس أبداع في تركيب العمل الفني من تلك القدرة العجيبة

١ - هوراس: فن الشعر، تر: لويس عوض: الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢ / ١٩٨٨ من ١١٢

٢ - ينظر: محمد أحمد العزب: ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، دار المعارف، ص

على التحام الشيء بشيئته، واقتتران الوجود بوجوده... (١) وكأن جوهر الابداع يكمن في العودة إلى ينبوعه الفطري حتى يخلد إلى كنه المعنى الانشائي لعميق الغائر في الوعي الباطن للذات.

ومن ثمة يعتبر الوعي بأهمية تفجير اللغة، ضروريا لكل انقلاب لغوي تصاحبه رؤيا فاعلة. وفقدان هذه الفعالية لا يمثل فقدان الدلالة فحسب، وإنما ضياعها أيضا، وضياع الدلالة معناه غياب الفن الفاعل الذي يؤسس لحضوره بالاكشاف، ويفسخ لوجوده المحتمل. ومعناه أيضا «أن الوعي هنا لا يمتلك لغته مهما نبش وفجر في ثبات اللغة التقليدية... لأنه لم يصل بعد إلى مكن الانفجار الحقيقي. أي علاقته بعالم الدلالات وليس بعالم العلامات» (٢) غير أن هذا الضياع ليس مصدره عجزا في اللغة، أو قصورا في التجربة، وإنما اعتقد أنه نتاج لتراجع المحمول الدلالي أو انحساره أمام غياب الدلالات الحية، النابضة والمتجددة. وحضور علامات تجاوزها عصرها مازال متجددة من حيث كون الحامل (اللغوي) يميل إلى رصيد من هذه العلامات التقليدية الميتة.

وإذا كانت ضرورة التحول تستدعي تحرير اللغة الشعرية من قيودها ونمطيتها، فإن الحاجة إلى لغة جديدة تستوعب مضامين الحياة المستجدة وبنياتها، باتت أكثر من ضرورة، إلا أن «شرطا تاريخيا يجب أن يتوافر في الشاعر الذي يتصدى لمحاولة الانقلاب على اللغة القديمة، هو احتواء هذا الشاعر أولا لهذه اللغة القديمة... والوقوف المفكر المستأنى على دقائق العلاقات والروابط التي تربط بين مفردات اللغة في العمل الشعري» (٣)

١ - مصطفى الكيلاني: في العمل الفني والجمالية، الفكر العربي المعاصر، ع ٦ / ٧٦، ١٩٨٩ ص ١٩ - ٢٠

٢ - نطور الاسعد: في اللغة أم لغة الومي، الفكر العربي المعاصر، ع ١٨ / ١٩، سنة ١٩٨٨ ص ١٥٤

٣ - ينظر: محمد أحمد العزب: ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، ص ١٣٥

بحيث لا يمكن لفضاء التجربة الشعرية أن يتقصر مساحة الواقع أو يقفز عليها، وإنما ينبغي البحث في مسافة الغياب، غياب الوعي بالجمالية اللغوية التي لا تكمن في استبدال الألفاظ، أو احلال الأسطوري محل الشعري، وإنما تكمن في الوعي الذي تنتجه الواعية الجمالية لتركييب اللفظة التي تخلق الشيء وفق مستجدات العصر. وقد تتجاوز في كثير من الأحيان حينما تصبح الكلمة الشعرية تعبيراً عن ماهيات مجهولة ضمن طرح الإشارة الاستشراافية، متجاهلة بذلك «قصداً الكلمة» ومتضمنة احتضان «الكشفي».

ب - جمالية الإيقاع

لا شك في أن قوة الإحساس بالأشياء من حولنا مصدره اندماج مشاعرنا الداخلية في جميع صورها، بأشكال الواقع الخارجية. وتنامي هذا الإحساس ينبع أساساً من تجدد مشاعرنا، وإحساساتنا من حيث كونها لاتخضع لنفس الإيقاعات. وإذا كانت مثيرات العالم متنوعة، فإن الفنان هو أكثر الناس استجابة لهذا التنوع بما يدركه **بوعينه** الخفية بفضل **هدسه الذي** تنقلنا إلى باطن الشيء، وتجعلنا نتحد بصفاته.

وفي هذا الشأن يبدو أن الإيقاع الموسيقي يتضمن احساساً عميقاً بمظاهر الكون من حيث انسجام الأشكال، وتآلف الأصوات. وبذلك فإن الإيقاع في الشعر هو القوة الإيحائية للكلمة، وهو أيضاً ما تستطيع الكلمة من إحياء دلالي. و«الإيقاع في الفن هو الذي يمثل نبض الكون، فهو مبدأ جوهري يسري في كل عصر، وفي كل إنسان، انه قوة موضوعية. هذه القوة وحركتها موجودتان دائماً بصرف النظر عن كوننا نعي ذلك أو لانعيه» (١)

١ - ينظر: فيورغي غاتشف: الوعي والفن، سلسلة عالم المعرفة / الكويت ١٩٩٠ ص ٧٥

وإذا كان أفق المستقبل التقليدي يؤثر أن يكون نسيجه الإيقاعي نموذجاً لمنظومة العقل الرياضي والمنطق، بحيث أخضع فن الموسيقى إلى نظام نغمي تراتبي وأسلوب منظم(*) فإن أنصار الجيل الجديد في مقابل ذلك « ينظرون إلى النغم والقالب على أنهما وسيلة للاتصال، وأنموذج له، ينبغي أن يتغير وفقاً لحاجات التعبير (١) ذلك أن طبيعة الجمالية الإيقاعية الحديثة ليست مهيأة لموروث النظام النغمي، وإنما تسعى إلى هدم وتفكيكه، بغية خلق أنواع جديدة من التراكيب النغمية، يكون الوقع الخفيف والسريع فيها، صورة للتنوع العاطفي، وتباين أفاق التلقي التي تحدد نسبة الوعي، وحدود التقبل الجمالي. وعلى هذا الأساس فإن « ما يميز التنافر من التوافق ليس ازدياد درجة الجمال أو نقصها، وإنما ازدياد درجة القابلية للفهم أو نقصها » (٢) ولا يتجلى ذلك إلا من خلال مانضينه من معاني جمالية، ومانكسبه أياها من ثراء نفسي. كما لا يتم ذلك ما لم يتجاوز النبط الإيقاعي المستوى الانفعالي باتجاه النفاذ إلى مستوى التجربة الباطنية. بحيث يكف عن كونه استجابة سطحية، ويسمى إلى تقمص الوجدان البشري وتعميق العاطفة الانسانية.

(*) - بحيث يكون جوهر الموسيقى هو خلق نظام نغمي محكم. وقد أيد هذه المنظرة جيل من الفلاسفة والمبدعين. ومثال ذلك رأي بروتزي القائل: « ليست مهمة للموسيقى هي إثارة الانفعالات، وإنما تكوين تجمعات نغمية مرتبة عقلياً، وقوالب مبنية على أسلوب منظم »
يشغل جوليس بروتزي: الفيلسوف وفن الموسيقى، طرة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية للكتاب، ص ٢٩٢

١ - جوليس بروتزي: الفيلسوف وفن الموسيقى، ترجمة فؤاد زكريا: الهيئة المصرية للكتاب، ص ٢٩٦.

٢ - ينظر المرجع السابق، ص ٢٩٩

إذن فالإيقاع الحديث لا يخضع لموجة التأثير الخارجي، أو الانفعال المفرط، وإنما يكمن أساسه الإبداعي في إمكانياته غير المحدودة، وتبعاً لذلك، فإن الإيقاع الداخلي ليس قيمة بحد ذاته فحسب، وإنما هو قيمة بما ينفرد به من أثر، لا بما يبعثه فينا من متعة حسية وإنما بما يثيره في الإنسان من نشاطه الروحي والوجداني. وذلك من وجهة نظر تأملية ترى في أن الموسيقى مدخل لفهم طبيعة الكون. وبالتالي فهم الإنسان وعلاقته بالعالم.

ولعل ما يوحد الصلة بين الشعر والموسيقى هو ارتباط كليهما بالعمق الداخلي للوجدان، وذلك بما يكفلانه للنفس من انسجام ومتعة روحية، ومن هنا تبدو وظيفة الإيقاع أكثر من مجرد إثراء نفسي، من حيث كونه لا يتحدد بالمتعة الحسية أو الانفعالية، وإنما بالقيمة الجمالية التي تستجيب لها الذات في مضامينها الشعورية والرمزية. ويعتقد بعض الفلاسفة «أن الإيقاع هو هيكل الكائن.. إنه المحرك الداخلي الذي يضيف عليه الشكل... إنه التعبير عن قوة الحياة. وهو الصدمة المترددة، أي القوة التي تربطنا وتشدنا إلى جذور كياننا من داخل احساساتنا»^(١) فالإيقاع بهذا الطرح يتعدى كونه مجرد تناسق نغمي يطابق التناسق الكوني أو العددي كما تزعم الفيتاغورية، حتى وإن كانت بعض خصائصه مستمدة من عالم الطبيعة، ذلك لأنه يحمل من أثر الإنسان ما يمنحه تجدداً مستمراً عبر الأزمنة.

وهكذا فإن الإبداعية الإيقاعية الحديثة تستمد إيقاعها من تعاطي المعنى الإنساني. ويصبح الإيقاع في الشعر محارة لتمثل الكثافة الوجدانية واستلهاً لمشاعر المتلقي «وهو غير قابل للتفسير... ويمكن أن يكون الإيقاع واحداً في كثير من أشعار الشاعر أو حتى نتاجه، وذلك لاجل العمل متشابهاً، لأن الإيقاع يمكن أن يكون على درجة من التعقيد

١ - ينظر: جانها ينزجون: الإنسان: مرض للثقافة الأفريقية الحديثة، تر: عبد الرحمن صالح،
الدار القومية للطباعة، ص ١٧٥

وصعوبة التكرين، بحيث لا تستطيع بلوغه بواسطة عدد من القصائد الشعرية الكبيرة» (١) وفي ضوء هذا يكون النغم الشعري في تشاكلاته كياناً تعبيراً تنتظم فيه البنية الدلالية من حيث الالتحام بالاحساس الباطني للذات. ومعنى ذلك أنه يخضع لألوان من التراكيب اللحنية التي تنساب في أشكال تعبيرية غير مقيدة بحسب اختلاف المواقف الشعرية بحيث تبدو الايقاعات فخمة ومندفعة حيناً، وهادئة وبطيئة حيناً آخر.

وبالقياس إلى ذلك فإن اللغة تنطوي على امكانيات صوتية لامحدودة تضفي على كل صوت مجموعة من الصفات يمكن حصرها فيما يلي (٢) - الحدة، - درجة علو النغمة، - المدى الزمني الذي يستغرقه نطق الصوت، - المزاج أو الكيفية. وبالإضافة إلى الهمس، والتكرار، والنبر والوقف وغيرها من الخصائص النغمية التي يستند الايقاع إليها، فإن للأصوات خصائصها الطبيعية التي تمدها بأسها الجهوري، كالأصوات الصائتة، والصامتة وما تتمتع به من وقع نفسي وإيقاعي، لا يتمثل في مجرد الجانب الشكلي وحسب، وإنما يكمن في الخاصية الجوهرية للايقاع الدلالي أو الداخلي ما تتفجر به الكلمات من تنوع نغمي. فكل كلمة تحمل إيقاعها في تلاحمها، وتباعدها، وفي تناسقها وتنافرها، غير أن الوعي النقدي القديم لم يدرك ذلك الزخم الإيقاعي الذي يتجاوز حدود الشكل الخارجي إلى مستوى الجرس الحفي، وباستثناء بعض الملامح التي أشارت إلى طبيعة النغم المتحرر(*) فإن الايقاع الشعري القديم ظل تابعاً لنظام الوزن الخليلي الذي لم تبتدعه الذات مما يعتمل في وجدانها من دفقات، وإنما تنهياً لصقل اشعارها وفق ذلك النظام الموجود سلفاً. فلا يعود للصوت معناه ودلالته وشحناته النغمية المقعنة بالسحر الذي يجتذب النفس وهي مأخوذة به، ويهزها من داخل إحساساتها بل يصبح مجرد نقل يعطل الوعي ويبدد الاحساس.

١ - ينظر: فيورهي فاشف: الرمي والفن، ص ٦٤

٢ - ينظر: سيد البحراوي: موسيقى الشعر عند شعراء أبوللو، دار المعارف، ص ١٩.

(*) - إشارة إلى بعض الآراء النقدية التي تقارب الرؤية الحديثة على ذكر ما ورد لدى عبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني.

فإذا كان الشعر عند القدمى ظل مشدودا إلى قوالب معدة لاتفصل بين معنى الايقاع بوصفه طبيعة فطرية وبين الوزن كإطار شكلي، فإن ثمة نظرة لاتخلو من إحساس جمالي تزعم «أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع. فلما ظهر عشقته النفس وصفت إليه الروح» (١) ومثل هذه النظرة تؤكد على أن الانسان مفطور على الانشاد، وتخرج بالوعي نحو الإشارة والانتباه بحيث لانتوقع معها معنى للايقاع إلا نابعا من عمق الكيان الانساني، متوحدا بالفطرة، موغلا في الأنا البدني للذات.

ومادام الأمر كذلك، فمالذي يشدنا إلى القول الشعري؛ الانسياب الايقاعي واللحني؟ أم العمق الدلالي والمضموني؟ الواقع أن الرؤية الحديثة تنظر إلى القصيدة على أنها كل متلاحم مصدره اندماج الفكرة بالنغم، والكلمة بالصوت، فلا يعود للشكل قيمة دون المضمون الدلالي ولا يكون لهذا الأخير معنى إذا ما افتقد إلى الصورة الموسيقية أو النبض الايقاعي المتحرر. ذلك أن القيمة الجوهرية للعمل الفني لاتفصل بين الشكل والمضمون «فالتعبير يمتلك شكله، كما يمتلك الشكل تعبيره. وكما أن الموسيقى النابعة من الاعتبارات الشكلية يمكن أن تكون حية كالموسيقى التي تنتمي إلى النمط النفسي، فكذلك تمتلك هذه الموسيقى الأخيرة الاستطيقا الخاصة بها والتي تسمح للتجربة الحية الخالصة بأن تصل إلى عالم الأشكال الموسيقية» (٢) ومن ثمة نظر إلى الإبداع على أساس من الخلق الأصيل.

وانطلاقا من هذه الرؤية، كان تطلع الجيل الجديد موازيا لحركة التحرر من الشكل الموسيقي القديم، المحصور في نظام عروضي منتظم. فيما ينشد أشكالا ايقاعية جديدة تسعفه على امتلاك خصائصه الفنية وتمكنه من استخلاص أدواته المبتكرة.

١ - ينظر: العقد الفريد ٣ / ١٧٧

٢ - جيزيل بروليه: جماليات الابداع الموسيقي، تر: فؤاد كامل، دار الشؤون الثقافية بفداد،

ص ١٠.

وقد التمس هذا الجيل موسيقاه في الألفاظ والمعاني، دون الالتزام بمقاييس العروض الخليلي وإنما حسب ما يعتمل في أعماقه من إيقاعات وجدانية تستتبع الدفقات الشعورية وتأثيرها قصد إحداث تساوق جمالي بين صورة التعبير وكيان الذات. على اعتبار أن «ضرورة الإخلاص لطبيعة الشعور الذي تتحرك به النفس يقضي بأن تكون الصورة التعبيرية بكل مقوماتها - والمقوم الموسيقي - بصفة أساسية فيها - طليقة تتحرك مع هذا الشعور في مرونة وطواعية» (١).

أما كيف يتلقى الشاعر النبض الإيقاعي بوصفه الشظية الأولى لتشكيل العمل الإبداعي، فقد ظل سؤالاً غامضاً، وملتبساً، لكنه من دون شك هو السؤال الذي أحدث القطيعة الموسيقية المنشودة، نتيجة لانفجار الوعي الجمالي الحديث الذي يجد مسوغاته الفلسفية فيما يستخلصه من رؤيا كونية تنسحب إلى اللامحدود في لانهائية وكثافة المضمهر.

إن كل تغيير، لابد وأن يقتضي وعياً مغايراً، وينشد معالمه الجوهرية في امكانية تحقيقه ميدانياً، ومثل هذا الوعي يمثل مطمحا جديدا يسعى من خلاله الإيقاع الشعري الحديث إلى الخروج عن إطار التشكيل القديم والتماس كونه الموسيقي فيما يصدر عن الذات من تداعيات نغمية وإيقاعية ومما تخلقه من تساوق مع الحالة الشعورية لوجدان المتلقي وتوقعاته.

وإذا كان الإيقاع الموسيقي مرتبطاً لدى الفيتاغوريين بالأعداد في تتابعها وتناسقها فإن الذوق الإبداعي الحديث باستلهامه لبعض ما في الكون من إيقاعات بكل انسجامها، وتدفعها، فإنه لا يتمثلها في انسياقها المألوف. فالأصوات والمعاني لم تعد تلتحم بنفس التحام النغم القديم في علاقة شعورية منتظمة وحسب، وإنما هو يستتبع ما انفصلت من ذات

١ - مز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر، ص ١٠٩.

الشاعر من ايقاعات. متفاوتة، ولذلك يفترض عز الدين اسماعيل « أن القصيدة بنية ايقاعية خاصة ترتبط بحالة شعورية معيّنة لشاعر بذاته. فتعكس هذه الحالة لا في صورتها الموهوشة التي كانت عليها من قبل في نفس الشاعر، بل في صورة جديدة منسقة تنسيقا خاصا بها، من شأنه أن يساعد الآخرين على الالتقاء بها وتنسيق مشاعرهم الموهوشة وفقا لنسقها» (١) وهذا معناه أن الإيقاع في جوهره مزيج من الذات والكون، وانصهار لأشكال وألوان من الطبيعة والإنسان، وهو بذلك يقترب من كونه طقسا كيانيا يتطلب تهيؤا نفسيا لتلقيه، وكثافة وجدانية لتعميقه. ولاشك في أنه يكتسب دلالة الجمالية عندما يتحول إلى نظام خفي يستأثر بأرواحنا وليس مجرد تنسيق ظاهري لحركاته وسكناته.

وبإمكان الشعر أن يصبح أكثر ايقاعية دون أن يخضع لنظام التقفية الذي يخضعه لقواعد جاهزة ولعل القصد من ذلك يتمثل في الكشف عما تتمتع به القصيدة من زخم ايقاعي، وانسياب نغمي، وتدفق حركي، نابع من طبيعة نموها. وهذا ما يؤكد اعتمادها على الاحساس الكلي للذات وللوجود.

وقد نجد لهذا الوعي مبرراته عند شعراء الجيل الجديد. وهو الوعي الحداثي الذي تجلت مظاهره التمردية في روح البحث عن قيم جمالية مغايرة، لاتساق طبيعة التوجه التقليدي، وتأملاته النقدية، ويسعى إلى الاستعانة بدلالات جديدة تمنحه فرصة للدخول في مغامرة الاختلاف.

وفق هذا المنظور - وعلى اعتبار أن الأجيال تتفاوت في طبيعة تأثيرات نموها، وتطلعها - جاءت تجارب الجيل الأخير بتنوعاتها (*) لتضيف إلى حركية الإبداع ألوانا جديدة من التعبير، والتشكيل. إلا أنها لم

١ - عز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر، ص ٦٤.

(*) - بداية مع جماعة الإديوان وأبوللو مرورو بالحركة المجرية والمزمية والرومانسية.

تقترب من جوهر هذه الحركية، وإنما ظلت تحوم حول مظاهر الشكل الموسيقي. ظنا منها أن البنية الإيقاعية للشعر إنما تكفي ببعض التحويلات، كاستبدال السطر الشعري بالبيت الشعري، وبالتالي سيطرت التفعيلة، لايوصفها أساً موسيقيا، وإنما بوصفها أساسا عروضيا. ولم يؤد التداخل الموسيقي بين الأسطر الشعرية وتنوع تفعيلاتها إلا إلى نوع من التكرار الممل لسلسلة من الأصوات.

لاشك في أن التفعيلة وحدة موسيقية تطابق "النوتة" في الفن الموسيقي، وأساس صوتي لوحدة النظام الإيقاعي. غير أن توظيفها في نسيج إيقاعي منتظم، حولها إلى مجرد بديل لبنية العروض الخليلي، والحال أن مهمة الشعر هي الخلق، والابتداع تماشيا مع باطن التجربة الابداعية في تدفقها اللحني، وانسيابها الحركي المتداعي الذي لايتقيد بنهاية وإنما يسترسل وفق حركيته الناجمة عن رجع الألفاظ.

إن عالم القصيدة الحديثة هو عالم الحركة، لأنها إدراك بالوجدان وبالرؤيا التي تبعث على تجدد هذه الحركة وديمومتها. ومثل هذه الرؤيا، لاتنشد مبدأ الحرية، وروح الشعر الحر الطليق وحسب، وإنما تسعى إلى تجسيدها عبر التجربة الشعرية الجديدة بوصفها تجربة خلق، وإعادة تكوين، وإزاء هذه الرؤية، تزايدت أهمية الوعي الكشفي الذي لايفصل بين روح القصيدة وشكلها بل يجعل منها اثرا جماليا ذا حضور كلي قابل للتغيير، والتحول وهو ما ولد رؤى مغايرة تستجيب في معظمها لايقاعات العصر. احتضنتها التجارب الشعرية الجديدة، وحاولت تمثيلها بوعي جمالي مخالف تماما لجماليات الشكل الموسيقي القديم. ذلك أن موسيقى الشعر الحديث لاتتبع «من تناغم بين أجزاء خارجية وأقيسة شكلية، بل تتبع من تناغم داخلي حركي هو أكثر من أن يكون مجرد قياس، وراء التناغم الشكلي الحسابي، تناغم حركي داخلي هو سرّ الموسيقى في الشعر» (١)

١ - أدونيس: زمن الشعر، ص ١٤.

والإيقاع في هذه الحالة يتطلب وعياً شعرياً، وإحساساً خفياً، لا يبرز في أشكال صوتية مكرورة، وإنما يتجلى في تصاعد النبرة الداخلية للمجملّة الشعرية « فلا تعود الكلمة صوتاً أو مادة ينسكب الإيقاع فيها بل تصبح فكرة وعلاقة، إنها تحتوي في ذاتها على الإيقاع والفعل » (١) من حيث انصهار المعنى وتلاحمه بالمادة الصوتية التي تكشف عن مرونتها عن طريق تماس الوعي بالوجود فيتحول معه الإيقاع إلى فكرة ومغزى.

وهكذا نخلص إلى القول بأن الإيقاع في الرسم، والنحت والموسيقى والرقص يختلف عن الإيقاع في الشعر، على الرغم مما يبدو من التشابه الذي ينتج في أغلب الأحيان عن امتزاج الفنون. بينما يكمن الاختلاف من حيث تباين المعنى الإيقاعي، ودلالاته النفسية، وكيفية توظيفه في ميدان فني دون آخر. وفي هذا الشأن نصل إلى أهم الخصائص التي تميّز إيقاع الكلمة عن إيقاع الوزن في الشعر:

١ - إيقاع الوزن ظاهري ومنتظم في بنية شكلية محددة، تفرض من الخارج، وإيقاع الكلمة باطني، متبث في أنسجة إيقاعية يبدئها الحس الداخلي للذات.

٢ - الأول قبلي تتهيأ له النفس وفق حركات منتظمة مسبقة، والثاني فطري، ينساب وفق تداعيات الحس، وإيقاعات الوجدان « وذلك من خلال ماتعطيه الكلمة من توافق جدلي بين المعنى والرمز الملازم للذات الباطنية وماتوحي به من قدرتها الدلالية على إعطاء صورة التلاحم بين فكر: الذات المبدعة وما تشعر به » (٢)

١ - ينظر: غاتشف: الرمي والفن، ص ٨٥.

٢ - عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي / منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق، ١٩٩٢ ط ١، ص ٨٤

٣ - ارتباط الوزن بموسيقى العروض، بينما يرتبط الايقاع بموسيقى الذات «فالايقاع قديما هو ايقاع البيت الواحد، والايقاع حديثا هو ايقاع كلي شامل للقصيدة جميعا» (١)

٤٠- في الوزن تنتظم القوافي، والوقفات. أي انتظام قيم نغمية محددة في نسق كلامي. فهالوزن يعني «المقياس» إذ الشعر يتكون من أبيات تقاس بحسب عدد المقاطع المنبورة والمقاطع غير المنبورة وترتيبها، ووحدة القياس هي التفعيلة، (٢) وفي الايقاع تنساب الدقات الشعورية من حيث انسجام الصورة التعبيرية مع كيان المبدع، وتلاحم الصورة الصوتية مع المعنى المنشود فالايقاع يعني التدفق أو الانسياب، وهذا يعتمد على المعنى أكثر مما يعتمد على الوزن، وعلى الاحساس أكثر من التفعيلات» (٣)

غير أن البنية الحديثة للايقاع لا ترفض مبادئ الوزن وخصائصه وإنما تأبى أن تخضع لها خضوعا يحرمها امكانية التجريب، وحرية تحقيقه كمكتسب جديد، تمليه أهمية التطور الذوقي الحديث، «في تماشيه مع تطور بنيات الوعي والتفكير.

١- مبد الفتاح صالح نافع: عضوية الموسيقى في النص الشعري مكتبة المنار - الأردن ط ١،

١٩٨٥، ص ٩٨

٢- اليزابيث نعرو: الشعر كيف نلقه وننتدقه، ص ٤٩

٣- نفسه، ص ٥٠

الفصل الثالث

خطاب الحداثة

«من سلطة النص إلى سلطة القراءة»

- ١ - لسانيات النص
- ٢ - البنيوية والنص
- ٣ - الأسلوبية «المنهج والتقبل»
- ٤ - إشكالية الدلالة وحدود التقبل

١ - لسانيات النص

إن اللسانياتية بطرحها إشكالية العلاقة بين المشار والمشار إليه، أو بين الدال والمدلول، في علاقات اعتباطية، لم تكتف بالاشارة إلى العلاقة بين الأسماء والمسميات، أو بين الأشياء والكلمات، وبالتالي بين الصور والمفاهيمات. وإنما تحاول إشراك الوعي الإبداعي في تحمل هذه العلاقة. لاسيما أن صلة النص الإبداعي بالعالم الخارجي هي في الأصل ذات ارتباط بمشكلة الصلة بين اللغة والعالم.

غير أنه يبدو أن الدراسات اللغوية الحديثة لم تتجاوز التقسيم اللغوي الذي أثاره دو سوسير لغة / كلام على اعتبار أن التمييز الأساسي الذي يقيمه بنفسه هو تمييز بين «اللغة بوصفها نظاماً إشارياً» و«اللغة بوصفها وسيلة اتصال». وبذلك لم تنهض جل الدراسات التي تلت جهود سوسير إلا على ثنائيات مشابهة كالتمييز بين الوظيفة النقلية للغة، والوظيفة التفاعلية، والدلالية، والتواصلية...

غير أن نظرية النحو التوليدي التي انفرد بها شومسكي استطاعت أن تعمق البحث اللغوي وذلك من خلال تأثره بفلسفة الظاهر والباطن بحيث توصل إلى هرق جوهرى بين «مأسماه» القدرة اللغوية competence و«الأداء اللغوي» performance لدى الإنسان. الأداء هو طريقة كتابة جملة بسيطة أو مركبة، على مستوى الحديث الجارى... أما المقصود بالقدرة فهو أنه مادام الأداء يتضمن قواعد لم يتلقها الإنسان من قبل، يمكن افتراض أن الإنسان يمتلك بفطرته عدة قواعد صورية أولية يثيرها من كمونها ما اكتسبه وتعلمه من قواعد النحو وتركيب الجمل الصحيحة» (١) فاكتساب القدرة اللغوية هو نتاج نظام ما قبلها وهنا تخرج اللغة عن حيزها المكتسب لتدخل حيز الإبداع. ونحن لانريد أن نعرض للنظرية التوليدية لما «تلكه من إمكانات تحليلية لمستويات القول من أصغر وحدة (مفردة) إلى أكبر

١ - ينظر: محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، دار النهضة ١٩٨٥ ص ١٤٢، ١٤٣

وحدة (الخطاب) ولكننا نشير فقط إلى أن التطور الحاصل الذي شهدته اللسانيات المعاصرة، يبقى لهذه النظرية فيه باع كبير بخاصة في أثناء تركيزها على القدرة اللغوية الكامنة في الانتاج اللغوي، والفهم، والتلقي، والتأويل وفي هذا الشأن فإن الحدس اللغوي «يؤدي في منظور شومسكي دوراً كشافياً، فهو إما أن يكشف عن الالتباس في بعض الجمل، وأما أن يبين التعادل القائم بينهما»^(١) ومن ثمة فإن اللغة 'لا تكدو' مجرد حامل لمجموع الجمل والمفردات المولدة وإنما تصير محصول تفاعل لغوي في إطار نظام لسانياتي يستمد إجراءاته من مبادئ جمّة تستمد معطياتها النظرية من طبيعة اللغة ذاتها.

وعلى الرغم من كون النظرية التوليدية لم تكن مجرد تعميمات أو إطرآت غير مؤسسة إلا أنها تظل تمثل إجراء نقدياً يحمل افتراضات منهجية وعلمية متقدمة تدعو إلى مزيد من التأمل العميق، والفحص الدقيق.

وبذلك فإن مصدر السؤال يظل قائماً أمام راهن الحداثة من حيث كونها سؤال الالتباس والفهم، ومحض افتراضات تظل دائماً عرضة للتساؤل والنقد. غير أن ذلك لا يعني أن اللسانيات أخفقت أو أفلحت في تحليل الخطاب بل هي تشكل جانباً نظرياً هاماً، ومشروعاً نقدياً قابلاً للتجريب مفتوحاً على القراءة والتعدد.

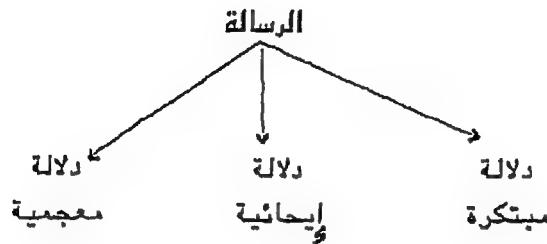
لقد اجتهد الوعي الإنساني - منذ أن استكشف اللغة بماهي وسيط لإدراك العالم الخارجي - في فهم هذه الظاهرة. وإذا كانت جهود اللسانياتيين الغربيين قد ألحت على فكرة التقابل الثنائي: دال / مدلول، لغة / كلام.... إلى غيرها من الثنائيات، فإن الوعي الصوفي العربي كان له السبق في بعث هذه الثنائيات التي تعبر عن مستوى فكري ومنهجي، ورؤية معرفية تأملية وكشفية تتجاوز ظاهراً الثنائية إلى مستوى عميق من الوعي التفكيكي.

(١) - منذر عياشي: النظرية التوليدية ومناهج البحث عند شومسكي (مقال) الفكر العربي

المعاصر، ع ٤٠ / ١٩٨٦ من ٣٤

وإذا كانت طبيعة هذه الرؤية قد انسحبت إلى النص القرآني فإن ذلك لا يعني أنها لا تختلف في جوهر تصورهما عن جدل الثنائيات التي توحي بتعددية المعنى، وإحالته إلى أبعاد رمزية يكون للمتلقي فيه جانب من الفهم والتأويل والتحليل. وقد أوضح ابن عربي في الفتوحات المكية هذه العلاقة من خلال تمييزه بين «المضمون الأول الذي هو النص من حيث دلالة الموضوعية، والمضمون الثاني الذي هو النص من حيث دلالة الرمزية، ويسمى وجه الرسالة الأول (العبارة) في حين يسمى وجه الرسالة الثاني (الإشارة)» (١)

ولم تقتصر الجهود النظرية لدى المتصوفة على النصوص القرآنية وإنما امتدت لتشمل فنون القول الشعري لما فيه من ثراء معنوي وإيحائي يتطلب تصوراً خاصاً لحل شفراته وفهمها واستكشاف تعددها الدلالي، وما تحتمله من تنوع كلامي. ولم تغف تلك الجهود عند هذا الحد، ويتعلق الأمر بالدلالة المبتكرة للألفاظ التي انتهى إليها ابن عربي الذي «يقترح للمفردة معنى جديداً لا يدخل ضمن دلالتها الإيحائية، وبذلك فهو يبدع ثورة فعلية خطيرة في مجال اللغة والبلاغة» (٢) وهكذا تصبح الرسالة أو الملفوظ يوحي بأكثر من دلالة واحدة ويمكن التمثيل لذلك:



١ - ينظر: سعيد الغانمي: أقمعة النجم، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩١ من ٨٩

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

ولعل ذلك ما أفادت به الدراسات النقدية الحديثة التي جاء بها بارت في فهمه للنص على أنه كائن يحيا بوفرة الكنايات، وما أكد عليه ابن عربي قبله من أن اللغة فيض من الاستعارات والمجازات اللامتناهية، وبإمكاننا إعادة تسمية الأشياء بغير أسمائها لأن الأمر متعلق بالتواصل الذي لايقول بثبات الدلالة الواحدة للمفردة، وإنما يجعلها تتغير باستمرار.

وهكذا، فإن التحليل اللغوي المعاصر بدوره، لا يكتفي بدلالة المطابقة وهو الأمر الذي أفضى إلى التسليم بوجود مستويين للنص هما مستوى التعبير (الدوال) ومستوى المحتوى (أو المدلولات) وتلاحم هذين المستويين هو مايؤلف الإشارة أو مجموعة الاشارات. ومع ذلك، فإن الرسالة التي تتألف طبقا لهذا الشكل الأولي، يمكن - إذا ما فككت أو وسعت - أن تصير هي نفسها مستوى تعبيريا جديدا لرسالة ثانية، تكون امتدادا لها، أي بوجيز القول، تصير «إشارة» الرسالة الأولى «دالا» للرسالة الثانية» (١) ولا تختلف هذه الرؤية عن تصور ابن عربي، سواء بخصوص الفهم المباشر للنص (العبارة) والفهم غير المباشر أو الباطن (الإشارة) أو بخصوص تصوره لمعنى مستوحى أو متبكر غير وارد تسترشد به أو تهذي إليه الذات القارئة بما تشتمل عليه من خبرات جمالية وتقبلية.

لاشك في أن أي معرفة نقدية تستدعي استقصاء ممارسة محتوى البنى النصية في ترابطها الداخلي الكلي لصنع الخطاب، ولقد كان النقد ولا يزال يسعى لأن يحقق بصماته في هذا المجال، لدرجة أن أي دراسة نقدية - هي الآن - تنكب على الروابط التي تجمع الدال بالمدلول فيما يشكله الدليل اللساني، حتى أصبح هذا التوجه مثار اهتمام جميع الدراسات النقدية المعاصرة.

٨ - ينظر: اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة من الباحثين، تر: سعيد الغانمي، ص ٥٥.

ومما لا ريب فيه أن وحدة جوهر الدليل اللساني يشكل انعطافا جديدا في ميدان النقد الحديث، حين تحول النص إلى نظام خاص، له استقلاليته، ودلالته، على الرغم مما يحتويه من مضمون واحد، إلا أن صيغه المعبرة عنه بطرقه المختلفة تجعله متميز الخصائص والاشارات يكون من شأنها أن تنتقل بالنص من سلطة «المعيار» إلى سلطة «القيمة» في ذات النص، بحيث صار يمتلك سلطته بنفسه بما تحتويه قابلية التمعين "la signifiante" في نسيجها الدلالي الحكم.

غير أن هذا الانعطاف وإن شكل مسارا جديدا، وأحدث القطيعة مع مختلف الممارسات النقدية التقليدية، فإنه لم يخل من بعض التساؤلات والتناقضات التي فتحت فوهات على النص والعالم، والمعنى والمرجع، والواقع والأنا، والدلالة والتصور.

وهكذا فقد حاول النقد الجديد الافادة من المنهج اللسانياتي الذي يبحث في التطابق بين الذهن والعالم دون الاكتفاء «بمعايينة خارجية للعلاقة القائمة بين واقع موضوعي، وسلوك انساني» (١) غير أن هذا لا يعبر إلا عن التجليات في مظهرها الخارجي، التي تتصورها الذهنية. ومن أجل ذلك دعا بنفست إلى الابتعاد عن كل ماهو ظاهري وعرضي، والبحث في التجليات الباطنية التي تكشف عن جوهر العلائق بين الأشياء والمسميات، أو بين الدوال والمدلولات بوصفها علاقات ضرورية. ومثل هذا الموقف لا يعطل اعتبارية الدليل التي يقول بها سوسير(*) كونها لا تحمل أي رابط

١ - اميل بنفست: طبيعة الدليل اللساني، تر: سعيد بن كراد / العرب والفكر العالمي ع ٥ / ٨٩ / ص ١١٩

(*) - لسانيات سوسير هي أول محاولة لتأسيس منهج نظري يقوم بالأساس على الثنائيات الضدية لغة / كلام، علامة / مرجع، دال / مدلول. ويرى أن مادة الالسنية هي العلامة أو الدليل، وليس المرجع الذي يشير إليه. ويرى أيضا أن العلامة لا ترتبط بين اسم وشيء، بل هي انصهار صورة سمعية أو صوتية [الدال] وصورة ذهنية أو مفهوم [المدلول]، وقد اسقط النظام الالسنى على مختلف المنظم الحياتية. وفي حقل النقد الأدبي الحديث ينظر إلى النص كنظام مزججه في ذاته [التراكيب، المفردات، الصور، الايقاعات...] وعلاقاتها.

طبيعي في الواقع. ولكنه يؤكد اعتباطية العلاقة بين العلامة والمرجع على عكس العلاقة بين الدال والمدلول التي تبقى معللة في نظره وبالمقابل نجد الالسنبيين الأسلوبيين لا يحتفلون برأي بنفست إذ «يعتبرون أن تعددية المعاني (المدلولات) في علامة واحدة ذات وجه دالي واحد، وهي في أساس الخلق الأدبي، والشعري منه خاصة، والصور البيانية ناتجة عن عملية تحرر الدال من مدلول محدد واحد» (١) وبذلك يصبح النص علامة تتجاوز الدلالة فيها، المفردة، ويصير الأدب لغة، أو نظاما لغويا، يحتضن تعددا دلاليا لا متناهيا.

وهكذا فقد أحدث المنعطف اللسانياتي تحولا نقديا، تمثل بالخصوص في تصور جمالية النص عبارة عن حمولة معرفية تتجدد باستمرار وتكون مصدرا لاستيعاب معان ودلالات متعددة. وقد اختزل بارت R. Barthes هذا التحول في قوله «ليس الأدب إلا لغة أي أنه نظام من الاشارات: ليست كينونته في محتواه، ولكنه في هذا النظام» (٢) الذي يحيل النص إلى ذاته أي إلى سياقه اللغوي الذي يشكل شبكة علاقاته الداخلية وأنظمتها الاشارية، التي تدخل في صميم بنيتها التحتية بوصفها عناصر نصية، وبذلك «يرتبط النص من حيث هو لغة مع اللسانيات بعلاقة تصوير فيها اللسانيات نفسها لغة دراسة نتحدث بها عن النص كلغة أولى، ولكن هذه العلاقة لاتجعل من نظام النص نظاما مطابقا لنظام اللسانياتية لأن طبيعة العلاقة بينهما تقوم على المجاورة والتشابه لا على التقمص والمطابقة» (٣) ومن شأن هذه العلاقة التوجه، أو السعي إلى اكتشاف المعنى الباطني أو المعنى الرمزي للغة الذي يتماهى مع الرموز التعبيرية في دلالاتها الالغائية من حيث أن النص الأدبي مؤسس من علاقات غيائية وأخرى

١ - جورج دورليان: بحثا عن وجهي سوسير: الفكر العربي المعاصر، ع ٣١-٣٢ سنة ١٩٨٤ ص ١٢٤.

٢ - ينظر: منذر العياشي: الخطاب الأدبي ولسانيات النص / مجلة المعرفة، ع ٢٠٠-٢٠١ / سنة ١٩٨٧ ص ١٣.

٣ - ينظر: المرجع نفسه، ص ٩.

حضورية. فكما يرى تودوروف «فإن العلاقات الغيابية علاقات معنى وترميز. فهذا الدال «يدل» على ذلك المدلول وهذا الحدث يستدعي حدثاً آخر، وهذا الفصل الروائي يرمز إلى فكرة ما. وذاك الفصل يصور نفسية ما. أما العلاقات الحضورية فهي علاقات تشكيل وبناء،^(١) يعني أن هناك علاقات دالية ترتبط بالعلامة المادية أو [الدال]، وأخرى علاقات دلالية ترتبط بالعلامة اللامادية [المدلول].

وحتى لا تنصرف الرؤية إلى حدود التقابل والتمايز بين المعاني الحقيقية، والمعاني المتضمنة أو المشتقة، يستلهم تودوروف التمثيل الدلالي داخل المنظومة النصية، ليميز بين «صيرورة الدلالة (حيث يستدعي الدال المدلول) وصيرورة الترميز حيث يرمز مدلول أول إلى مدلول ثان. إن الدلالة موجودة في المفردات (في جداول الكلمات) أما الترميز فيعتمد في الملفوظ داخل التركيب»^(٢) ليتحول السؤال النقدي إلى البحث عن كيفية تشكل النص: كيف رُكِّب؟ وليس مما رُكِّب؟ دون أن يسأل عن اختبارات المعنى التي تركز بالأساس على العلاقات القائمة بين عناصر الجمل في قواعدها الشكلية التي أوجدتها، على الطريقة التي تسمح بخلق انسجام بين عناصر الكلمة في أركانها الأسمية، الفعلية، الحرفية، في تكاملها الوظيفي المؤدي إلى المعنى المراد.

١ - تزفيتان تودوروف: الشعرية، تر: شكوي الميخوت، ورجاء بن سلامة، دار طوبقال -

المغرب ١٩٨٧ ط ١، ص ٣٩

٢ - تودوروف: الشعرية، ص ٣٣

وعلى هذا فإن اللسانيات لا تبحث في مطلق النص من حيث ماهية المعنى أو لامحدوديته، وإنما تبحث في بناء التركيبية. وأن جوهر النص هو في نظام هذه البنيات. ومن ثمة كان سؤال المقاربة النقدية ليس سؤالاً عن المعنى وإنما عن كيفية اضاءته والاستدلال عليه وفق علاقة متباينة لتحديد المعنى السياقي الذي يؤدي وظيفة الكلمة في مدلولها الاتساعي. وقد تمثلت الدراسات اللسانية في السياق اللغوي، وتموضعت ضمنه بوصفه سياقاً متماثلاً "homogène" مع النص المقروء وصار البحث في معرفة النص لا ينفصل عن سياق اللغة التي تموضع فيها. غير أنها لغة باحثة ومستقصية ومتسائلة من خلال ادراكها لنسيج العلاقات بين اللفظ وسياقه اللغوي بغية استخراج محتواه الدلالي أو ما يطلق عليه في الدراسات الالسنية بالمعنى الايماني(*) الذي يحمله باطن اللفظ.

لم تعد اللغة مجرد أداة للتوصيل في: الارسالية — الخطاب — التلقي. ولم تنحصر غايتها في هذا المبدأ، بل تجاوزته إلى غاية أسمى هي إعادة الخلق والتشكيل. وقد أسهمت النظرية التوليدية في تطور الدراسات النقدية وتطور مفهوم الخطاب بتحرر مضمونه من الاخبارية والتقريرية. ولم تعد اللغة فيه مجرد أداة وإنما صارت بحثاً معرفياً تتقاطع فيه أنظمة «دلالات» محدودة وأنظمة «مدلولات» لامحدودة من خلال تعدد مستويات النص وأنظمتها الاشارية.

(*) - لعل ابن جني هو أول من أثار التفرقة بين تصريح اللفظ وإيمائه، وذلك في باب الرد على من أدمى على العرب غنايتها بالالفاظ واغفالها المعاني والذي اعتبره من أشرف فصول العربية مستشهداً في ذلك بأبيات منكراً عنها المعنى الخارجي كما جاء في قوله:...(أطراف الأحاديث) وحيا خفيا ورمزا حلوا، ألا ترى أنه يريد بأطرافها إلى مايتعاطاه المحبون.../ ٢٢٠ الخصائص.

إن السيميائية بوصفها ميدانا تخاطبيا مجردا، لم تستكشف قواعد التحكم التي أرستها التوالدية التحويلية ونعني بذلك القدرة الكامنة "competence" والانجاز الفعلي "performance" كما صاغها شومسكي الذي يقول: «إن امتلاك لغة معينة يعني القدرة على استيعابها وإنتاج إشارة تحمل التفسير الدلالي الذي نريده»^(١) وثمة عوامل لا لغوية تتحكم بهذا الامتلاك. وهذا يعني أن اللسانياتية تحول الواقع لافصله عن مسمياته، وإنما بجعله «متصورا ذهنيا تستدعيه اللغة ليكون دليلا على ما تتضمنه، دون أن يكون بينها وبين الشيء في ذاته أي رابط من المسميات»^(٢) والواقع أن قراءة النص من منظور لسانياتي من خلال مكوناته الدلالية والتركيبية أو ما يصطلح على تسميتها بالقراءة التوليدية التحويلية هي بمثابة مقارنة للمنتوج المعطى في النص بتحويله إلى منتوج آخر محتمل على اعتبار «أن قراءة النص بهذا المفهوم هي قراءة للواقع أيضا ولكن بطريقة تحويلية يصير الواقع معها لغة تجعل القارئ يحس على أنه أثر يبحث عنه من خلال متغيرات لا تنتهي تنتجها قوانين محدودة وثابتة»^(٣) وحيث كان المسعى اللسانياتي جادا ومستقصيا، فقد أنتج تصورات من خلال محاولته ادراك المأزق اللغوي داخل الخطاب الأدبي، إلا أن محاولته هذه ركزت على مبادئ النص، أو متحكماته اللغوية [اللفظية - التركيبية - الدلالية] دون اكتناه متعمق لبناء الباطنية ودلالاته المتعددة والمحتملة وفي ذلك يرى تودوروف أن «المقاربة اللسانية تشكو من نقصين: فهي تكتفي من جهة «بالدلالة» وحدها بالمعنى الحصري للكلمة، تاركة جانبا قضايا الأحياء والاستعمال اللعبي للغة واعتماد الاستعارة، وهي من جهة أخرى لا تتجاوز حدود الجملة أبدا. والجملة عندهم هي الوحدة اللسانية الأساسية»^(٤) إلا أن ذلك لا ينقص من إرادة اللسانيات النصية أو الأدبية في

١- ينظر: فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، ص ٥٠

٢- د. منذر العياش: الخطاب الأدبي ولسانيات النص، ص ٢٥

٣- المرجع نفسه، ص ٢١.

٤- تودوروف: الشعرية، ص ٢٣

ردّ النص إلى سياقه اللغوي أو علّة ذاته للكشف عن مكوناته، والمرتبطة أساسا بالقدرة على امتلاك اللغة واستيعابها، وإنتاج محمول رمزي لتفسيرها ومرتبطة أيضا بحركية تعبيرية تتجاوز هذه اللغة وتستلهم مقدرتها من التجاذب الدلالي بين مختلف مستويات النص.

وقد أشارت اللسانيات المعاصرة إلى أن الانسجام في النصوص ليس معطى قبلياً، ولكن القراءة هي التي تثير فيه انسجامه. فالمنطق اللسانياتي في سعيه إلى العثور عن انسجام النصوص، يركز على استجابة القراء وتأويلاتهم بما تنفرد به النصوص من معطيات بإمكان القارئ أن يعيد تركيبها ذلك أن «محلل الخطاب لا يهدف إلى وضع قواعد صارمة وإنما إلى تتبع مظهر خطابي معين للوقوف على درجة تكراره، من أجل صياغة اطرائه، بمعنى أن هدفه هو الوصول إلى اطرائات وليس إلى قواعد معيارية»^(١) فليس الغرض من اللسانيات النصية هو التعرف إلى مدى قابلية هذا المنهج للمقاربة النقدية أو عدمه، وإنما الغرض هو النظر إلى هذا المنهج في ضوء الممارسات التطبيقية التي تتعامل مع الوحدات اللغوية ضمن ما تنتجه من دلالات ضمن سياق لغوي معين.

إن الإشكالية التي سعيها إلى الخوض فيها مازالت تدخل ضمن مبحث نقدي شامل يرتبط بالنص، والدلالة، والتواصل، والتلقي وتبقى مثل هذه الطروح النظرية والمعطيات المعرفية تقدم نفسها بوصفها مشروعاً لقراءة أو لمقاربة نقدية لها نظامها الذي تنسجم معه، وتحاول من خلاله معرفة جوهرية بالنص. فهل استطاع النقد العربي الحديث استبطن المدلول الغائب الذي لا يتأتى دون مطارحة الوعي النقدي لسؤالات تتوغل في البنى والانساق وتستخلص بعدها النظري الذي بإمكانه مواكبة فاعلية النص؟

١ - محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب المركز الثقافي العربي، ١٩٩١، ص ٤٩.

٢- البنيوية والنص

١- المنهج البنيوي

إذا تعين على الفكر أن يسائل نفسه باستمرار حفاظا على استمرارية وعيه لذاته، وعيه للعالم، فقد بات من الضروري دمج المعرفي بالتجريبي، وضم الوعي للفعل الذي يشارك في وجود «بنية» يتمظهر من خلالها فعل الوعي. ضمن هذا الإطار تبدو البنيوية وكأنها هي أصل الانساق اللغوية من منظور أنها تمثل المحور الرئيس لبناء النص وانغلاقه في عالم اللغة ظاهريا أو سيميائيا لينفتح على فضاء الوعي بالعالم باطنيا أو دلاليا. ويصبح مصدرا للممارسات والتساؤلات دون أن يفضي إلى دلالة ثابتة أو قصداً إذ الدلالة منزاحة ومتغيرة على الدوام. وقد ظل المنعنى النقدي الحديث متوجهاً إلى توسيع مداركه في استقراء الوجود، واستقراء الوعي بهذا الوجود بوصفه علامة على وجوده. وتحققه، وامكانه. وقد تشعب هذا الاستقراء ليشمل ميادين الفلسفة، وعلوم النفس، والاجتماع، واللسانيات المعاصرة وغيرها.

وهكذا يتحول مفهوم «البنية» إلى مدخل تأملي ويجعل من اللغة ومن النص ميدانا لانتاج الدلالة وتوليد المعنى بما يقتضيه التحليل التركيبي، والتركييب التحليلي للوحدات الداخلية المكونة لانساق اللغة بوصفها نظاما يشكل الجسد المنطقي لروح الفكر أو المنهج البنيوي(*) في تعاطيه للقواعد الباطنية للغة.

لقد جاء دوسوسير بمفهوم النظام «Systeme» حيث نظر إلى الكلمات في مجموعها الكلي المتضامن، دون امكانية فصلها عن هذا الكل الذي يشكلها. وبذلك تكون اللسانيات الحديثة قد استلهمت الرؤية السوسيرية في بلورة مفهوم «البنية» الذي ينظر إلى الكلمات أو الوحدات

(*) - الذي حل محل المنهج التاريخي

اللغوية في مجموع العلاقات التي تحددها داخل نظام اللغة. أما يلمسليف فقد أشار إلى كينونة اللغة ضمن المنشأ اللسانياتي الذي يستند «إلى فرضية تعتبر أنه من الجائز علميا أن نصف اللغة على أنها تشكل كيانا مستقلا من الارتباطات الداخلية أو بكلمة أخرى [تشكل] بنيانا، ودارسة اللغة إنما تقودنا إلى اكتشاف أجزاء ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا، ولا يمكن بالتالي تحديدها أو فهمها الا بالتنبه إلى العلاقات التي تنشئها مع بعضها» (١) فإذا كانت آراء يلمسليف تستند في وصفها ومعرفتها للغة إلى مفهوم البنيان وتعتبره مبدأ جوهريا في التواصل، وتحدد له خصائص تميزه، فإنه انعكاس ذلك على النص الأدبي لم يتعد مفهوم النظام عند دي سوسير. لذلك فقد ركزت معظم المباحث اللسانية على الثنائيات. إذ يجب على القارئ فك هذه الثنائيات التي حولت النص الابداعي إلى ميدان لتعاطي الأضداد، في حين أنه ليس بنية ثابتة، إنه يحمل في باطنه بنيات تحيل كل بنية منها إلى نمو خفي وغير معلن. وعلى هذا الأساس يكون مجال خطاب النقد في الدراسات البنيوية بمثابة لغة من لغة سابقة على لغة «الأصل» القابل للكتابة مرة أخرى في إعادة تشغيل مجريات ممارسات العملية الابداعية من ذلك أنه «ليس ثمة عمل أدبي «أول» كل أدب هو تناس Inter textuol وهكذا لا يكون لقطعة من الكتابة حدود مرسومة بوضوح: فهي تتناثر على نحو متواصل في الأعمال المنعقدة حولها، مولدة مئات المنظورات المختلفة التي تتضاءل إلى حد التلاشي. كما لا يمكن اغلاق العمل أو تحديده، باللجوء إلى المؤلف، ذلك أن «موت المؤلف» هو صيحة الحرب التي يمكن للنقد الحديث أن يطلقها الآن بثقه» (٢)

١ - ينظر: انطوان الصياح: تطور مفهوم البنيان في اللسانية الحديثة مجلة الفكر العربي المعاصر ع ٢٥ سنة ١٩٨٢ ص ٢٧

٢ - تيري ايفلقون: مابعد البنيوية في النظرة الأدبية، تر: ثائر ديب مجلة الموقف الأدبي ع ١٨١ / ١٩٩٤ ص ١٦٤

غير أن السؤال الجوهرى يكمن - في تصورنا - في مفهوم البنية من حيث هي معنى قائما بذاته في الوعي وفصله عن الشيء المتجسد في الواقع، وكذلك البنية بوصفها كيانا ثابتا، أو كيانا متحركا. ولن ننزع في ذلك إلى المنشأ اللسانياتي « فلم تعد البنية في نظر غولدمان ثابتة كما يفهم من التزامن، أو مطلقة بل هي نسبية تتأثر بالتاريخ متحركة باتجاه التقدم»^(١).

ولعل غولدمان - في هذا - يتأثر بدوي سوسير الذي انتقد بشدة «التقليد اللغوي السائد في عصره، كما لفت الانتباه إلى التفرقة بين «التزامن» أو «التوافق» Synchronie من جهة، وبين «التطور» أو «التعاقب» Diachronie من جهة أخرى. وعلى حين أن وجهة النظر «التزامنية» تمثل محورا أفقيا تقوم فيه العلاقات بين «الأشياء المتواجدة» (أو «المتعاقبة») على أساس ثابت ليس للزمان فيه أي مدخل، نجد أن وجهة النظر «التعاقبية» تمثل محورا رأسيا تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتتابة على أساس التغير الزمني أو التاريخي. ومعنى هذا أن وجهة النظر الأولى - فيما يتعلق بعلوم اللسان - هي وجهة نظر وصفية تقتصر على النظر إلى «حالات» اللغة. في حين أن وجهة النظر الثانية هي وجهة نظر تاريخية تحرص على وصف تطور اللغات»^(٢) لقد وسمت هذه التفرقة التطور اللغوي بسمات تكاد تكون محايدة لباطن اللغة حينما اقترنت وجهة النظر الوصفية بحالات اللغة، على أساس من ارتباطها بمحمولها وليس بما تحيل إليه. واعتبرت وجهة النظر التعاقبية منظورا تقليديا حرص على تفسير اللغة وفق أبعادها التاريخية فاقتربت من المكرور والسائد. وقد أمكن للغة - في الحالة الأولى - أن تكون بنية رمزية وذهنية، لعل هذا، وإلى حد بعيد هو السبب في اكتراث توجهات غولدمان

١ - إبراهيم السعافين: اشكالية القارئ في النقد الألسني / الفكر العربي المعاصر، ع ٢٠ / ٦١

سنة ١٩٨٩ ص ٢٩

٢ - د / إبراهيم زكريا: مشكلة البنية محبة مصر ص ٥٢ / ٢٥

الذي اعتمد البنية من وجهة نظر التعاقب التي تحرص على نمو اللغة وتطورها ضمن دوران حركتها المستمرة عبر التاريخ على اعتبار أنها ليست اطارا جامدا لا يتغير وإنما هي على قدر كبير من الحركية الدائمة والتي لا يمكن النظر إليها من خلال الدراسة التوالدية.

إن استكشاف البنية المسؤولة عن العمل في وظيفتها، يقتضي احتمال امكانات تأويلية، عبر عناصر تحولاتها في دلالاتها المتماثلة، ومن ثمة فهي ضمنية؛ إنها في صميم الأثر ولذلك فإن هدف النقد البنيوي هو البحث عن البنية في النص «وحتى وإن اعتبرت البنى فاشلة في الامام بالموضوعات فهي تتضمن في الواقع ترسيمة ذهنية، تدل في علائق الأفراد على نموذج للكيفية التي عليها الأشياء وما يجب أن تكونه وفقا لترتيب منطقي»^(١) ولا يعني ذلك خضوعها لنظام ثابت أو مستقر بقدر ماهي متحولة وشمولية.

ان النص هو نتاج ذات، وهو أيضا نتاج علائق، ويولد ضمن ظروف وأزمنة معينة. والسؤال الذي يثيره النقد الحديث هو: «كيف يمكن فهم بنية النص بمعزل عن شروط انتاجه وكيف يمكن أن نخضع هذا الانتاج الفردي لنظام شامل يخضع لبنيات جماعية سابقة وثابتة ولازمانية»^(٢) فمثل هذا السؤال لا يثير فقط المعنى المتغير للبنية، ولكنه يشير كذلك إلى سقوط البنيوية في نوع من القراءة المغلقة دون أن تستطيع النفاذ إلى الأثر، أو تجد له تأويلات، حتى وإن شهدت في حركاتها ميلا إلى أفق القراءة فإنها ظلت مرتبطة بما يمليه عليها النص من دلالات «حيث تقتصر وظيفة القراءة على فك رموز النص دون الاسهام بفعالية في انتاج النص أو الدلالة»^(٣) اعتقادا منها أن النص بنية لغوية يمتلك شفراته ودلالاته في

١ - سنييد علوش: نقد البنيوية الفرنسية من كلود ليفي شتراوس إلى ما بعد البنيوية الفكر العربي المعاصر / ع ٤٠١ سنة ١٩٨٦ ص ٥٦.

٢ - ينظر: ابراهيم السعافين: اشكالية القارئ في النقد الالسنبي، ص ٢٩

٣ - فاضل تامر: من سلطة النص إلى سلطة القراءة / الفكر العربي المعاصر ع ٤٩ / ٤٨ سنة ١٩٨٨، ص ٩٩.

ذاته، ومعناه متضمن فيه، وفاعلية فهمه وتأويليه تابعة من نظامه الداخلي وتابعة له. ولذا «فقد كانت البنيوية تبدأ دائماً من النص وتنتهي به وكأنه غاية نهائية بحد ذاته»^(١) دون أي اعتبار لمختلف العناصر الأخرى التي بإمكانها أن تمد الناقد ببعض المفاتيح والأدوات القرائية الفاجعة. ولعل ذلك ما يبرر نزوعها العلمي المؤسس على الانتروبولوجيا واللسانيات. كونها لا تبحث في العلية، ولكنها تبحث في الكيفية. إذ ما يهمها هو كيف يمكن لعدد من التراكيب والبنى أن يؤدي إلى معنى وشكل. إنها «تبين لماذا تمتلك هذه السلسلة الشكل والمعنى اللذين نجدتهما فيها وذلك عن طريق إيجاد علاقة بين هذه السلسلة ونظام اللغة... فيحاول المرء أن يبين لماذا يملك حدث معين مغزى معيناً عن طريق ربطه بنظام الوظائف والمعايير والأصناف التي يعتمد عليها الحدث وتجعله ممكناً»^(٢) كما أنها تنظر إلى الأثر الأدبي بوصفه نظاماً وعلى الناقد أن يقف عند القوانين التي تحكم هذا الأثر. فلم تعد مهمة الناقد المعاصر هي الكشف عن مراتب الغموض، ومظاهر التعقيد وحسب، وإنما الكشف عن القانون، أو النظام الذي يكتنف المعنى داخل العمل الفني واستيعابه. ولأن المعنى منفلت من الذات ومن الوعي بالموضوع فإن خلاصه يكمن في نظامه اللغوي الذي يتضمنه ونقصد بذلك ميداناً يهتم بوصف القواعد والنظم التي تبسّط إليها النصوص المختلفة «فالمعنى ضمن إطار الاتصال الذي يزعمه البنيويون، إنما هو معنى بالقدر الذي يجسم في شفرة»^(٣) قد لا تتخذ أكثر من إمكان تأويلي، وبعد دلالي لأنها خاضعة في جوهرها لنظام اللغة غير الأدائية. وتبعاً لذلك فإنه يشترط في الدارس تحديد تحليلاته ومقارباته بمجموع تلك الشفرات «ولما كانت مثل هذه الشفرات لا يمكن أن تكون فريدة تخص نصاً واحداً، فإن هذا الميدان لا بد أن يتخذ شكل صناعة فنية - أي وصف عام للطرق التي تصنع بها المعنى

١ - المرجع نفسه، ص ٩٠.

٢ - ينظر: وليام راي: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يؤيل يوسف مزيز، دار المأمون، ص ١٢٦.

٣ - وليام راي: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ص ١٢٦.

أعمال أدبية من ضروب مختلفة وليس شكل تفسير للنصوص»^(١) ذلك أن بنية المعنى لا تخضع للتفسير الوصفي، لطبيعتها الذهنية ولكونها بنية محتملة وغير ثابتة.

لقد أفرز التفكير البنيوي أولى تويات الوعي المغاير، المنسجم مع تحولات العصر، وأدى إلى فطر العلاقة التقليدية، وتدميرها بين الأشياء والمسميات، وبين المواضيع والتصورات. ومن شدة راح النقد في حقل الدراسات الأدبية يعلن ثورته على الأحكام النقدية التقويمية. ولعل مرد ذلك يعود إلى جوهر النقد الكامن في رفضه لمبدأ العلية الجمالية. بل واستبعد كل جمالية ابداعية ينسجها التناغمي في تداعيات الوجدان وعلاقته بالجانب النفسي، والمجتمعي لعدم اكتراثه بالكليات التي يرمز إليها المعنى. ويتجلى ذلك من خلال طموح البنيوية في اختلافها «عن النقد الجمالي في أنها تحاول أن تتجاوز تشخيص ما يمكن للمرء أن يختبره في قراءة النتاج الأدبي إلى شرح كيف يمكن للمرء أن يستقي من النصوص المعاني التي يستقيها»^(٢)

لقد أدت هذه الرؤى على اختلافها إلى تجاوز النقد المعيارى القديم من خلال:

- علمانية الخطاب النقدي.
- التوصل إلى مفاهيم نظرية وافتراضات لم يتوصل إليها النقد القديم.
- تطور الفكر النقدي، وتبني مبادئ العلم التطبيقي.
- وصل النقد بفلسفة العقل التجريبي.

١ - المرجع نفسه، ص ١٢٧

٢ - المرجع السابق، ص ١٢٦

لذلك، فإننا إذا نظرنا إلى هذه الموصفات وتنويعاتها في حقل الدراسات النقدية، نلاحظ أنها حولت الخطاب الأدبي إلى نسق، أو بنية لغوية لاتجد تفسيراتها أو مسوغاتها التأويلية خارج ذاتها. وأصبح معها النص علامة مادية «من حيث هو نمط بنيوي له نظامه أو نسقه الخاص. وهذا يعني أن تحليل لغة الأثر يجعل من النزعة البنيوية أساسا لدراسة الأثر، ويفسر مجال النقد تفسيراً لغوياً شكلياً ويجعل أخيراً الأثر مجرد عمل لغوي محض، ليس له من حياة خارج عالم اللغة»^(١).

إن تغيب المضمون أو المحتوى "Le contenu" في النقد البنيوي هو ناتج عن فصل الدال عن المدلول، أو بعبارة أدق يكون المعنى هامشياً أو مؤجلاً بوصفه لا يوفر مجالا لفعل علمي يتأسس على قواعد، ويخضع لأنظمة المقاربة اللغوية، ولعل هذا ما أوقع البنيوية في دائرة الاهتمام بالاجراء في قوانينه الصارمة، حيث تكمن مهمة القارئ أو الناقد في السعي إلى الكشف عن أنساق البنية النصية داخل النص لاغير.

وعلى الرغم من ذلك فقد كشفت البنيوية عن وعي عميق في تقصي مظاهر تشكل الخطاب بوصفه نسقاً بنيوياً محدداً ومهمة القارئ هي تحليل شفراته الداخلية بما تمليه عليه قوانين النص دون أن يضيف شيئاً من عنده. وقد فطن جرار جنيت إلى تغيب المعنى واستغلاق النص باعتباره بنية ثابتة ونهائية تحددها أنظمة مسبقة. أما شولز فقد أشار إلى ضرورة البحث في مستويات أخرى من الأنظمة واخضاع عملية التحليل النصي لها.

١ - مصطفى الكيلاني: وجود النص الأدبي/ نص الوجود: الفكر العربي المعاصر، ع ٥٤ - ٥٥ ،

١٩٨٨ ص ١٨

ب - البنيوية والنقد العربي

ان السؤال الذي يتبادر إلينا الآن: هو كيف استلهم النقد العربي هذا التنوع الهائل الذي اكتشف المنهج البنيوي؟ وان كنا لاندعي اجابة شاملة عن تساؤل يضم حقلا معرفياً ومبحثاً إبستمولوجيا بكامله ولكننا نسعى إلى الاشارة إلى مزيد من التساؤلات بغية استكناه الظاهرة النصية في قيمتها المطلقة المنسجمة الحضور في شكل الأثر بما يحتويه من عناصر داخلية بعيداً عن اللسان الوظيفي الذي يؤويه المحتوى إلا ما ندر.

إن اضطراب الوعي النظري الذي شاع بين دارسينا أساسه اختلاف في درجات التلقي، وتباين في اكتساب المعرفة. بخاصة عندما اصطدم الفكر العربي بالحضارة المعاصرة المفتحة على قوانين الانفكاك والانبثاق، والإنتاج والتكوين. ولم يعد لمسلمات ثنائية: الماهية والجوهر / والباطن والظاهر / - مثلاً - التأثير نفسه على بنية الفكر الحديث الذي بات ينطلق من واقع التجربة والوعي الموضوعي للوصول إلى تفسير يبرر العلاقات بين الأشياء والمسلمات.

ضمن هذه المعطيات التي تتجه صوب النشاط الفردي والجماعي، كان لزاماً على العقل أن يهيئ نفسه لما سوف تجيء به التنبؤات النظرية. ولعل ما جاء به كلود ليفي ستراوس بخصوص مبادئ البنيوية يمثل أحد أهم هذه التوقعات بخاصة حينما يرى أنه في إمكان البنيوية أن تقدم للعلوم الإنسانية نموذجاً إبستمولوجياً ذا قوة لا يضاهيها ما كان لديها قبل ذلك من مناهج، فهي تكشف في الحقيقة وراء الأشياء، وحدة واتساقاً لا يمكن أن يظهره الاقتصار على وصف الوقائع» (١)

١ - ينظر: الطاهر وعزيز: بنيوية كلود ليفي ستراوس، دار الكلام، ١٩٩٠، ص ٣٤

وعلى اعتبار أن الأدب ظاهرة اجتماعية وفنية. فقد حظي باهتمام مبكر من لدن البنيويين، وحينئذ فقد لجأ النقاد إلى هذا المنهج فأخضعوا له النصوص دون أن يدركوا حجم اللامتغير الذي لا يمكن القبض عليه في بنى النص العميقة.

ومن الواضح أن - بعض - التفكير العربي الحديث لم يتوقف عند إنجازات النقد البنيوي بل استفاد من إسهامات التراث العربي في توجيه الرؤية النقدية نحو الاستقراء، والفهم، والاستنتاج دون أن يبقى رهين التلقي لما تزخر به المفاهيم الغربية.

ويمكننا أن نحيل - في هذا الشأن - إلى الوعي المبكر للنظرية الجاحظية التي أبدت تصورا يخالف ما كان سائدا في مجال الدراسات النقدية. وقد أتاحت هذه النظرية للتفكير الحديث في ميدان نقد الشعر العربي إمكانية الولوج إلى معنى مغاير لمفهوم الشعر المتمثل في «إقامة الوزن، وتخفيف اللفظ، وسهولة المخرج، و[كثرة الماء] وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير» (١)

لقد كان للجاحظ فضل السبق في ربط العلاقة بين المدركات الحسية والمدركات المعنوية للنص، ومن ثمة يمكن اعتبار رؤيته هذه بمثابة المقدمة الأولى لمستوى التنظير من حيث كون «الشعر بنية قائمة على ملاحظة اللغة الفنية المستخدمة في النص، والحركة التي تتحكم في هذه اللغة فتقضي بها إلى نحو غايتها، ثم على نظام العلاقة الحميمية التي تربط هذه الشبكة من المظاهر الخارجية والداخلية معا للنص، ثم على الرؤية الفنية التي يطرحها هذا النص الشعري» (٢)

١ - الجاحظ: الحيوان، ج ٣ دار الكتاب العربي، ص ١٣١ - ١٣٢.

٢ - عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، دار الحديث، ط ١، ١٩٨٦ ص ٧

وإذا كانت البنيوية قد ركزت على إبراز التقابلات بوصفها عاملا جوهريا في الكشف عن العلاقات التي تشكل البنية الدلالية للنص فإن مثل هذه التقابلات الثنائية.. لاتستقطب كل امكانات النص الياحائية، ذلك أنها توظف مجموعة من العلاقات مثل علاقات التشابه والتقارب، والتقابل والتضاد وغيرها؛ غير أن تقدم الوعي النظري لدى كمال أبو ديب مكنه من اغناء رؤيته بتصوير يتجاوز الحدود الظاهرية لهذه الثنائيات إلى مستوى تفكيك جزئياتها وبذلك فهو لايتعامل مع هذه الثنائيات في مظهرها الخارجي، وإنما يدعو إلى اكتناه عمقها الدلالي لتندمج في صورتها الكلية.

ومن ثمة فإن الصيرورة الثنائية في قصيدة تميم بن مقبل، والتي مطلعها:

وما الدهر الا تارتان، فمعهما
أموت، وأخرى أبتغي العيش أكدح
وكلتاها قد خط لي في صحيفتي
فللعيش أشهى لي، وللموت أروح
إذا مت فانعيني بما أنا أهله
وذمي الحياة - كل عيش مترح

فإن هذه الثنائية بحسب رأي كمال أبوديب - التي تناولها بالدراسة التطبيقية - توحى إلى تقاطع الموت والحياة «ولعل طغيان التركيب الثنائي أن يتجلى إلى درجة مدهشة في أن اللغة التي يفترض أنها تدل على واحد تتخذ في الواقع صيغة اثنين» (١). بذلك فإن المفتاح السيميائي لهذه التركيبية الثنائية ينم في حقيقة الأمر عن اتحاد تكاملي لرمزي الموت والحياة من حيث كون الأول أصل للثاني، والثاني امتداد للأول.

١ - كمال أبوديب: جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، ط

١٩٨١، ص ٦٨

لقد تعمق الناقد البعد الجوهري للثنائيات التقابلية، ولم يقتصر على الحمولة النفسية والانطولوجية، وإنما ذهب إلى المزج بين الدلالة الفيزيائية للأشياء وما يقابلها من دلالات موحية ولعلنا نجد مثالا لذلك في:

الدلالة الانتشارية لنضوء مقابل الدلالة الانحصارية للظلام

النضوء ————— دلالة مفتوحة

الظلام ————— دلالة مغلقة

لقد شكلت ثنائيات المطلق المفتوح، المكبوت المكشوف حالات تعبيرية ووجدانية وانفعالية تصل الصورة بمعناها في حركية استبطانية لاتعتمد المفردة في حالاتها المعبرة وإنما تسايرها في وجودها الدال. وقد ينطوي التحليل البنيوي الذي اعتنقه أبوديب على دمج المستوى البصري للصورة بالمستوى التأملي، وعلى تفاعلات مستوياتها النفسية والوجودية في استثمار العلاقات التقابلية التي تنشأ عن تقاطع الانساق مع الصور الشعرية.

ان المتتبع للنقد العربي الحديث يدرك جليا تأثر الدارسين بالنظرية في جميع مظاهرها واتجاهاتها المختلفة، ويتجلى هذا بوضوح في غلبة الاطار الشكلي دونما اهتمام بالغ الأثر بالبنائية التوليديّة (1) والنفسية (2) ولعل خير من توافر فيه قيمة تجلى هذا الأثر الشكلي في معرفة المفاهيم النصية: الباحثة: يمنى العيد(*) التي حارلت تطويع هذا المنهج في استلهاها العلاقات الثنائية، واستيعاب فكرة التقابلات الضدية، ورصدها بحسب تراكيبها الرمزية، مركزة في هذا المجال على مقدرة النص في علاقته اللغوية، وهي علاقة تجاذب تكتنفها المتعة النصية، أو اللذة التي تحرك بنية الانساق والعلامات.

١ - يتزعمها لوسيان غولدمان.

٢ - جاك لاكان.

(*) - حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد) في كتابها: في معرفة النص: منشورات دار

الآفاق الجديدة ط ١، ١٩٨٢

ان احتضان الناقدة رؤية طموحة، دفعتها إلى امتحان مقدوراتها التحليلية، بحيث نلاحظ ذلك المزج بين رؤيا العالم ورؤيا الذات من خلال محاولتها تفجير النواة الرحمية التي يتجمع حولها نسيج النص المتشكل من علاقات ضدية تقابلية، ويظهر هذا الجهد بخاصة في تحليل قصيدة «تحت جدارية فائق حسن» لسعدي يوسف. بحيث تبدو بنية النص ثنائية التركيب على مستوى الفعل [تطير، تتبع] وعلى مستوى الفاعل [الحمامات، البنادق] وتصف الباحثة هذه العلاقة (بالتناقض التناحري) أو العلاقة الصدامية التي تشكل «الحد الذي يلتقي عنده عالم الحركتين، فينتج هذا الالتقاء صداما، وتنمو الحركة. وهي المحور الذي تتبين فيه عناصر القصيدة فتنهض ببنيتها وتتكامل»^(١) نلاحظ من خلال ذلك تعثر الباحثة في سلسلة من التقابلات الضدية في اشتغالها على مستوى التركيب اللغوي الذي يشكل الأساس الرئيس لبنية النص التي تقترحها الباحثة. ويظهر هذا التعثر بخاصة في رصدتها للتناقض بين فعل «الطيران» وفاعل «البنادق»، وهي «بذلك تقرأ النص في كل مرة على مستوى مختلف عن الآخر، الأول مجازي (أو تضمني) والثاني حقيقي (أو تعييني)^(٢).

ومن خلال تكريسها للفعالية البنيوية تسعى برفع اللغة إلى حالة الخلق والابتكار على اعتبار أنها نسق من العلامات، أي أنها تضعها ضمن حضور مزدوج بين فعالية جمالية من جهة وبين ردها إلى الحيّز السوسيرلوجي كأداة منتجة للفكر، وهي بذلك تجعل من اللغة حضورا ملموسا بالنظر إليه في الواقع، وفي شتات الذاكرة، وحضورا استيطيقيّ في المتصور الذهني - الجمالي للمخيلة^(٣) غير أن اللغة سيرورة لا متناهية، من حيث كونها تنتمي إلى حيّز الحقل السيميائي في أنظمتها

١ - المرجع السابق، ص ١٥٩.

٢ - سامي سويدان: حوار منهجي في النص والتناص في الممارسة والتطبيق الفكر العربي

المعاصر ع ٩٦ / ٦١، سنة ١٩٨٩ من ٥٤

٣ - ينظر: في معرفة النص، ص ١٥٨

الرمزية مع الإشارة إلى أنه لا ينبغي « أن ننسى أن « اللغويات » هي عميدة العلوم السيميولوجية جميعا لأن « اللغة » بين سائر أنظمتها و« أنسقة » العلامات هي - بطبيعة الحال - أكثرها شمولاً وأشد تعقيداً»^(١).

وإذا كانت مختلف المقاربات البنيوية لم تنحرف عن المظاهر اللغوية التي تختزل النصوص إلى مكوناتها وأنساقها [الدألية] التي لا توجد خارج النص، فإن للنص أيضاً حضوراً رمزياً أو ترميزياً [علاقات غيابية] أو دلالية، وأخرى [علامات حضورية] أو عيانية. ولذلك فإن التحليل الذي تقترحه هذه الباحثة يفيد من هذه العلاقات في استحضار المتصور الذهني الغائب أو مدلول المدلول، على اعتبار أن العلاقات الحضورية تجسيد للمدلول الأول، بينما تبقى العلاقات الغيابية تجسيدا للمدلول الثاني. ويظهر ذلك من خلال تعليقها على هذا المقطع بخاصة الجملة الشعرية الأولى:

تطير الحمامات في ساحة الطيران، ارتفعنا معا...
في سماء الحمام، قلنا لسعف التخييل وللسنبل الرطب
هذا أوان الدموع التي تضحك الشمس فيها، وهذا
أوان الرحيل إلى المدن الفاضلة.

فاعتبرت « أن قدرة هذه العبارة على الترميز قائمة في غياب هذا الترميز وفي حضور القصيدة ككل. توهم هذه العبارة ببساطتها، بالتصاقها بواقعها، بمدلولها الذي تحمل، حتى الشفافية والالتباس، ولكنها في حضورها في القصيدة تشي بمخزونها، وتفضح بساطتها»^(٢) غير أن هذا الغياب كدلالة على حضور لمعنى خفي هو في الحقيقة ضرورة تولد مع

١ - د/ زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ص ٥٠.

٢ - يعنى العيد: في معرفة النص، ص ١٤٨

النص وتكشف عنها القراءة. بيد أن «غيابه الذي هو ضرورة الشعر، هو أيضا ضرورة الفعالية النقدية إلا إذا فهمنا بالنقد وصفا سطحيا يكرر النص» (١)

وعلى الرغم من أن المحاولات النقدية الأولى كانت تجريبية، إلا أنها تجاوزت الموروث اللغوي إلى نسيج النص وبناء وشبكات علاقاته الداخلية ومايختلج فيها من تراكيب ودلالات. ومن ضمن هذه الاسهامات تلك المقاربة التحليلية التي تبني من خلالها النقد العربي الحديث مبادئ النقد الجذري الموضوعاتي، مستلهما بذلك آراء بيار ريشار في تحليل النصوص، وقد كانت ارادة الباحث عبد الكريم حسن تتمثل في الانتقال بالنص من مستوى الظهور [تظهر اللفظ أو الدال] إلى مستوى الكشف [اكتشاف الدلالة] على أن الدلالة متغيرة، والمعنى متعدد أو متضمن، إنما القصد هو استكشاف هذا التغير داخل الدلالة، وهذا التعدد ضمن المعنى «ويصبح التحليل في هذه الحالة بحثا عن فيض المعنى La connotation» (٢) من خلال ملاحقة هذه التعددية في المعنى ذاته.

لقد كانت نية النقد العربي الحديث هي إعادة الابداع إلى درجة الصفر من خلال هدم العلاقات المألوفة، وتأسيس علاقات جديدة ومبتكرة، ونلمس ذلك عند عبد الكريم حسن عبر منحاه الموضوعاتي الذي أراد من خلاله اظهار الموضوع الرئيس كخطوة أولى. أي فرز الدلالات الأساسية والفرعية وفق مستويين: مستوى شكلي [يبحث في البنية التي تتشابك فيها الموضوعات الشعرية] ومستوى موضوعي [بمعنى البحث في الموضوع] ثم تلي الخطوة الثانية التي تشمل النص بالتحليل.

١ - المرجع نفسه، ص ١٤٤

٢ - د/ عبد الكريم حسن: دراسة في شعر السياب (الموضوعية البنيوية) الفكر العربي المعاصر، ع ١٨/١٩، ١٩٨٢، ص ١٩٩

لقد فصل النقد الجذري بين الفكرة الرئيسة والجذر، ويتجلى ذلك من خلال قول بيار ريشارد: «والنص في لعبته اللغوية والأسلوبية والفكرية حصيلة توالدات على مستوى مقومات الكتابة الأولية، من هنا يجب التفريق في قاموس النقد الجذري بين الفكرة الرئيسة والجذر» (١) غير أن عبد الكريم حسن يقفز على هذا التمييز ليحدد موضوعه الرئيسي من خلال رصد المفردات بعد عملية الإحصاء [إحصاء الألفاظ] لاستخراج [المعجم اللفظي]. وفي اعتقاده أن الموضوع الرئيسي هو الذي يحدد بنية الموضوعات الأخرى شكليا ومعنويا Fomellement et Semantiquement (٢) وهكذا بدت قصائد السياب دالة بمفرداتها، وما يتوالد عن هذه المفردات من دلالات هي تنويعات على الموضوع الرئيسي أو النواه الرحمية للنص.

وإذا كانت الأسلوبية لا تخلو من الإحصاء الذي يسهم في إبراز الدلالة الكلية للنصوص، فإن البنيوية الموضوعية هي أيضا تتخذ من الإحصاء عملية إجرائية تقود إلى الموضوع الرئيسي كما يسميه النقد الجذري، وتتفرع من هذا الموضوع نوعية العلاقات التقابلية بحيث تحدد طبيعة نموها جملة الاشتقاقات والتكرارات التي يتعقبها المحلل بوصفها مجالا خصبا لاختباءات المعنى.

ويشتمل التحليل البنيوي الموضوعي إضافة إلى المفردات المكرورة كل المشتقات الدلالية وصيغها الفعلية والأسمية، ومترادفاتها وما يمكن أن يطابقها في المعنى أو الوظيفة.

١ - ينظر: فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، ص ١٨٩.

٢ - ينظر: عبد الكريم حسن: الموضوعية البنيوية والفكر العربي المعاصر، ص ٢٠١.

ولا يمكن أن نأتي على كل التحليلات التطبيقية التي أجراها عبد الكريم حسن على شعر السيّاب(*) وإنما نكتفي بما يمكن أن يكفل لنا جملة من تصورات النقدية حول هذا المنهج من ذلك استكشاف العلاقات الداخلية لأعماق النص التي لا تتم من خلال رصد مجموعة من المفردات وتجميعها في جداول، وإنما في مساءلة مضمونها الذي يتميز بالتعددية والانتشار. ومن ثمة فإن القبض على الموضوع الرئيسي لا يتم من خلال تجميع عائلته اللغوية وحسب وإنما في تفكيك شبكات تعالقاته بتحليل هذه المفردات.

وهكذا فإن عمق التقابلات الثنائية أو العلاقات التقابلية يتلخص في كون البنية الجمالية لشعر السيّاب تتمثل في جدلية الموت والحياة. وقد انصبّت معظم الجهود النقدية التي تناولت هذا الشاعر حول هذه التركيبة في محاولة إعطائها تفسيرات رؤيوية وأسطورية ارتبطت في كثير من القراءات بأسطورة الموت والانبعاث.

وإذا كان عبد الكريم حسن قد اتخذ من البنيوية الموضوعية منهجا لقراءة السيّاب من خلال ما تتوافر عليه النصوص من مفردات تعبر عن الشكل الدرامي لبنية الوعي السياحي، فإن طبيعة هذه الروية استطاعت أن تزود النص بمفاتيح سيميائية توغل به في بؤيات دلالية متنوعة.

من هنا يمكن استنتاج رأي الناقد من حيث كونه حاول أن يستخلص من سياق النص العام رؤية الشاعر التأملية دون التورط في الوهم السيكلوجي الذي يبعده عن الاطار الطبيعي لرؤيا الشاعر.

(*) - ينظر: عبد الكريم حسن: الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السيّاب، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط ١، ١٩٨٣

ما يمكن استخلاصه بعد هذا العرض المركز للبنوية في النقد العربي والذي لامناص لدراستنا من الخوض فيه ولو في بعض جزئياته هو أن:
- معظم الدراسات اللسانية البنوية منها والتوليديّة والموضوعاتية ركزت على التعدد المعجمي - المفرداتي وانساق وراء البنى اللغوية في علاقاتها التركيبية.

- تصور النص بنية لغوية جاهزة، وحلول القارئ فيه مرهون بما تمليه هذه البنية من دلالات.

ومثل هذا الموقف يجعلنا نتجاوز بعض الجزئيات إلى ما هو أهم على مستوى الوعي النقدي المعاصر وفق ماتمليه المعرفة التحليلية على الرغم من الاختلاف الحاصل في مضمون الأدوات المفهومية الموجهة لهذا الوعي كالفهم، والتأويل والتفكيك.

إن المعنى الذي يتشكل ضمن سلسلة الأدلة المتشابكة لا يمكن القبض عليه بمعزل عن حركية التبادل التائري فيما بينها بحيث لا يمكن لأي سلسلة كلامية لاحقة أو سابقة أن تظهر بمنأى عن هذه الحركية. وهذا ما يعكس الوضعيات المختلفة المصاغة للأدلة بالاضافة إلى كونها ترد في سياقات مختلفة. لذلك فإن النص / الدال لا يتطابق مع ذاته، ولا مع السياق الذي يرد فيه. إنه حاصل توالدات وتعالقات.

ج- بنية التقابل الدلالي

تكمن شعرية اللغة في كونها نظاما من الدلالات تخضع لتبنيين علاقاتها الداخلية، ونسق تشكلها وفق ما يمليه عليها هذا النظام. وتلك خاصية اللسان بوصفه نظاما سيمائيا خلافا يكتنه صورا من التشاكلات والتباينات، وفي هذه الحال يعد الخطاب الشعري تجسيذا جماليا لهذه التعارضات لما تحدثه من تناغم، وماتفضي إليه من دلالات بحيث «يخضع المعنى دائما لعلاقة لا تحتفظ من شيئين إلا على فرقهما» (١)

١ - ينظر: رولان بارت: مبادئ في علم الأدلة، تر: محمد البكري دار قرطبة المغرب / ١٩٨٦

إن سؤال التقابل الدلالي سواء من حيث ازدواجية الصوت، أو المفردة، أو المعنى، أو من حيث التعارضات الجمالية أو السياقية يعد من البديهيات السيمائية القائمة على نظام علائقي بحيث يجب على ألفاظ الحقل (أو الجدول) أن تتشابه وأن تتباين في الوقت ذاته؛ أي أن تحتوي على عنصر مشترك وآخر متغير»^(١) وقياساً على ذلك النص يعد ميداناً لتقابلات دلالية ذات بعد توزيعي لمفرداته سواء بقصد أم بغير قصد. أما طبيعة التعارضات الدلالية فإنها تتخذ صفتها من خلال علاقتها بالنص كله. وهي متنوعة ومتعددة، فهناك التعارضات ذات الوجهين والمتعددة الأوجه، والتناسبية والمعزولة «أما التعارضات التي ليست بتناسبية فهي معزولة وهذا النوع هو الأغلب والأكثر عدداً. وفي علم الدلالة نجد أن التعارضات النحوية (الصرفية) تعارضات تناسبية، وأما التعارضات المفرداتية فهي معزولة»^(٢) ذلك أنها لاترصد التقابلات الضدية في مستواها الضدي وإنما تؤزلها في مستواها الدلالي على اعتبار أن قراءة الدال بنقيضه يعد مجالا استقرائيا يتمتع بثراء تطبيقي من حيث تأويل النص / العلامة.

من المحتمل أن سيميائية التقابل لاتقارب النص من خلال تتبع جزئياته، وإنما هي تبحث في تقابل حركاته وعلاقاته، ومن ثمة فهي سعي دائم إلى توسع مجال القراءة الدلالي. وفي هذا الشأن تكمن قدرة دزيرة سقال في تقصي فضاءات الدليل، الأمر الذي مكنه من اكتشافه وتعديته، وهذا دلالة على أن الناقد يمتلك الاداة والمنهج، ويتمتع بوعي نقدي يمكنه من متابعة فحصه الدلالي لمحتوى النص.

١ - المرجع السابق، ص ١١٢.

٢ - المرجع السابق، ص ١١٧.

ولعل لجوءه إلى سيميائية بنيوية لا تتعامل مع النص في معطاه الظاهري، وتتوغل في عمقه الباطني جعله يبتعد عن تجميع كومة من الرموز والألفاظ لينسب إليها معنى النص ودلالته، بل تجده يتعمق هذه الرموز فيعيد تفكيكها، في إطار علاقاتها التي تقيمها مع موضوعها. إما بوصفها نظائر دلالية، وإما بوصفها قرائن سيميائية.

وإذا كان الناقد قد سلك - في تحليله لقصيدة السياب أنشودة المطر - مبدأ الثنائية الضدية، فذلك لأن طبيعة النص أو بالأحرى بنية النص هي التي أوحى بهذه الصيغة بما أفرزته من ثنائيات تكاملية لا يمكن فصلها، أو إقصاؤها، لأنها تشكل الإطار العام الذي يتمحور حوله الدليل.

وتتنوع هذه العلاقات السببية (المرأة / الطبيعة) (الطبيعة / الأنثى)، (الطبيعة / المطر)، (الأم / الطفل) وبين العلاقات الجدلية (الذكر / الأنثى)، (الخصب / العقم)، (الموت / الانبعاث) «وهذه المجموعة من العلاقات هي التي تشكل الأبعاد في فضاء النص وهي التي تطرح لنا مفاصل (الدليل)»^(١) وبذلك فإن قراءة النص في مستوى هذه العلاقات الثنائية التقابلية هو استكشاف لجوهر الدليل، ومن ثمة اظهاره، ووصفه في صورة مدركة للتلقي تستكمل أبعادها في البنية الكلية التي تشكل فضاء الدليل.

ان محاور التقاطع في النص - بحسب تصور الذ - هو الصراع الذي يجتذب قوى التناقض، ليجعل من التقابل الدلالي ميدانا لانتاج الدلالة، ومن ثمة يمكن تتبع حركية النص من خلال التقابلات بين العلاقات التي تقيمها الصور، والألفاظ، والايقاعات «فالدلالة مشتركة أحيانا في أكثر من رمز بحيث يمكن اختصار الصراع في تصارع الحياة والموت، لكي تنتم في نهاية القصيدة غلبة الحياة. وهذا التجمع الرمزي والخصوصية

١ - ديزيرة سقال: المعنى والفضاء محاولة جديدة لقراءة أنشودة المطر مجلة كتابات معاصرة، سنة ١٩٩١/ ٩٤، ص ٣٤

الدلالية يفرضان قراءة خاصة لمعجم القصيدة وتحديد ذاكرة الكلمات فيها وانحرافاتهما^(١) فالملحوظ إذن، هو أن الناقد لا يضع الألفاظ مقابل الألفاظ وإنما يشتق منها دلالاتها التي وضعت لها. ليتخذ التقابل عمقه الدلالي فيما يرتبط سيميولوجيا بتحويلات المعنى الجدلي، والتركيب الثنائي لقضاء الدليل.

إذا كانت الحداثة في منظور الوعي المعاصر، تعني شكلا جديدا لقوة الفكر. فإنها مطالبة بمقاربة النصوص بما هي معطيات للقراءة والرؤيا. والظاهر أن المقاربات النقدية الحديثة تمضي نحو إستكشاف هذه الرؤى وفي هذا الشأن ألفينا النقد العربي يقارب الشعر القديم من منظور سيميائي يتجاوز المستويات اللفظية والصوتية وحتى البلاغية إلى مستوى الرؤية الباطنية التي توجه الملفوظ في قصديته. ويفترض أن الناقد محمد مفتاح في تتبعه لمقصدية الشاعر - من خلال تعرضه لسيمياء الشعر القديم - استهلك كل معطيات التحليل بالافتراض معرجا على سياق النص في تعالقاته مع الذاكرة. وهو ماركز عليه الناقد^(٢) من قبل حين لم يستثن المقصدية التي يعتمد عليها كمؤشر خفي على مدلولات القول. بالإضافة إلى أن النص الذي يقترحه للتحليل، تنحو بنيته باتجاه الحكمة والمثل، وما يتضمنه من مقولات: الدهر - الانسان - الزمان... بحيث تعبر هذه المقولات عن موضوعات تتنافى في الغالب مع محمولاتها. غير أن الشعرية - هي حدس جمالي لتحول المعاني سواء بخرقها أو بانحرافها وذلك بواسطة صيغ تعبيرية شتى، تلعب خلالها اللغة دورا كيميائيا يعطي للكلمة بعدا دلاليا، ويمنح الفعل حركية التعاقب والتحول، ومن ثمة فإن بنية التقابل - التضاد قد عبرت عن هذه التحويلات والحركات التي يفرزها النص سواء بقصد أم بغير قصد.

١ - المرجع السابق، ص ٣٥.

٢ - ينظر: في سيمياء الشعر القديم: دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة المغرب، ١٩٨٩

زيادة على أن هذه البنية لاتتعامل مع الألفاظ المفردة وتصنفها في مقابل بعضها وإنما هي تستدعي جميع العناصر الصوتية والنحوية قصد استنباط تقابل دلالي بين مستوياتها الباطنية.

واستنادا إلى تلك المستويات، فإن هناك قرائن للمشار إليه في النص، تشترك في عمارة تشكيل الدليل. وهذه القرائن هي: (الانسان - الدهر - الزمان) غير أن هذا التقابل الذي يختزل تجربة الذات من خلال هذا البيت الشعري:

لكل شيء - إذا ما تم - نقصان

فلا يغر - يطيب العيش - انسان

سواء أكان تقابل تناقض أم تضادا فإن منتوجه الدلالي مرتبط بمقصدية الشاعر أكثر من ارتباطه بانسجام عناصر النص. وبذلك فإن سيميائية التقابل في النص القديم - على الرغم من محاولة الاستبطان التي أبدت تعاملها مع علامات النص وتعبيراته الإشارية - إلا أنها ترجع الاستناد إلى المقصدية واستحضار الأفق الذاكري بوصفه مقوما تستند عليه القراءة في توليد المعنى، أكثر من اعتمادها على العمق الدلالي للملفوظ فيما تكتنزه الكلمات من انحرافات ودلالات.

والواقع أن مثل هذه الرؤية لاتعبر عن ضعف في موقف محمد مفتاح، بقدر ما تجعل من المقصدية معطى نهائيا، وليس مجرد أداة نقدية، واعتماد مثل هذه الرؤية من شأنه أن يفقد النص كثيرا من خصائصه ويبدها والأجدى هو توظيفها والتمكن من مقاربة النص، والتقرب من خصوصياته قصد مساءلتها، واستقصاء جمالياته بامعان النظرة التدقيقية وتوجيهها نحو ارادة التقبل في استنتاجاتها لمكونات النص التي لاتقدم نفسها إلا في طابعها الاحتمالي.

كما تثبت هذه الرؤية أيضا تعلق الدراسات النقدية العربية بالاحالة على الذاتي والذاكري في صورتها الشكلية وابتمادهما عن السيميائية التوليدية التي تقتحم رحم النص وما يتناسل عنه من توالدات اشارية ورمزية توحى بمدلولها الغائب، وبحضور هذا الغياب في أن معاً

غير أنه لا يمكن اثبات هذه النظرة أو نفيها، بقدر ما يمكن استخلاص العناصر الأولية للمقاربات السيميائية في نقد الشعر العربي سعياً منها للبحث عن مكونات الخطاب الشعري وصولاً إلى العلاقات الباطنية التي تحرك أنسجته المتشابكة.

ويفترض في هذا الشأن أن يكون تساؤل الخطاب النقدي تساؤلاً مفتوحاً على التأويلية والاحتمالية، ومن ثمة فقد جاز له أن يتعدى الأفق المعرفي السائد إلى مساءلة الوعي المتغير في علاقته بالفكر التأملي لاستنباط عناصر الرؤية النقدية بما يتعاشى مع هذا الوعي المستجد.

ضمن هذه الرؤية التساؤلية، تحاول الباحثة أسيمة درويش مساهمة الحركة الحدائثية من منظور استقرائي يحاول تجاوز القراءات الاستراتيجية، والانتقال إلى قراءة استدلالية. كما توحى بتحول وظيفة القراءة التي لاكتفي بتفسير النص، وإنما هي تضع موضع سؤال تسعى من خلاله إلى الكشف عن علاقاته الداخلية، ومعرفة كيفية تماسك وحداته، وإنبثاقها.

وبذلك فهي تتخذ من التقابل عنصراً سيميائياً، جوهرياً في تأسيس حركية النص البنائية. ويقوم التقابل لدى الباحثة على التضاد الذي يتجلى في المستويات التالية:

- التقابل على مستوى المفردة.
- التقابل على مستوى الجملة.
- التقابل على مستوى السياق.
- التقابل على مستوى الفعل.

ذلك أن اجراءات التضاد لاتنتج فعاليتها فيما تقيمه من تقابل بين المفردات أو بين الجمل، وإنما هي تكشف عن تعدد وتباين قد يظهر على مستوى الجملة الواحدة أو فيما بين جملة وسياق النص الذي ترد، أو بين الجمل والمفردات، غير «أن التضاد الأكثر أهمية في القصيدة هو التضاد الدلالي، أي الدلالات الضدية التي تنتجها حركة العلاقات الداخلية للنص، والتي لايمكن رصدها الا عبر متابعة أنظمة النص وحركته الداخلية»^(١) فإذا كانت التباينات هي سر الخلق الابداعي، فإن معظم النصوص الشعرية تعتمد إلى نسق من التجاذب والتناسق بين الدوال، قصد تحقيق ايقاعية رمزية بين المحمول والمدلول من خلال تناغم الرموز وتناورها.

والواقع - من وجهة نظر الباحثة - أن التقابل الدلالي في الشعر الحديث هو تعبير عن موقف ورؤيا وهو هنا - من خلال تحليل قصيدة أدونيس «هذا هو أسمى» يعكس الموقف التاريخي والكوني والرؤيوي للشاعر «فالاضداد هي المعادل الشعري لاحساس أدونيس المتوتر بتناقض الوجود. ذلك أن رؤيته الوجود تقدمه كحركة مؤسسة على علاقة بين متناقضات، علاقة تبادل وحوار وصراع وتقابل وتداخل. ومن هنا التقى. في موقفه بعدان: بعد البحث عن الجوهر الذي يريده إلى استبصار التناقض وبعد السؤال. والسؤال هو الوجه الملازم لهذا الاحساس بالتناقض»^(٢) ان تقابل النص الحديث هو تقابل العلاقة بين المفردة وسياقها، وتحمل هذه العلاقة مؤشرا دلاليا على التحول الحركي لهذه العلاقة وتطورها، بحيث يعبر تقابل ما عن دالتين متناقضتين في سياق النص الواحد: كدلالة الماء^(٣) في نص شعري لأدونيس:

١ - أسيمة درويش: مسار التحولات قراءة في شعر أدونيس، ص ٢٤٣

٢ - المرجع السابق، ص ٢٤٨

٣ - م. س. ص ٢٥٩

قبر الدجال في عينيه شعبا
 نبش الدجال من عينيه شعبا
 ورأينا كيف صار الشعب في عينيه ماء
 ورأينا كيف صار الماء طاحون هواء

{ دلالة على الاحتضار

يقابله النص الشعري التالي

وعلى لهب
 ساحر مشتعل في كل ماء

{ دلالة التجدد والحياة

الماء

الاحتضار

الحياة

← تقابل دلالي

وعلى الرغم من كون التقابل ظاهرة نفسية وانطولوجية تكشف عن مظاهر التأمل والتفكير الذي يضمه الشاعر إلا أنه يبدو وأن الباحثة لا توظف المقصدية كمؤشر دلالي وإنما كمؤشر كينوني، يحتمل أكثر من بعد دلالي ورمزي وبذلك فإن تقابلا مثل:

قدم للموت حياتك

لا يمكن إلا أن يكون بؤرة توالدية توزع اشعاعاتها الدلالية بما يلتف حولها من المحمولات المتضمنة لعلاقات جدلية تؤشر على تقابل الرموز الناتج عن تصارع الأضداد عبر اشتباك علاقاتها الداخلية (الماء / الصخر، الصخر / الريح، الموت / الحياة، الظلمة / الضوء).

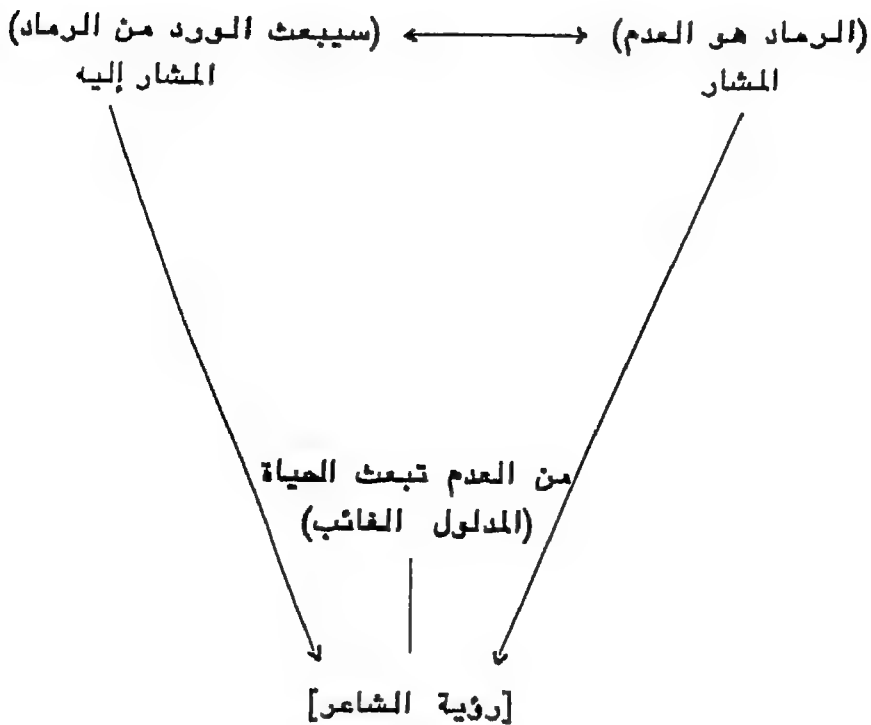
وبذلك يمكننا استخلاص البعد الوظيفي للتقابل الذي يتجلى في

التالي:

* اشارة الحركية في النص وانتاج الدلالة.

* التقابل جوهري لتوليد دلالات متعددة.
 * تعميق الدلالة بنقيضها أو باستحضار الدلالة الغائبة (الوحدة
 ثنائية الغائبة) ترتبط بموقف الشاعر، وتتطلب استدعاء البعد الثالث
 بركة الثنائية بالتأويل ويمكن توضيح ذلك في الخطأطة التالية:

وردة الرماد ————— تقابل دلالي (الموت والانبعاث)



وهكذا فإن التقابل يستحيل إلى علامة ثلاثية الأبعاد، تستدعي خلالها
 سيمائية التأويلية المتصور الذهني الغائب بوصفه مدلولاً ثانياً لمدلول
 ال. ومما يبدو، فإن التقابل في الشعر الحديث يعمق الفضاء الدلالي
 تفجير دلالات مضمرة وخلق علاقات داخل النص بين وحداته المختلفة.

يمكننا أن نستخلص مما سبق بأن سيمياء التقابل في الشعر القديم محورها (الدهر) لارتباطها بالذاتي والذاكري، بينما نجد أن التقابل في سيمياء الشعر الحديث شمولي وكيثوني محوره (الانسان) ويتضح ذلك أكثر من خلال الجدول التالي:

سيمياء التقابل في الشعر الحديث	سيمياء التقابل في الشعر القديم
* تقابل كينوني «محوره الانسان»	* تقابل ذاكري «محوره الدهر»
* تقابل السؤال	* تقابل الجواب
لماذا أموت نفيًا	لكل شيء إذا ماتم نقصان
* تقابل الرؤيا (رؤيوي)	* تقابل الزمن المدرك أو المعيش
قدم للموت حياتك	وهذه الدار لاتبقي على أحد
* تقابل الدلالة	* تقابل الملفوظ أو المقول
تقابل { نار ملجومة — تضاد بحر مروض — تضاد دلالي	طيب العيش / ضنك العيش
* يقول شيئًا ليقول شيئًا آخر	* يقول شيئًا ليقول لاشيء
(حضور / غياب الدلالة أي تعميق الدلالة بنقيضها)	(حضور الدلالة)
* تقابل التحول	* تقابل المستثبات

٣ - الأسلوبية / المنهج والتقبل

إن ارتباط سبيل «المنهجية» في حقل الدراسات، يقتضي، إعطاء الوجه المعرفي للتعددية الفكرية في استنتاجاتها النسبية، والنص الأدبي أحد هذه الاجراءات التي تتلاشى مع الموضوعية المفرطة في محاولة لعلمنة النص، وهو ما لاتعتقد العلوم الانسانية.

وبحسب هذا الطرح، يمكن اعتبار المنهج مصدر النزوح إلى الحركية، وضد السكونية، ورفض كل قناعة نهائية، ومن ثمة البحث عن طرق تحليلية أكثر انفتاحا يملئها واقع الخطاب الأدبي، وبعيدا عن أية مقارنة تحتوي هذا الطموح، ولايعتمل في داخلها تفاعل النص مع متلقيه، لايمكن لأية ممارسة أن تكتج قراءة واعية وفاعلة.

إن استخلاص النتائج المستخرجة بمعايير منهجية صفة مائزة - بخاصة - في العلوم المعيارية، لذلك جاءت الدراسات المعاصرة لتكسیر كل منهجية مسبقة من منظور أنها لاتعني بالغرض الذي يتعامل مع النص في خصوصيته التي تحدد منهجه لاحقا، كما أنها أضحت تراهن على تحديد السمات من الاجراءات المتبعة، وهي الصفات التي تميز الدراسات الأسلوبية.

وإذا كان الأسلوب - في منظور بعض الدراسات^(١) - هو الذي يغيب الوجود الباطن للنص ضمن دراسة علم دلالة العبارة فإن القراءة الأسلوبية تعمل على استحضار هذا الغائب، وتركز على وجود دلالة الكلمة في ملفوظها التأويلي بما يلحقها من كلمات أخرى في ربطها بالجانب التركيبي والصرفي وهذا ما يحدد التركيبية التي تعتمد الجزئيات للوصول إلى الكليات بقصد تحديد عالم النص.

١ - مثل المنهج البنوي.

على هذه الأسس تقترح الدراسات الأسلوبية^(١) ضرورة الفهم الجدلي الذي يعتمد قانون التتابع والانقراض، لاسيما في افتراض الجانب التاريخي بوصفه دافعا لهذا القانون. وتضيف هذه الدراسات بأنه لا يمكن فهم الأسلوب دون ربطه بالفنون الأخرى. وبذلك تبقى «دراسة الأسلوب مستحيلة دون الفهم الفلسفي لوحدة المضمون والشكل ودون ايجاد الروابط التي تجمعها بالفنون أو بالاستنتاجات. ومفهوم الأسلوب يفترض تاريخيا وجود التتابع والصراع والروابط المتبادلة بين الأساليب»^(٢)

إلا أن الأسلوب بوصفه ظاهرة لغوية، أفضى بالأسلوبية إلى أن تبقى ضمن واقع اللغة، وواقع الكلام، وألا تحيد عنهما «وهذا المعطى هو الذي يجعل الأسلوبية تتحد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغاته البلاغية»^(٣) غير أن مثل هذا المعطى يظل لغويا ومعجميا في أساسه. وقد لايفجر المخزون الدلالي أو الباطني لمحتوى المعنى.

أما كروتشه فهو يقف على أرضية شكلية بحثه، في تحديده للأسلوب الذي يقول بأنه هو الشكل. لكن هذا يتنافى مع الدلالة الجوهرية للنص، ويتعامل مع العمل الإبداعي كبنية مجردة تجعل من الشكل مركز استقطاب.

وترتبط الأسلوبية باللسانيات كمبحث لغوي يزيد من اثراء الممارسة والتنظير ارتباطها ببعض المعارف الانسانية الأخرى، والحقول المعرفية. وهذا مايجعلها تطمح إلى ابداء الوصي بالمبادئ العلمية التي يتوسلها المنهج

١ - تشيتشرين: صاحب كتاب، الأفكار والأسلوب.

٢ - تشيتشرين: الأفكار والأسلوب، تر: حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية / العراق، ص ٢٤.

٣ - عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط ١ / ١٩٨٢ ص ٣٥.

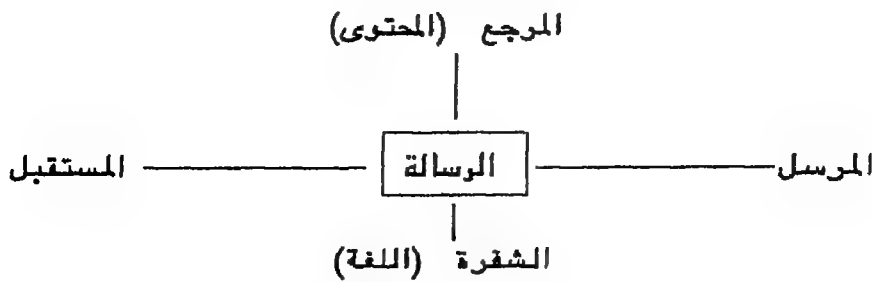
الأسلوبية. حيث «تعرف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لارساء علم الأسلوب»^(١) وما انفك هذا الطموح ينزع إلى أساسياته البدئية [المنشأ اللساني] في ارساء دعائمه العلمية. يتضح ذلك من تأثير ثنائية سوسير لغة / كلام التي أسهمت في تطوير الأسلوبية البنائية. وهكذا فإن «قيمة هذه التفرقة تكمن في التنبيه إلى وجود فرق بين دراسة الأسلوب بوصفه طاقة كامنة في اللغة بالقوة (....) ودراسة الأسلوب الفعلي في ذاته؛ أي أن هنالك فرقاً بين مستوى اللغة ومستوى النص»^(٢) ومن ثمة تفرعت الثنائيات التي أوجت بها اللسانيات من مثل مانجد [النظام / النص، الرمز / الرسالة، الخطاب / العبارة...]. وتبحث الأسلوبية البنائية عن تواليدات دلالية من خلال وظائف لغوية تحدد الخصائص النوعية عبر التحليل في علاماته ووحداته البنيوية التي تعنى بالانتاج الأسلوبية من حيث هو الأثر في صياغته البلاغية.

ان تحويل اللغة من حيِّز الوجود اللفظي (الافرادي)، إلى حيِّز الوجود التعبيري (التركيبية) أو الايحائي ذي الطابع الوجداني أو ما أسماه شارل بالي بالمحتوى العاطفي للغة، هو ما يضيف على الألفاظ بعدها الدلالي بتحويلها إلى مكوناتها الايحائية من خلال استكشاف العلاقات بين البنى والتعبير، والصور والأفكار وتفجيرها. ويرى بالي بأن الأسلوبية التعبيرية «تهدف إلى دراسة القيم التعبيرية الكامنة أو المثارة في الكلام. وهو يختلف منذ البدء مع البلاغيين القدماء في أنه لايقف بدراساته عند الصور والأنماط التقليدية المتعارف عليها، ولكنه يمتد إلى اللغة في حقولها التعبيرية اللامتناهية وهو يقف على نحو خاص أمام اللغة المنطوقة،

١ - المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ص ٣٤

٢ - أحمد درويش: الأسلوب والأسلوبية مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول م ٥ ع ١، ١٩٨٤ من ٦٥.

ليلاحظ العلاقة التي يمكن قيامها بين المحتوى العاطفي والصيغة التي يصب فيها»^(١) وإذا كان شارل بالي لم يستثن - في نزعته الوصفية - الخطاب اللغوي العادي بمحتواه العاطفي، دونما اهتمام بالجوانب الجمالية، فإن رومون جاكبسون قد ركز في الأسلوبية البنائية على التفرقة بين ثنائية (الرمز - الرسالة) في الوظيفة التعبيرية. وهو بذلك يراوح بين الدراسة اللغوية، والوظيفة الأدبية، عبر ثوابت يسميها بالمواصلات، أو متغيرات السرعة، ومن بينها هذا التقسيم الثلاثي للضماير، إلى ضماير المتكلم، والمخاطب والغائب الذي يلتقي مع تقسيم ثلاثي لوظائف اللغة، يتمثل في الوظيفة التعبيرية (أنا المتكلم) والوظيفة التأثرية (أنا المخاطب) والوظيفة الذهنية (هو الغائب)، ويلتقي أيضا مع تقسيم ثلاثي في العمل الأدبي يتمثل في المؤلف (أنا) والقارئ (أنت) والشخصيات (هو) ممثلة على الشكل التالي:



من خلال هذا التصور يمكن اعتبار الأسلوبية البنائية التي يتزعمها جاكبسون على أنها «بحث يتميز الكلام الفني» عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون ثانيا»^(٢) وبذلك فهو يحدد معالم الأسلوب ويحصرها بكونها مميزة للخطاب الأدبي وأنه بإمكان الفنون الأخرى أن تستأثر بأساليبها المميزة الخاصة.

١ - أحمد درويش: الأسلوب والأسلوبية، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مقال في مجلة فصول، ص ٦٥.

٢ - ينظر: المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ص ٣٧.

والواقع أن الأسلوبية في مجملها مازالت تنقّب عن مرتكز يخلصها من خصائصها الوراثة تلك التي ترتبط بالجانب البلاغي واللسانياتي، لتجعل منها مجرد عناصر تسهم في تحليل النصوص والكشف عن أدبيتها وليس أساسا في بنيتها، وهذا ما جعلها تصوب مسعاها نحو المعرفة الخورية التي توغل وتستبطن، وتبيح للقارئ معرفة أدق بسبل الأداء الأسلوبي، وتمكنه من هُجوع أدواته القرائية تبعا للاختيار النوعي والممكن وفق ماتمليه القدرات التقبلية للقارئ، ومداركه التأويلية، وفهمه الاستقرائي. وليس استنادا إلى معطيات الدلالة اللغوية ومقتضياتها النحوية التي تحول النص باتجاه سلطة الاستجابة اللفظية.

وبالاحتكام إلى قضاء التلقي تكون الأسلوبية التقبلية، قد حولت مفهوم الشكل إلى الأنا المتقبلة «ليشمل الإدراك الجمالي الذي تظهر به احتمالات النص وانتاج المعنى واستقصاء اجراءات النص في القراءة والبناء الاتصالي للآدب لتفحص الحالات التي تحكم تفاعل النص - القارئ»^(١) وما ينتجه هذا التفاعل هو نتيجة لاستجابة نوعية للأثر التي لا تتحدد بالرموز اللغوية، وإنما تبرز من خلال ماتقدمه هذه الرموز في تركيبها من فعالية تأثيرية «فإذا كانت عملية الاخبار هي علة الحدث اللساني أساسا، فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز البلاغ إلى الإشارة، وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتحديد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الاخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية»^(٢).

إن البحث عن الاشباع الدلالي، لاتوفره استقصاءات لغوية فحسب، ثمة أبعاد جمالية توحى بمكنونات النصوص هي أقرب إلى الاستكناه والتقصي تمكن الأسلوب من احتلال حيّز السياق التقبلي وذلك ما يبرر

١ - ينظر: حاتم الصكر: الأسلوبية ومفاهيم النص (علمية الأسلوب وأساليبية التقبل)

كتابات معاصرة، ج ١١، ص ٢٢.

٢ - المسدي: النقد والحداثة، ص ٣٥.

«انتقال مفهوم الأسلوب من المستوى اللغوي إلى مستوى الكلام لغرض الربط بين جوانب التأثير والتأليف في الأسلوب. فالسياق الأسلوبي نموذج ينكسر بعنصر غير متوقع. والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي أو الباعث، مما يولد وقائع أسلوبية يحدوها التلقي بديلا للوقائع اللغوية، كما يسهم الباعث في تحويل ردود الفعل الذاتية إلى أداة موضوعية للتحليل»^(١) والأثر لا يدل إلا بمقدار ما يدل عليه التقبل. لذلك فالأسلوب لا يظهر كفعل لغوي وإنما يتراءى بوصفه الدلالة الخفية للأثر. ويعتقد ريفاتير بأنه «العلامة المميزة للكلام، داخل نسيج الخطاب اللغوي، في هذا الإطار اعتبر الأسلوب بمثابة البنية النوعية للنص، وإذا كانت اللغة تقوم بوظيفة تعبيرية فإن الأسلوب بالنسبة إليه هو الذي يبلور المعاني ويبرزها»^(٢).

وسواء أاهتمت الأسلوبية بظواهر التعبير من حيث الأداء الكلامي والقدرة الكامنة، أم من حيث احتضان البنيات التركيبية في رصد الدلالات الباطنية، أم من حيث التأثير والتقبل، فإن المنهج الأسلوبي مازال يضطرب بين القواعد التقليدية من بلاغية ونحوية حيث ينعدم الذوق الفني والحس اللغوي المبدع.

ومجمل القول فإن أسلوبية التقبل قد حققت بعض الانزياحات سواء على مستوى النص أم التلقي من منظور أن:

- النص أشمل من الملفوظ اللساني.
- تجاوز الانزياح اللفظي - المعجمي - إلى الانزياح الإيحائي.
- رد الأسلوب إلى جمالية التقبل حيث يصبح المتلقي طرفا في تحديد الأسلوب، وهو انعطاف جديد في تحديد مفهوم الأسلوبية.

١ - ينظر: حاتم الصكر: الأسلوبية وطاقت النص، ص ٢٢.

٢ - ينظر: فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، ص ١٦٢.

وتندرج ضمن هذا الطرح أسئلة كثيرة لعل أبرزها:
ماذا أضافت الأسلوبية إلى حقل الدراسات النقدية عمليا ونظريا؟
ويتولد عن هذا السؤال تساؤل آخر بشأن علمية الأسلوب التي تشتغل
بموضوعات افتراضية الأمر الذي يجعلها غير قابلة للتحقق بالاضافة إلى
تميز الموضوع الذي هو محل اجتهاداتها بالخصائص التالية:

- إجمالية الأدب وافتراضية القول (النص).
- لا نهائية القول ولا محدودية التقبل.
- انفلات المعنى من الشكل، وانزلاقه من حدود الدلالة.
- كل هذا «لايتحدد بالتعاضل والتجاوز نظرا لعلائق التركيب وشبكة
المعاني والمفردات والاشتراطات الفنية للنص»^(١)

وكل هذه العوامل كانت بمثابة تمهيد لخلاص قد لا يكون نهائيا، ولكنه
ممكن تمثل في أسلوبية التقبل من حيث كون القراءة عملية اندماج بين
النص والقارئ تتضح من خلالها طرائق الفهم، وجماليات المعنى، وحدوده،
ومستوياته وفعالية تأثيره، وتمنح - بالتالي - لمفهوم الأسلوب جدليات
جمالية تسهم في إبرازه بوصفه البنية الخفية في نسيج النص وفي
حفريات الأكثر غورا، وليس مجرد مظهر تجسده العلاقات المعجمية
وتضطلع به المقاييس اللغوية.

وإذا كانت الأسلوبية قد تقصت مبادئ الألسنية في تحسس النظم
التأسيسية لمبادئها، فإنها عند عبد السلام المسدي قد تمكنت من تحديد
مفاهيم معينة انطلاقا من استيعاب مجمل القضايا التي تعلقت بالأسلوبية
والأسلوب، محاولا استلهاهم اجراءاتها في التحليل، وتجاوز بعض منطلقاتها
في التنظير الأمر الذي مكنه من الاحاطة بمعظم مباحثها. غير أن منطق
الرؤية لديه ظل في مجمله لسانياتيا يخوض في مناحي اللغة، والتحليل

١ - حاتم المكور: الأسلوبية وطاقات النص، ص ٤٠.

الشكلاني والتراكم التاريخي، فلم يقبض على أبعاد تأملية. وهذا ما يجعلنا نتساءل حول حضور المنهج الأسلوبى في ممارسة النقد العربى الحديث. وهل أحيط بتأمل واع؟.

لقد ارتأينا أن نمارس هذا التساؤل من خلال أسلوبية المسدى بوصفه النموذج الرائد فى هذا الميدان، ولئن كان يضم أبعاداً وتحديدات متطورة منهجياً فإنه لم يخل من بعض الوثبات، بخاصة تلك التى ترتبط بالكشف عن دلالات النص الباطنية. ومع ذلك فإن معظم مداخلات الناقد (المسدى) التى أسهمت فى إثراء النقد العربى الحديث تشير إلى افتقار المقاربات النقدية الحديثة إلى بعدين: بعد نقدي، وبعد تأصيلي، أو فقدان التأصيل المنهجي والمعرفي نظراً للفصل بين الفلسفة والنقد. وتلاحظ بعض الدراسات المعاصرة أن المسدى «لم يحاول أن يتبنى منهجاً أسلوبياً جاهزاً من تلك المناهج التى عرض لها، والتى صنفها ضمن ثلاثة اتجاهات، مصادرة المخاطب، ومصادرة المخاطب، ومصادرة الخطاب، بل قدم تصوراً لا يخلو من الانتقائية والترفيقية وعنى فيه، إلى الأخذ بكل هذه الاتجاهات وعدم إهمال أى منها لأنها تؤدي إلى دراسة شمولية للظاهرة الابداعية» (١)، إن الأسلوبية لا يمكن أن تكون نظرة شاملة، أو مبحثاً متكاملًا يشمل الظاهرة الأدبية، أو الأثر الأدبي، وإنما هي تمسك ببعض جوانبه وأبعاده، وقد تعجز عن بعض جوانبه الأخرى.

وإذ تدعى أسلوبية المسدى عدم الفصل بين النظامين اللغوي والأدبي وإمكانية ادماجهما، إلا أنها أختزلت إلى لون من التحليل الذي استمر في إهمال أدبيات النص، وردها إلى خصائصها اللغوية وماتليه عليه مستحكمات النص ذاتها. وظل يتردد في قراءاته بين التحليل الالسنى البحث، وبين اللجوء إلى سياقات سيكولوجية، وتعبيرية حيث لم يلتزم بمنهجية أسلوبية معينة، وذلك يتضح لنا في تحليلاته للشابى والمتنبسى

١ - د/ فاضل تامر: خطاب النقد العربى الحديث: الاتجاهات الأسلوبية - تجربة المسدى نموذجاً مجلة كتابات معاصرة، ع ١١، ص ١٤.

على اعتبار أنه «كان يراوح عند حدود منهجية غير حدائية كلياً، وأنه كان أسير تحليلات ومقاربات نفسانية وقيمية، أولت المرجعيات الخارجية اهتماماً كبيراً وأقامت صرحها على افتراضات قبلية ومصادرات افتراضية تبني عليها التحليل الأسلوبي اللاحق، وأن هذا المنهج ظل بعيداً كل البعد عن منهج الاستقراء»^(١) أن ما نلاحظه - إذن - هو أن الناقد حاول أن يثري منهجه الأسلوبي في تطبيقاته وتنظيراته من خلال تمثيل أكثر المناهج الأسلوبية التي عرضنا لها، غير أنه انساق وراء الاحصائيات متخذاً منها مدخلاً تحليلياً، وممسكاً بالصياغة اللفظية والبنائية، جاعلاً منها مبدءاً أساسياً في التوصل إلى النموذج الأسلوبي الخبيء ضمن تلك الصياغة، ويتضح ذلك من خلال قوله «بأن ابداعية أي نص أدبي لا يفسرها إلا الاهتداء إلى النموذج الأسلوبي الثاوي وراء بنيته الصياغية والذي سيتصفى من خلال مراتب البناء بدءاً بالأصوات والمقاطع والألفاظ وختماً بالمضامين الدلالية بعد المرور بالتراكيب النحوية المتعقدة»^(٢) وضمن هذا التوجه النقدي يحاول رواد النقد العربي الحديث الاقادة من الدرس اللغوي في مقاربة المعنى الأدبي بحيث يرى أحدهم(*) أن «الوصول إلى المعنى في صورته الشاملة لا بد وأن يفيد من الدراسات اللغوية المختلفة مثل الصوت والصرف والنحو [وهي الخاصة بتحليل المعنى الوظيفي] ثم المعجم [وهو الخاص بالمعنى المعجمي]»^(٣)، ويبدو جلياً إذن، أن مختلف المقاربات النقدية العربية الجديدة - على اختلافها - انسقت وراء الثنائيات الضدية دون أن تدرك حقيقة البنية الدلالية للنص التي لاتستخلص من مجرد بنيته اللغوية.

١ - المرجع السابق، ص ١٧.

٢ - المسدي: النقد والحداثة، ص ١٠١.

(*) - ثمام حسان في كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها.

٣ - ينظر: د. فاضل تامر: المقاربات النقدية العربية الجديدة (من البنية إلى الدلالة) كتابات معاصرة، ج ٨، ص ٧.

لم تبق تلك المقاربات رهيئة المنحى الألسني في رصده للبنيات التركيبية للنص، لاقتناعها بضرورة البحث في حفرياتة الأكثر غورا، وتفجير مكوناته الدلالية، ونلمس ذلك من خلال ما تطرق إليه ميشال زكريا الذي يبين بأن «البنية العميقة وان لم تكن ظاهرة في الكلام، هي، إلى حد كبير، أساسية لتفهمه واعطائه التفسير الدلالي.. في حين ترتبط البنية السطحية بالأصوات اللغوية المتتابعة وتحدد تفسير الجمل من الناحية الصوتية»^(١). على أن طرائق التحليل النقدي الحديث لاتكمن أهميتها في رصد البنيات الباطنية والسطحية للنصوص فحسب، وإنما في إيجاد القاسم المشترك للعلائق المشتبكة في نسيج النص، وما يعمل في داخلها من صور، ومعان، ودلالات. ومثل هذا الجهد لاتوفره إلا الأدوات الاجرائية التي تمكن الناقد من «تقطير المعنى» من النص. وهكذا تتباين الرؤى النقدية في التوجه والأداة، وتشترك في كونها تسعى إلى أن تفتح المعنى أو تقاربه أو تضيئه أي أنها تستكشف البنية في استقصاء الدلالة عن طريق استقراء المضمون الدلالي واستنطاق البنية الداخلية وتفكيكها..

غير أن ذلك لا يتم إلا باستقصاء ابيستمولوجي عن كيفية تقارب «المعنى» في تحديد وظيفتها المورفولوجية؟ أو ماهي الملابسات والظروف التي تقربنا من تحديد «المعنى» ضمن العلاقة المتبادلة بين اللفظ ومدلوله؟.

١ - المرجع السابق، ص ٨.

٤ - اشكالية الدلالة وحدود التقبل

أ - المعنى ومعنى النص

لقد أسدت الدراسات المعاصرة توجهات معرفية عميقة التصور في مشهدها النقدي، وذلك بالتنوع الشديد والمكثف. ومثل هذا التنوع تفرضه التعقيدات الناجمة عن الخطاب الابداعي، الذي يخلق نظامه التشفيري من الرموز وليس من القرائن والمؤشرات، كما هو الحال في الخطاب اليومي بوصفه حاملا لعلامات مشفرة. وتقوينا هذه التعقيدات إلى المحمول النصي أو الملفوظ الابداعي في تداخلاته والتباساته، على اعتبار أنه محمول دلالي تتجاوز أنساقه المواقع المعجمية إلى صميم الدلالة المعنى ذلك بأن الدلالة تتعلق بالمعنى، أما الإشارة فتشير إلى موجود كائن. الأولى تمس التصورات وعلائق الذهن والثانية ترتبط بالشار إليه في علاقاته اللغوية. وتبعا لذلك تكون اللغة أداة للإشارة، والدلالة أداة للتصور وهنا تكون علاقة الإشارة هي إذن علاقة لغوية. غير أن الذي يهم هو «العلاقة المنطقية المحضة للدلالة التي تكون بين التصور وما ليس بالتصور، أي ما «يوصف» بواسطة التصور. ففي القضية التي توجد فيها علاقة دالة بين التصور وما يدل عليه التصور، تكون القضية تخص ليس التصور ذاته، لكن ما تدل عليه القضية. ويقول آخر فالتصور هو الأداة التي تسمح للقضية بأن تتكلم ببساطة عن بعض الموجودات(١).

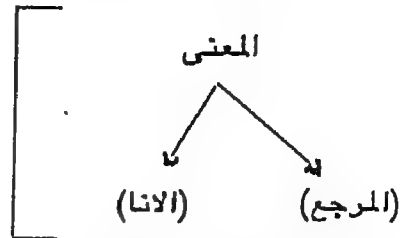
يكون المعنى إذن - بحسب هذا التصور - افتراضيا في طروح مواضعه الدالة التي لا يظهر إلا من خلالها. وهذا يعني أن كل افتراض هو عبارة عن رسالة خلفية لقيمة المتغير عبر فضاء النص. لذلك فإننا هنا أمام اشكالية «المرجعية» التي تؤكد ثبات المعنى في إطاره الثقافي، أو كما يسميه تودوروف بـ «المعنى الثقافي» في مقابل المعنى اللغوي للكلمة بحيث تقتزن بالكلمات الأصلية معان جديدة، وتأتي هذه المعاني نتيجة

١ - سامي أنعم: ما بعد الحداثة (انفجار عقل أواخر القرن / الثامن الفسحة المضيئة) دار كتابات ط (١٩٩٤).

للإحساءات المتكررة بين المعنى اللغوي والسياق الثقافي (١). وبين الظهور والكمون، والواقع والامكان، تبقى اشكالية المعنى لا تتجلى في مستوى معرفي محدد، وإنما في مستويات مختلفة، منها، ما ينزوع إلى الجانب الهرمنيوطيقي، ومنها ما يرتبط بالجانب المعجمي أو الدلالي. غير أن أهمية المعنى في الممارسة الإبداعية، تكمن في التساؤل عن كيفية أداء المعاني لوظائفها في النصوص الأدبية بحيث تتجلى هذه الكيفية في الاستعمال: أي كيف يمارس المعنى وجوده في النص؟.

إن الأسئلة ليست بريئة دائماً. ومع ذلك سنحاول إضاءة جوانب من المعنى في علاقاته بالمرجع، والأناء، والواقع. يرى سامي أدهم أن «الصراع في النص هو بين المعنى المثالي والمرجع، فالمعنى يوظف النص، والمرجع الواقعي ينتسب لأنطولوجيا النص، فهدف النص الدائم هو تقريب المعنى من المرجع الواقعي، وهنا تكمن المفارقة ويندس المستحيل» (٢). إن واقعية المعنى لا تتعارض مع النص ولكنها تتراجع لصالح المثال:

المعنى لا يتعلق بالمعيش بما هو
موضوع بل بما هو مثال



أما فريچ "Gottlob Frege" فيفرق بين المعنى (sens) والمرجع، ويعتقد بأن المعنى يتمثل في كيفية إعطاء المرجع، والمرجع هو الشيء الذي ترجع إليه العبارة (٣) وهذا يدل على أن المعنى واحد غير أن طرائق استيعابه تختلف ويستلزم أن:

١ - ينظر: تودوروف: المعنى والنظرية الأدبية، مقال في مجلة كتابات معاصرة ع ١٩٩١، ص ٥٣.

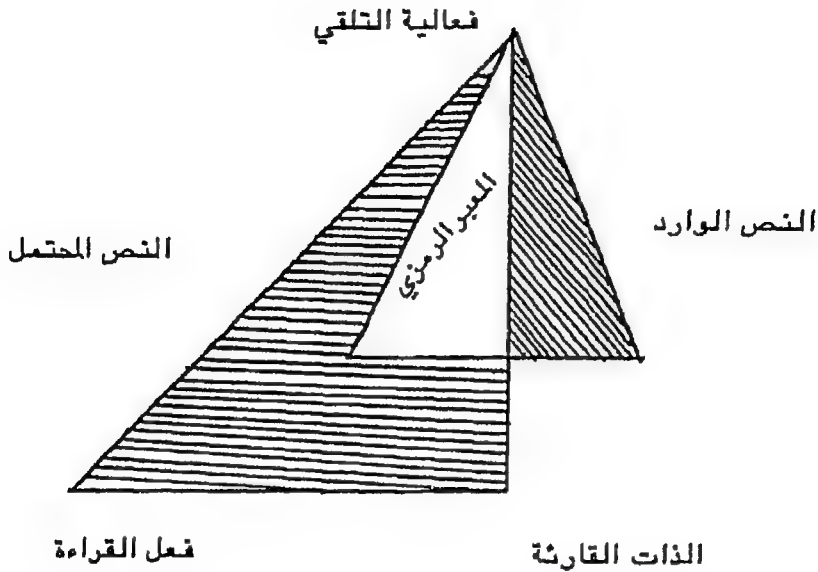
٢ - سامي أدهم: مابعد الحداثة، ص ١٥٣.

٣ - ينظر: جورج دميان: نظرية المرجع في اللسانية / الفكر العربي المعاصر، ع ٢٥ سنة ٨٣، ص ٣٣.

- المعنى —————> مختلف في زمنيين مختلفين.
- المعنى —————> مختلف في ذهن واحد في زمنيين مختلفين
أو في زمن واحد.
- المعنى —————> واحد لم يتغير.

لكن الاسقاطات والصور التي نسقطها عليه هي التي تتغير، وتكسبه
بالتالي دلالات خلافة
الحدث إذ لا تبحث في النص، وإنما في الصورة التي ننجزها، أو
المعنى الذي نسقطه عليه. فعلى القارئ أن يدرك بأن النص هو غير
الصورة التي هو عليها في واقعه.

هناك إذن: النص + الصورة أو المعنى الذي ينجزه القارئ حول هذا
النص [فعل القراءة]، يتوسطها معبر رمزي لا يكون وجود المعنى المحتمل إلا
من خلال هذا المعبر الدلالي.
لمزيد من التوضيح نورد هذه الرسمة.



وعلى القارئ أن يدرك بأن «المعنى ليس هو ما يدل عليه النص، بل هو كائن معلق بين النص ومرجعه: أي أن النص هو الكائن الموضوعي اللغوي الرمزي الذي يحايثه المعنى والذي يكون حالة ضرورية لوجود المعنى» (١). فالمعنى هو مجموع الكليات المحتملة، والتصورات، وهو افتراضي، وكامن، ومتعدد، وجوهري. ولذلك سعت القراءة الحداثية من اللذة البارتية إلى الصيحة الهيرمينوطيقية إلى استقراء هذا الكمون، والخوض في هذا الاحتمال، فكيف يخلق الخطاب الشعري موضوعاته؟ وكيف يتلقى القارئ بتوقعاته، احتمالية واردة، والتباسات غير مدركة وخبايا منطقية تروحي ولا تشير.

ب - النص وفعالية التلقي

إن النص بوصفه موضوعا للتلقي يعود إلى نشأة الفن وتذوقه، أما كونه تجربة للتلقي فإنه لم يحطل بالعمق التساؤلي الذي يخلصه من الاستجابات السطحية والانفعالات. ومن هنا أصبح فعل التلقي يخضع لشروط واعتبارات تحددها فعالية القراءة من حيث كونها فعل ادراك لشيء مدرك يتلمس تحققه من خلال التفاعل الثنائي بين النص والقارئ. إذ لا يمكن للنص أن يحيا إلا في أفق فاعلية انتاجه وتلقيه.

إن تجربة القراءة في جهودها المتعددة، والمتباينة تكمن في البحث عن أدبية النص، وتسند محاولتها إلى تفاعل الذات مع الموضوع، وذلك حتى تجعل من النص - في اسقاطاته - صورة للمتلخيل الاحتمالي. وهو ما يميز هذا النص عن ذاك، عبر تفوقه على المؤلف.

غير أن التساؤل الجوهري الذي يعترض كل متلق هو كيف تشكل القراءة وعيا بالنص ان هي استبعدت المرجع السياقي بإبعاده المختلفة وانصببت على تصورات القارئ؟ ثم كيف تخلق الصورة الاحتمالية صورة تعاقبية لها قابلية التأويل؟ وهل وجود النص ينعكس على وجود معنى عديم الاحتمال؟

١ - د / سامي أدهم: ما بعد الحداثة، ص ١٥٣.

الواقع أن القراءة تحدث عندما تحدث هزة ما، في المستقبل. وتعمل القراءة في النص فعلها المتغير عندما يتجاوز القارئ السياق اللغوي والمرجعي والدلالي الذي وضع فيه إلى احتلال الحيّز المفقود في أفق التلقي، واستحضار المتصور الذهني الغائب عبر التذكر، واستئناف عملية البحث والتساؤل التي لاتشددك إلى يقين ثابت. بل تزعزع فيك كل يقين، وتحيلك إلى أفضاءات ايحائية، وامكانات دلالية يتجلى من خلالها النص كافتراض يستجيب لقراءات متعددة تنفلك من أي شرط مسبق.

والحادثة بوصفها فعلا تواصليا ابداعيا، لايمكن أن تفصل بين المتخيل والواقعي، أو الذاتي والموضوعي، أو الذاكري والآني بل هي تمزج بين كل ذلك في انصهار رؤيوي، يرى في النص كونا تتداخل فيه العلائق بين اللغة والذات.

وهنا يصادفنا تساؤل آخر وهو: من أين يستمد القارئ جهازه المعرفي / التقبلي الذي من خلاله يتلقى النصوص؟ «ان العلاقة التي تربط القارئ بالنص ليست منتظمة داخل النص وعلى القارئ تجميعها واعادة تركيبها» (١) وهذا اللانظام واللاتناسق في صدّ المختلف، وجمع المؤتلف هو الذي يوشك أن يحدد طبيعة التلقي الجمالي، كما أنه يخلق أكثر من امكانية للتواصل، يكون مصدرها البحث عن الغائب في النص.

وهكذا فإن فعالية القراءة تكمن في الاكتناه، كما أن جوهر جمالية التقبيل يكمن في كونها لاتبحث في النص عن المقول الحرفي الدال، وإنما تحفز القارئ على الكشف عن اللامقول بحيث يستند الفهم لديه على ما لم يذكر في كينونته المنفلتة المنزاحة نحو الأعمق الخفي، بينما يظل المذكور مجرد إهمالة تحجبنا عن المعنى المختبئ.

١ - ينظر: وولف غانغ ايزر: في نظرية التلقي التفاعل بين النص والقارئ تر: الجيلالي الكدية، دراسات سيميائية أدبية لسائبة، ع/٧/١٩٩٢، ص ٩٠.

ونعتقد أن النص مشروع استجابة حميمية والقارئ مبدع ثان. وهذا ما أدركه أيزر N. ISER الذي رأى بأن النص يحدد إلى حد بعيد استجابة القارئ الذي هو أمام تخومات، وفجوات، أمام فراغ هو بصدد ملئه أما هانز فيري بأن النص هو الذي يمدنا بالمؤثر المعين والقارئ هو الذي يقوم باستكمال العملية^(١) هذا التداخل أو التفاعل بين النص والقارئ هو ما يشكل جقل الرؤيا التأملية الشاملة التي تميز حدود القراءة وتكشف عن حدود الفهم والتقبل لدى القارئ. «ومن هنا لا يمكن أن يتساوى أي نص مع هذا الشيء المتخيل، ولا يشكل منه إلا جانباً واحداً، وهذا الشيء ذاته هو نتيجة علاقة متداخلة والفراغات هي التي تنظم بنية هذه العلاقة وتتحكم فيها إلى حد كبير»^(٢) كذلك يولد النص من خلال القراءة. إذ هي التي تحوله إلى دلالة، والنص في أثناء ذلك يمدّ القارئ بأسسه الجمالي الخفي، وعلى القارئ الكشف عن اختباءات المعنى، فالنص لا يقدم نفسه مفتوحاً بل هو محض علامة، يكتمن في داخلها العمق الدلالي الذي يتعين على المتلقي اكتشافه وتعميقه، وبالتالي تفكيكه. ويشترط في المتلقي المعرفة الغورية، والمقاربة الجمالية.

وهكذا فقد فتحت نظرية التقبل الجمالية أفقا لصالح النص المفترض أو المحتمل، بحيث تأخذ بعين الاعتبار مختلف التصورات التأويلية في بحثها عن القدرات التعبيرية التي لا تتجلى في مظهراتها اللغوية إلا كعلامات تخفي وراءها عالماً من الدلالات يمكن لفعالية الفهم التواصلية - بوصفه فعلاً ابداعياً - تفجيرها «فنظرية التلقي لم تعد تنطلق من التأثير المقصود كما كان الشأن بالنسبة لنظرية الأدب البلاغية والتأويلية بحيث تنبني النظرية الجديدة على تلقيات النص التي تحققت، وتبحث في الجانب العلائقي بين هذه التلقيات وبين النص»^(٣) بحيث يتحدد الفهم لدى القارئ من مبادئ التفسير التقليدي إلى صَهر التلقيات قصد اغناء أفقه التقبلي.

١ - ينظر: فاضل تامر: من سلطة النص إلى سلطة القراءة / الفكر العربي المعاصر ٤٨/ ٤٩: سنة ١٩٨٨، ص ٨٩.

٢ - فولفغانغ ايزر: في نظرية التلقي التفاعل بين النص والقارئ، ص ١٠١.

٣ - التأثير والتلقي المنطليح والموضوع، كونترجريم، تر: أحمد المامون دراسات سميانية أدبية لسانية ع ٧ سنة ١٩٩٢، ص ٦٧.

وانطلاقاً من هذه المعطيات فإنه يجب تجاوز معرفة النص في شكله اللغوي، كما يستلزم النظر إليه في علاقاته بالانساق اللانصية، والسياقات المختلفة «ولا يعني هذا أن النص يفتقد أية إحالة، إذ من مهمة القراءة، من حيث هي تأويل، أن تعطي للإحالة واقعيته. وأقل ما يقال أن النص يبقى في حالة أرجاء، وتبقى الإحالة مؤجلة، وكأن النص معلق «في الهواء» خارج العالم أو بدون عالم»^(١) فالإحالة المؤجلة هي مرفأ للقارئ، ومساحة للتلقي.

عندما نضع النص في مواجهة العالم يعني أننا حولناه إلى دلالة، وهذا يكفي لنقله من حيّز الوجود بالقوة إلى حيّز الوجود بالفعل. غير أن هذه الفعالية لا تكمن في جوهر النص كدلالة. وإنما في كونه في حاجة إلى اكتماله (الإحالة) وبالمقابل فإن ذلك لا يعني مطلقاً نقصاً في جمالية النص. وإن القراءة تعني التصويب، بل تعني تفجير الطاقة الإيحائية التي يمتلكها النص من حيث كونه مجالاً للتأويل والتفكيك «ذلك أن المنطق الذي يحكم النص ليس منطقاً شاملاً يستهدف تحديد معناه الدلالي ولكنه منطق مجازي يحيا بوفرة الكنايات»^(٢)

يحتل القارئ موقعاً في النص ثم يخلق بواسطته أفقاً للتلقي كي يستجيب للمنتج المتحقق أو الناتج المحتمل المنبثق عن فعل القراءة الذي يقترب من الفعل الرياضي في بحثه عن الانزياحات والانحرافات النصية التي تلتحم في شكل متتالية على اعتبار «أن القراءة في حقيقتها، نشاط فكري / لغوي مولد للتباين ومنتج للاختلاف، فهي تتباين بطبيعتها عما تريد بيانه، وتختلف بذاتها عما تريد قراءته»^(٣) وعلى ضوء هذا التمايز بين القول والمقول تتجلى فاعلية التلقي في اهتمامها بالنواتج الجمالي الذي

١ - إدوارد سعيد: العالم، النص، والنقد / العرب والفكر العالمي ع ٦ / ١٩٨٩ من ١٣٢

٢ - صبري حافظة: التناص وإشارات العمل الأدبي مجلة ألف البلاغة ع ٤ / ١٩٨٤. من ١٤.

٣ - علي حرب: قراءة مالم يقرأ نقد القراءة / الفكر العربي المعاصر ع ٦٠ / ٦١ سنة ١٩٨٩

تفرزه عملية التقبل، التي لاتتعامل مع النص كـمعلوم مدرك، وإنما كـمتصور ذهني غائب تعمل على استحضاره وفرض مجهوليته - وانطلاقاً من ذلك « فإن الموضوع الحقيقي للبحث في التلقي يتكون من عمليات التلقي أو من التلقيات نفسها، بحيث يجب تقسيم التلقي إلى مراحل هي: عملية التلقي، وناتج التلقي، وتأثير التلقي» (١)

تؤكد نظرية التلقي على القارئ الضماني بحيث يؤلف المبدع نصوصه وفي تصوره نموذجاً لقارئ قبلي يشترك معه في الرؤية، وقد يختلف باختلاف القراء، وخبراتهم القرائية وما يتمتعون به من تفاوت في الامكانات التأويلية.

من هنا تخلق القراءة فضاء حوارياً بين الأنا القارئة والذات المقروءة قصد استكشاف المسكوت عنه أو اللامقول وبعثه إلى الوجود بمعناه الواقعي من حيث كونها تتعامل مع النص كـ «دال» منتج لعدة دلالات محتملة أو بوصفه ناتجاً ممكناً، أو موضوعاً جمالياً يفرزه الوعي التواصلية في اعتنائه بحالة الخلق الابداعية المتفردة. ومن ثمة فإن القراءة التقبلية لا يمكن أن تلازم في مختلف تحولاتها صورة مطابقة لفعالها، بل هي تسمى إلى خلق فهم استقرائي يحققه «المتقبل المبدع» الذي لا يكتفي بالانفعالات الانطباعية أو الاستجابات السطحية، وإنما ينطلق من رؤية تأملية شاملة تستند إلى منظور تأويلي - تحليلي. «وهكذا يكون التلقي الأدبي في نهاية التحليل هو تجربة الانتاج السيميائي لتشكيل نوعي جديد. والفن لا يعانق الحياة - إذا جاز التعبير - إلا بواسطة هذا التشكيل» (٢)

١ - كونتر جريم: التأثير والتلقي المصطلح والموضوع دراسات سيميائية أدبية لسانية، ص ٢٩.

٢ - وولف دييتير ستيمبل: المظاهر النوعية للتلقي، العرب والفكر العالمي، ع ٣ / ١٩٨٨ ص ١٣٠.

وبذلك تأتي جلّ القراءات النقدية الجديدة انعكاسا لراهن الرعي التفكيكي الذي لايلتمس بنيته التركيبية، إلا في ظل التحولات المكتسبة من واقع التعددية، ونقد المعقولية وهذا ما يبرر نزوع الفكر إلى التحول المستمر، ومن ثمة نقد اجراءات التأمل التقليدية بانفتاح المفاهيم على أبعاد تأملية مغايرة تنحو باتجاه المنطق التأويلي الذي لا يبحث عن كثرنة الأشياء فيما يرتبط بها من الأسباب الخارجية، وإنما هي تسعى إلى مساءلة أنظمتها الداخلية.

إن تعدد مستويات القراءة الحديثة مرهون بتعدد المفاهيم والرؤى في مواكبتها لشروط الاستجابة التقبليّة، وامكاناتها التأويلية أمام اشاريات النص واحتمالاته. ومن ثمة فهي تجزم على أن النص ليس نظاما مقفلا، وإنما هو «تدال» تسهم في خلقه وانتاجه، فعالية الفهم الاستقرائي بوصفها فعلا توصيليا لمعنى ما، أو تحديده، أو حتى استكشافه وإنما هي عملية حفر أو بحث في المعنى. لذلك فإن التفكيكية لم تعلن نفسها بديلا للتحليل وإنما أكدت على التعددية التي تجعل النص يتوالد باستمرار، والقراءة تتفكك دون أن تصل إلى معنى محدد، على اعتبار أن استكشاف «الابستمية (فوكو) المعرفية وثوابتها في قراءة النص ليس هو الهدف الرئيسي للنص، فالهدف هو اختراق النصوص ذاتها واختراق الخطاب الذي يحجب الرؤية الصحيحة»^(١)

كيف تتصور إذن مستقبل النقد العربي أمام هذا الوعي النقدي المستجد على الدوام؟

ان مخاض الانفتاح على أفق نقدي جديد لم يأت دفعة واحدة، وإنما اقتضى سبلا من التحديات، والوثب على المؤلف، ودعا أيضا إلى تحقيق تفاعل رؤيوي بين حركية النقد وفضاء الابداع، تفاعلا توليديا أفضى على النص مزيدا من الدلالات والرؤى.

١ - سامي أدهم: ما بعد الحداثة / دار كتابات، ص ١٣٢

وجدير بهذه الرؤية أن ترفض النظرة القديمة للأشكال التعبيرية، وأن تتمثل رؤياوية المبدع من خلال تمثيلها للمضمون الانساني، وتجديد «الدال» في شكل المضمون من المعنى السائد وشحنه بدلالات جوهرية تجعل منه كيانا تعبيريا لا ينفصل عن المعنى الجوهرى، على اعتبار أن أبرز مبادئ الحركة الشعرية الحديثة حرية الابتكار التي تمنح النص شعريته من حيث الاندماج الكلي لمختلف الألوان والايقاعات عبر انصهار وجدان الذات ولغتها التعبيرية.

ولما كان «الكلام على الكلام صعب»(*) فقد أصبحت من مشكلات الناقد مواجهة النص بلغة تضيئه، غير أن الثورة النقدية الحديثة ليست مجرد مسألة قاموس لغوي بقدر ماهي إشكالية وعي أو «بنية وعي» ولذلك فإن الرفض لا يمس الأشكال والمعايير وحسب، ولكنه يمس أيضا بنية الفكر والمعادلات الفكرية، الأمر الذي أنضى بالوعي النقدي الجديد إلى تجاوز الموروث اللغوي نحو عمق النسيج النصي من الداخل في تشاكلاته، وتماثل ايقاعاته، وتداخل البنئ والتراكيب، والصور والمفردات وما تحدثه من فاعلية جمالية تتوسل حركيتها من تصاعد جدلية الداخل والخارج، والراهن والممكن، والمرجع والذات. وتبعاً لذلك فإن المحاولة النقدية المعاصرة تختزل هذه الأبعاد مجتمعة ومنفردة لا من حيث تواجدها كمحض تعبيرى وحسب، وإنما من حيث اندماج خصائصها بوصفها الوجه الآخر لرفض الثنائيات التي تفصل الواقع عن حقيقته، والنص عن حركيته، ومن ثمة «دعي الناقد إلى تفسيراتهم الماورائي والوطني والاجتماعي، واستكشاف البنئ والدلالات والصور التي لم تعتمد على المقارنة والتشبيه، بل أصبحت جزءاً من حركة الكتابة وإيقاعها العميق»(١) ولعل من سمات التعددية والاحتمالية وأكثرها تجلياً هو بروز مفهوم الكتابة الذي يختزل الأزمنة والنتوءات والأشكال الإبداعية.

(*) - لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكلها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن، وفضاء هذا متسع، والمجال فيه مختلف، فاما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شق النحو وما يشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر وعلى ذلك، ينظر: أبو حيان التوحيدي الامتاع والمؤانسة ٢/٣١٩.

١ - فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، ص ٣٨١٦

لقد تجاوز النقد الحديث حدود الوعي المطابق إلى إمكان تصور بناء نقدي مغاير أكثر أصالة، وأعمق ادراكا للواقع وللعصر إذ معنى أن تكون ناقدًا يجب الإحاطة بمنظومة الأفكار، وتلاقح المفاهيم التي تتحكم بوعي المجتمعات، وخرق ثابت معاييرها، وتصوراتها. لأن الإشكالية في النقد الحديث اتخذت أكثر من منحى أو تمثلت في أكثر من بعد. فلم تعد اشكالية قاموس لغوي نرفضه أو نشور عليه، ولا حتى اشكالية معادلات فكرية ورؤياوية نستلهمها ونعيد صياغتها، بل تجاوزت ذلك إلى استكشاف المصطلح المعاصر «والنقاد الذين بلوروا رؤى متكاملة نجحوا في القبض على المصطلح الجديد، وأدرجوه ضمن مسار منهجي، يقع في نقطة وسيطة بين الفلسفة والحضارة»^(١) سعيًا منهم لتفكك الملكة النقدية والذهن التحليلي الذي يخضع الصيغ والخطابات إلى مختلف سبل الكشف والاستقراء.

ولعل أولى تجليات النقد العربي الحديث هي الانتقال من المرحلة الوصفية / التفسيرية إلى التأمل الحدسي في صورة تساؤل مستمر يجعل من التعبير نشاطًا وأسأل، ومن التفكيك تحققًا لهذا الفعل. ولعل ذلك مايقود الخطاب الشعري الحديث إلى الثورة باستمرار على الذاكرة الجمالية نحو تكريس الكون الجمالي. فلم تعد القصيدة بناءً شعريًا متناسقًا بل أضحت فضاء دلاليًا لامتناهيا، يستبقي اللحظة ولايقولها، يستلهم الأشياء ولايسمىها «يومئذ أصبح على الشاعر أن يعيد الروح إلى الأشياء، أن يحمل قلق الإنسان وخيبته وشكوكه وتناقضات حياته، أن يكون نبي عصره»^(٢) لكننا نخشى أمام جموح التجربة في الخلق والتكوين وتخطيها حدود المألوف، من ضياع المعنى بين انفتاح النص وكثافته، وحدود التقبل الذي لايسفز النص وإنما يتقبله وحسب. ومن ثمة تعارض الاستجابة مع النص، لأن القارئ العربي مازال يقرأ على ضوء النظرة السطحية غير المتعمقة، وليس وفق رؤية تأويلية - تفكيكية نابغة من قناعة إبستمولوجية، وتوجيه ذوقي، وتهيي نفسي، وثقافة جمالية تعيد بلبله النص وخلق من جديد.

١ - المرجع السابق، ص ٣٩٤

٢ - خالدة سعيد: البحث عن الجذور، دار مجلة شعر - بيروت، ١٩٦٠، ص ٩.

ولاشك في أن غياب مثل هذا الحس النقدي بمعناه التفكيكي من شأنه أن يسيء إلى حركية الحداثة - بوصفها مشروع رؤيا مستقبلية - وذلك حين تنتهي القراءة النقدية إلى المكرور من العلل والدلالات في طياتها المألوفة، دون أن تعي طبيعتها الجدلية مما يؤدي - بالتأكيد - إلى الوقوع في الخلط بين المنهج والرؤيا، والمعنى والدلالة، والخيال والتوهم، والابداع والتداعي، إذ «لم يعد هناك من إمكانية للتعامل مع النص إلا بوصفه نصا بلا حدود، شكلا لا يحدد الأشياء ولكن يتشكل فيها، يترك للفوضى وللغموض وللحدس أن يقول، وتختفي سلطة الكتابة في لا سلطة هذا الشكل الغامض والجديد من الكتابة»^(١) وعلى القارئ أن يواجه سؤال المعنى بتعميقه وتقريبه من دلالاته الرمزية على اعتبار أن النص هو غير صورته الحقيقية القائمة في ذهن المتلقي الذي لا يستجيب لشفراته وإيقوناته، وإنما يقوم بإعادة انتاجها.

أمام هذا المد، يبرز تساؤل جذري ليس في نيته اختزال التفاصيل: كيف نصل النص بالقارئ؟ وكيف نصل القارئ بالنص؟

إن الشعر تواصل مع الغور الانساني المركوز في العقل الباطن أو الواعية الخفية بما تمتلكه من قدرة على استجلاء وظائف اللغة، وفهم تجلياتها الأكثر تعقيدا وإحياء، ولعل هذا ما جعل سعيد عقل يعتقد بأن «اللاوعي رأس حالات الشعر، ورأس حالات النثر الوعي»^(٢). ومن ثمة فإن مسألة التوصيل لديه لا تنفصل عن ماهية الوعي الباطن الذي يعتبره ملهم الحالة الشعرية ويتجلى ذلك من خلال تساؤله: «الحالة الشعرية كيف نقلها إلى المتلقي؟ ... نقل الشعر إذن يقتضي تعطيل الوعي في القارئ وأن أخلق فيه جوهرًا أشبه بالموسيقى وأخلعه على شاكلته بالذات»^(٣) ومثل هذه

١ - الياس خوري: الذاكرة المفقودة، ص ٧٤

٢ - ينظر: أوديب دورليان: بدايات الحداثة العربية، سعيد عقل ناقد / كتابات معاصرة ع

١٣ سنة ١٩٩٢ من ٢٦

٣ - نفسه، ص ٢٦

النظرة لاتؤمن بأفق انتظار المتلقي كما أنها تلغي أيضا عمق الحافة الجمالية التي تحمل أكثر من دلالة وتحتضن أكثر من بعد. وبالتالي فهو لايريد للقارئ أن يخلق أفق تلقيه، وإنما يسعى إلى أن يطابق حالته الشعورية مع النص وفق تشكيل فضاء تقبلي إيجابتي «يعطل بتعددية الأصوات وعي المتذوق ويتكون في لوعيه بأكثر مايمكن من مساواة لحالة الشاعر جوهرًا وشكل جوهر» (١).

ما من شك في أن القارئ هو الذي يبعث النض إلى الوجود ويحول إلى دلالة، وذلك حين يتمثل موقف الكاشف.

وقد أدرك النقد الحديث هذا الكشف حينما وعى بأن القراءة التفكيكية هي عملية حفر في العمق الماورائي للنص. بينما ظلت مهمة التوصيل في النقد العربي رهينة التجربة اللغوية والانفعالية التي يتنازعها الواقع، والمرجع، والذات واكتفت برفض الذاكرة الشعورية دون أن تمنح نفسها امكانية تجدد مغايرة تتجاوز حدود التلقي المألوفة.

وإذا كانت الحداثة قد صهرت التعارض المرجعي بين الدلالية الإبلاغية [الافهام] والدلالية التعبيرية [الاطراب] في بنية نصية تقيم نظاما لاينتمي إلى المعنى الأحادي فإن الأنا القارئة هي وحدها التي تمتلك امكانية تأويلها «إذ القارئ هو الذي يخرج بالأثر من حيّز الوجود بالقوة، إلى حيّز الوجود بالفعل» (٢) ومثل هذا الطرح لاينبغي له أن يصرفنا عن تساؤل جوهري لامناص منه يتعلق بكيفية قراءة الأثر الذي خاض فيه التأمل النقدي منذ أرسطو إلى بارت وكريستيفا وغيرهما ذلك أن النص ليس نظاما مغلقا كما تزعم البنيوية، وإنما هو فضاء مسكون بالاحتمال والتعدد والاختلاف ويوجد في شكل احتمال مرجأ يحيل على فرضيات تستدعي جملة من التساؤلات والتصورات تقع في فضاءات من الامكانات التأويلية من حيث

١ - ينظر: المرجع السابق، ص ٢٦

٢ - حسين الواد: من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل / فصول ع ١ / ٥٣ / سنة ١٩٨٤، ص

« اننا في القراءة نصب ذاتنا على الأثر والأثر يصب علينا ذواتا كثيرة، فيرتد إلينا كل شيء فيما يشبه الحدس والفهم»^(١) حيث يفتح النص شهيته لأغراء السؤال عن طريق استنطاقه وجعله يتفكك بنفسه. في حين يجب أن نفرق بين النص بما هو علامة مادية، والنص بوصفه متصورا ذهنيا جماليا في مخيلة القارئ وقد ميّز يوس Robert vous « بين النص الأدبي من حيث هو «علامة ملموسة» و«الموضوع الجمالي» مجسداً في وعي القارئ بالجمال أثناء القراءة»^(٢) ومن ثمة فإن حضور النص «الذال» وغياب النص «المدلول» يتطلب من القارئ أن يستكشف - استنادا إلى ترسب الخبرات القرآنية لديه - المدلول النصي بوصفه ذلك المتصور الذهني الغائب.

وبين الحضور والغياب يحاول القارئ الوصول إلى حالة افتراض يتشكل في مناخها أفقه التقبلي المبني أساسا على متعة جمالية متوقعة ومحتملة «تتضمن لحظتين: الأولى تنطبق على جميع المتع حيث يحصل استسلام غير تأملي من الذات للموضوع. والثانية غريبة بالنسبة للمتعة الجمالية إذ تتضمن اتخاذ موقف يؤطر وجود الموضوع ويجعله جماليا»^(٣) فالقراءة وفق هذا المنظور لاتخضع لمنطق الحكم المعياري، وإنما لموقف التأمل الرويوي الذي لا يخضع خضوعا مباشرا للنص ولكنه يبحث عما يخلق منه جمالية ما. وهو ما يتعارض مع التأمل الذاتي بخاصة وأن النص يتطلب مشاركة فعالة من القارئ في خلق أسرارهِ وفق ما يتمتع به من خبرة جمالية، والمأم بالموثوث الحضاري والجمالي للنص على اعتبار أن مختلف أشكال الفنون والآداب تحمل شفرات ذاكرية يجب الاطلاع عليها من خلال استجابة النصوص لها. ويبقى في امكانية المتلقي الامام بهذه الشفرات وما يفتوحه النص من اثرات معنوي ودلالي متميز.

١ - ينظر: المرجع السابق، ص ١١٥

٢ - المرجع نفسه، ص ١١٨

٣ - روبرت سي هول: نظرية الاستقبال، تر: رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار سورية، ط ١،

١٩٩٢، ص ٩٢.

وقد أبدى النقد العربي الحديث موقفاً إزاء هذه الأشكال المتنوعة من القراءات مثل الشرح والتعليق، والفهم والتفسير، والتفكيك والتأويل والتي تدعي في مجملها قراءة حدائثية تتجاوز حدود النص إلى عمقه الدلالي وهذا طموح مشروع طالما أن سؤال الحداثة هو سؤال الالتباس والابهام. والنشاط القرائي لا ينزع إلى يقين أو حكم وإنما من طبيعته اختراق الدال النصي بغية إنتاج المعنى الخفي واستحضار الدلالة الغائبة.

وطبقاً لهذا الرأي فإن القراءة بوصفها تصوراً جديداً بإمكانها أن تستثمر الحاضر / الغائب الدلالي، وبمقدورها إنتاج لغة جديدة تمكن القارئ من المعرفة الغورية بالنص وتقربه من مسافة الغياب والغموض.

واستناداً إلى هذا الأفق النظري، فإن خلاصة الوعي الانساني لاتنجم عن طموح تفرزه الذهنيات المؤسسة أو المجردة، وإنما تندرج ضمن عمليات تبليغية وتقبلية تعطي الأولوية لجذلية السؤال والجواب.

ومن ثمة فإن الأثر في تصور القارئ غالباً ما يكتنفه الغموض والابهام، مما يثير لديه الرغبة في الاكتشاف، فالنص يبرز عندما يبدأ المبدع والقارئ كلاهما في مداعبة الدال.

بيد أن كثيراً من القراءات المعاصرة لاتتميز بين أشكال التلقي السائدة كالفهم، والتفسير، والتأويل. فحيث يسعى الفهم إلى منح النص معنى، ويطلب التفسير بإيضاحه وإيصاله، فإن التأويل يبادر إلى تفجير النص وتفتيته «ولهذا لا يستجيب النص للتفسير، وإنما ينحو إلى الانفجار والانتشار. وتعددية النص لاتعتمد على ابهامه أو غموض محتواه وإنما على اتساع مجاله الإشاري»^{١١}. فالتفسير والفهم لا يضيئان النص، ولا يضيفان إليه شيئاً بل يبددانه، في حين هو كائن متعدد يحيا بفيضه الدلالي.

١ - ينظر: صبري حافظ: التنامس وإشارات العمل الأدبي / ألف البلاغة، ع ٤ سنة ١٩٨٤.

ومع تطوره أصبح النقد الغربي الحديث مسكونا بهاجس التأسيس
لإنفتاح المعرفي / الاختلافي، والمعرفي / التفكيكي عن طريق تخليص
الوعي النقدي من آليات الضبط الذاتي والميتافيزيقي. ووصله بالعقل
الفلسفي التواصل، وفق استراتيجية نقدية تبحث في أسرار الخفي، مما
أفججه إلى تنوع المدارس وغرائبية المصطلح، وتدفع المفاهيم.

وفي خضم هذه التعددية والاختلافية، يبحث سؤال النقد العربي
الحديث عن وجهه الآخر، سعيا منه إلى تمثل موقف مغاير، وإنجاز تصويري
نقدي جديد.

الفصل الرابع

سيمياء التشاكل

تشاكل الايقاع

تشاكل الاحتياز

تشاكل التضمين

يمكننا القول بأن البدايات الأولى للتحليل السيميائي، ظهرت في صورتها الجزئية من خلال تناولها لهيكل النص كبنية ذات مستويات متعددة. ثم ما لبثت أن تجاوزت ذلك إلى التجليات الباطنية التي لا يبيدها النص، ولا يملئها على المتلقي، وإنما يتمظهر من خلالها كخطاب ممكن، يحتمل أكثر من بعد دلالي، ويتراءى في أبعد من امكان تأويلي.

وفي ظل هذه الحركة النقدية مالت الدراسات العربية في الحقبة الزمنية الأخيرة إلى استلهاام النظرية السيميائية كتصور نقدي شامل يجمع بين رؤيا النص بوصفه دالا لمدلول أول، ورؤية القراءة النقدية بوصفها مدلولاً ثانياً، أو لغة تعيد إنتاج لغة أخرى.

وقد امتدت هذه الرؤى إلى النصوص الشعرية متسائلة عن أدبيتها (خصائصها الابداعية) إذ ليس النص هو ما يشكل موضوع الشعرية، وإنما هو مجموع الخصائص العامة أو المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة^(١) ومن ثمة صار البحث، في هذه الخصائص، باعثاً على مزيد من الكشف، ودافعاً إلى عالم الاحتمالات والافتراضات، وقد وجدت تجسيدا لها في هذا العالم لأنه أصبح في مقدورها مقاربة النصوص وفق منظور رؤيوي تأويلي يتعامل مع النص بوصفه متصوراً ذهنياً غائباً، وليس معنى جاهزاً. ولعل هذا ما أفضى إلى انحسار بعض المقاربات النقدية التي كانت رائدة في زمانها والتي لم يعد في امكانها اليوم احتواء الفيض الدلالي للنصوص الشعرية.

وهكذا فقد اتخذت المقاربات النقدية المعاصرة من القراءة مدخلا تأمليا تحاول من خلاله تفكيك النصوص وماتنطوي عليه من رموز ودلالات توحى بغموض مدلولاتها، وتحيل بدورها إلى ما لا نهاية من الدلالات المتوالدة، فيما تشكل شبكة من العلاقات بين وحداتها تجعل من النص مجالا أو فضاء لاختصاص خلايا الدلالة.

١ - ينظر: جرار جنيث: مدخل لجامع النص ثر: عبد الرحمن أيوب، دار طوقال المغرب

١٩٨٦، ص ٥٥.

ولعل التشاكل بمفهومه السيميائي الحديث، يمثل أهم اجراء نقدي بوسعه الاحاطة أو الاقتراب من هذه التعالقات الغامضة لما يمتلكه من قدرة على تجميع الرموز الميثوثة على امتداد نسوج النص المتوارية وإعادة تفكيكها.

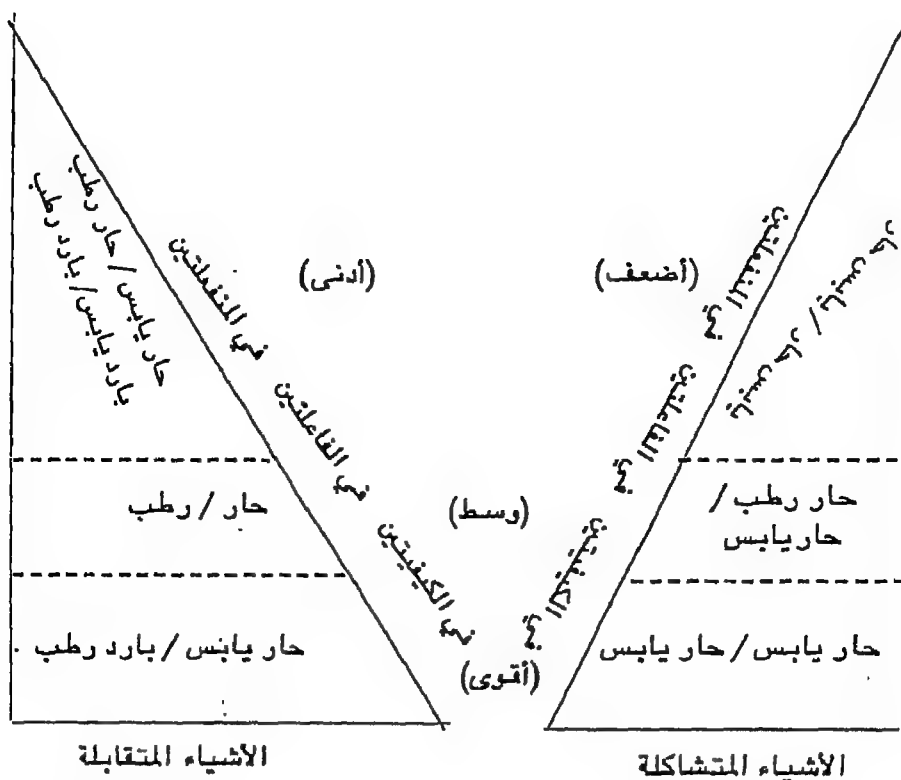
غير أن هناك تساؤلات جمة، لامناص من الخوض فيها تتمثل بالأساس في ماهية التشاكل كمصطلح ثم كداة ثم كاجراء نقدي.

١ - فمن حيث المصطلح فإن الدراسات العربية الحديثة أجمعت على أن المصطلح وارد عن المدرسة الغربية (غريماس) مع اشارات طفيفة إلى مجهودات بعض البلاغيين الذين حاموا حول هذه المسألة دون أن يلامسوا جوهرها «حيث ظلوا ينظرون إليها، لا على أساس أنها ظاهرة أسلوبية كلية، ولكن من حيث هي جزئيات وأطراف مشتتة تحت مصطلحات مختلفة أهمها: الطباق، والمقابلة، واللف، والنشر والجمع...»^(١).

لكن يبدو أن هذه النظرة لم تظفر بالعمق المعرفي للتراث العلمي العربي الذي أضفى على هذه المسألة أبعاداً شتى تتجاوز من خلالها المعطيات اللغوية في حدود تقابلاتها المعنوية والمفرداتية، والصوتية إلى تخوم المعرفة الغورية بالرعي الانساني المطلق على حد ما جاء لدى العلامة «عمر بن مسعود بن ساعد المنذري» «واعلم أن الأشياء المتشاكلة على ثلاث مراتب، أحدها أن تكون متشاكلة في الكيفيتين أعني الفاعلة والمنفعله معا كالحر اليابس مع الحر اليابس وهذا أقوى أنواع المشاكلة. وثانيها أن تكون متشاكلة في الفاعلتين فقط مثل الحر الرطب والحر اليابس. وثالثهما أن تكون متشاكلة في المنفعلتين فقط مثل اليابس الحر واليابس البارد وهذه المرتبة دون المرتبة الثانية لأن المنفعل يكون أضعف في الفاعل. وأما الأشياء المتقابلة أيضا على ثلاث مراتب. فالأولى وهي أقواها أن تكون

١ - ينظر: عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب، بيروت ط ١/ ١٩٩٤ م ٣٢

متقابلة في الكيفيتين معا مثل الحار اليابس والبارد الرطب، والثانية وهي أوسطها أن تكون متقابلة في الفاعلتين مثل الحار الرطب. وأدناها أن تكون متقابلة في المنفعلتين معا مثل الحار اليابس والحار الرطب والبارد اليابس والبارد الرطب» (١)، ولنا أن نوضح ذلك أكثر في هذه الرسمة.



١ - العلامة عمر بن مسعود بن ساعد المنذري: (كشف الأسرار الخفية في علم الاجرام السماوية والرقوم الحرفية) مخطوط والنص مختار من المخطوط نشر بمجلة (نزوى) العدد الأول ١٩٩٤، ص ٩٥٠.

من شأن هذه الرؤية التي تنتظر إلى المشاكلة والمقابلة على أساس من مشاكلة المتنافيات بين ماهو حسي وماهو مادي، وماهو سماوي وماهو أرضي، وماهو باطن (أي ما يؤسس جوهر الانسان في علاقته بالكون)، من شأن هذه الرؤية إذن، إن - هي أحيطت بالتفحص، وحظيت بالتأمل التفكيكي والتأويلي - أن تتحول إلى اجراء نقدي في ميدان سيمياء التشاكل، وليس مجرد أداة لترجمة المعاني إلى رموز ودلالات لاعمق دلالي لها.

٢ - أما من حيث الأداة فقد ألقينا مجموعة من الدراسات التحليلية لدى بعض النقاد سنأتي على ذكرها في حينها. لكننا نشير هنا فقط إلى أن هذه الدراسات استطاعت في مجملها أن تقارب النص من منظور رؤية تشترك من حيث اتفاقها على اتخاذ التشاكل كأداة إجرائية تسعى إلى فض النص من مستويات عديدة، وتختلف من حيث تباين المنظور الدلالي العام الذي يوجه كل رؤية على أنواع العلاقات التي تربط استعمال النص بمفاصله المتنوعة.

٣ - ومن ثمة فإن مسألة التشاكل كإجراء نقدي ثابت لما يكتمل بعد، فهو يرتبط بالمقصدية والاجتمعية والتواصلية عند محمد مفتاح، ويرتبط بالتبليغ والتداولية عند عبد الملك مرتاض، في حين يظل قائما على الاحتمالية والتأويلية الأدبية عند القادر فيدوح.

تشاكل الأيقاع

يظهر التشاكل عند محمد مفتاح في مشروعه النقدي من اقتناع ابستمولوجي يستمد مشروعيته من تكامل المعارف الانسانية. كالمنطق، والرياضيات، وعلم النفس، واللسانيات الحديثة، والفلسفة وتدخل جميعها في ظهور المنهج السيميائي الذي يرى بأنه أشمل نظرية لتحليل الخطاب الانساني^(١) وقد حاول في موقفه التوفيقي هذا أن يضيف أن يتخير أحيانا، ويعيد النظر والتنظير أحيانا أخرى.

١ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية الثامن) المركز الثقافي العربي / المغرب ط ١٩٨٦ سنة ٩.

ولذلك فنحن مدعوون لمتابعة خطواته التطبيقية من خلال استثماره المنهج السيميائي، ضمن هذا الإطار ارتأينا أن نختار عنصرا هاما من عناصر التحليل السيميائي يشترك فيه مع بعض النقاد الآخرين متمثلا في التشاكل / التباين بوصفه مفهوما علميا انتقل إلى حقل العلوم اللسانية والسيميائية. غير أنه يعترض على مفهوم غريماس الذي يتناول المقولات المعنوية وحسب من خلال تعريفه له بأنه مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل ابهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة^(٢) وباعتراضه على هذا التصور يكون محمد مفتاح قد عبر عن مفهوم غريماس للتشاكل بالقصور واضطراب المصطلح. ويبدو أنه أكثر اهتماما بتعريف براستي المتضمن كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت^(٣) غير أن الناقد يتصور مفهوما أكثر اتساعا يطل على أفق أرحب يجد تجسيدا له عند تعريف جماعة (M) التي تحدده في الشكل التالي: تكرار مقنن لوحداث الدال نفسها (ظاهرة أو غير ظاهرة) صوتية أو كتابية أو تكرار لنفس البنيات التركيبية (عميقة أو سطحية) على امتداد قول^(٤) وانطلاقا من تعريف بروسستي فإن نقد محمد مفتاح لغريماس يأخذ مجرى أعمق بحيث يرى بأنه أهمل الشرط السلبي لاهتمامه بالعنصر الايجابي، بالاضافة إلى أن قناعته بجماعة (M) لم تستمر على اعتبار أن مفهومها للتشاكل لا ينطبق إلا على الخطاب العلمي. وهذا يعني اقضاء الخطاب الشعري.

١ - نفسه، ص ٢٥.

٢ - ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٢١

٣ - ينظر: المرجع نفسه، ص ٢١

وهكذا يصل الناقد إلى مفهوم شامل يستقيه من مجمل هذه الآراء المتداخلة ويضيف إليها من عنده فيقترح تعريفا للتشاكل بوصفه تنمية لنواة معنوية سلبية أو ايجابية بآكام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية ضمنا لانسجام الرسالة (١). وتتمثل الاضافة إذن، في التداولية (أي علاقة المتكلم بالمتلقي وبالسباق وباستعمال اللغة). وتكمن أيضا في جملة من التشاكلات، بحيث لم تعد تقتصر على خطاب دون سواء، وبخاصة الخطاب الشعري بكل خصوصياته كالانزياح والمعجم الايحائي، وغيرها من الخصائص التي تشكل جوهريته ومقوماته الأدبية. وأهم هذه التشاكلات: تشاكل التعبير - المعنى - الايقاع.

أ - تشاكل التعبير: ويكون في الغالب في صورته التركيبية النحوية التي تحمل بالاضافة إلى وظيفتها الشعرية والجمالية وظيفة ابلاغية.

ب - تشاكل المعنى: ويركز على المشترك الدلالي لكل من المحمول، وموضوعه ويسمى محمد مفتاح هذا النوع من التشاكل: (التشاكل - الرسالة) ويجعل فاعليته الدلالية كامنة في فاعليته التواصلية، ويمثل شكلا من أشكال التداولية أو رسالة قصدية افهامية مما يجعل التشاكل الرسالة عاملا أساسيا في ضمان وحدة الخطاب (٢) وفي تصوير الناقد أن التشاكلات المعنوية غالبا ما تكون مبعثرة عبر انتشار الملفوظ فما يظهر منها في التشبيه بوضوح قد لا يظهر في الاستعارة.

غير أن التشاكل في اعتقاده - كأداة تفكيكية - تتعدى مستويات الخطاب الابلاغية والبلاغية إلى تشاكلات اسقاطية مثال تشاكل الانسان - الزمان.

١ - ينظر: نفسه، ص ٢٥

٢ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص ٢٧.

جم - تشاكل
الايقاع (١)
تشاكل الصوت: من خلال القيمة التعبيرية للصوت
تشاكل الكلمة: من حيث سميائية التقارب - التباعد - التكرار
اللعب بالكلمة بالاشتقاق والابدال والتقليب والتغيير

ويكون التشاكل تراكيبيا على مستوى المعجم بخاصة عندما تنحو القراءة نحو الطاقة اللامتناهية للرمز، أي نحو الكلمات ذات الأبعاد الإيحائية من وجهة تصور معجم إيحائي للخطاب الشعري. ولعل جون كوهن كان أكثر استكناها لهذه الإيحائية في مقابل معنى المطابقة إذ أن معنى المطابقة يجعل الكلمة عاجزة عن أداء الوظيفة التي تسندها إليها الجملة. ولكن المعنى الإيحائي يحتل مكان معنى المطابقة المعطل. حينئذ تتناسب الكلمات على المستوى الإيحائي فيعطي نوع من المنطق العاطفي معياره للجملة الشعرية (٢).

إن تعالق هذه العناصر جميعها هو ما يكثف من حضور الجوهر الدلالي لفهم العملية الإبداعية في تداعياتها المختلفة، ويكشف عن عمقها الجمالي، ولذلك فإن سيميائية التشاكل لاتفصل عناصر النص وإنما تصهرها في وحدة تركيبية تظهر من خلالها البنيات الخفية لجمل التشاكلات التي تتماهى ولغة الشاعر الاختراقية.

ويرى محمد مفتاح بأن السيميائية التداولية (التواصلية) هي دليل الشاعر في تفجير خطاب الشعري بحيث يتلمس أسباب هذا الخرق في الأسباب والآليات النفسية والاجتماعية التي تتحكم في الشاعر وتسيره، على عكس السيميائية الدلالية التي ألغت «الأنا» في الخطاب وألقت به إلى الآخر في فصلها بين الأنا والنص.

١ - ينظر: محمد مفتاح تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٣-٣٩

٢ - جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، م. م. س. ص ٢٠٢

ويتخذ محمد مفتاح من رائية ابن عبدون ميدانا خصبا لتجسيد رؤيته حول مبادئ التشاكل. ونلاحظ ذلك من خلال ما جاء لديه بشأن هذه القصيدة التي استطاع من خلالها الكشف عن مظاهر التشاكل العديدة سواء على مستوى الدلالة أو الایقاع. ومثالا على ذلك نورد هذا البيت الشعري:

الدهر يفجع بعد العين بالآثر
فما البكاء على الأشباح والصور

أ - فمن حيث ارتباط الصوت بالمعنى نلاحظ أن الناقد يجعل من هذا المركب معنى ما كشفيا يوغل به في الخطاب.
ب - كما أن الأصوات بذاتها توحى بمدلولات لايفصح عنها الخطاب مباشرة إذ أن تتابع العين يوحى بالعننة التي تفيد الاستمرار والترتيب والانتقال من درجة إلى درجة، ويدل تتابع الهمزة على التألم والرتاء^(١) فانسجام الصوت / المعنى الذي هو مظهر من مظاهر التشاكل الایقاعي يفضي إلى تفجير دلالة ما. ويسمي الناقد هذه الدلالة «بنية التوتر» يتمظهر من خلالها تشاكل الدهر - في جدالية وعي متطورة - كنساس لتساعد هذه الجدالية.

غير أن هذه الدلالة لاتخلو من الاستجابة القصصية في اكتنافها لمستويات الخطاب، بما يضمن للمخاطب فضاءا للتلقي المنسجم، هو الأمر الذي يدفع بالشاعر إلى خلق معجمه الخاص، بما يتناسب ووحدة الغرض «بيد أن الأصوات، وما توحى به من معان، والمعجم ومفرداته لاكفيان في فهم الشعر وكشف أسواره وإنما يجب أن يصاغ في تركيب»^(٢). لقد انتبه الناقد إلى أن مجال التشاكل قد يتعدى مجرد تكرار لوحيدات صوتية

١ - محمد مفتاح تحليل الخطاب الشعري، ص ١٧٥

٢ - نفسه، ص ١٧٥

ومعنوية ونحوية، بما هو نواة تتوالد وتتناسل لتنتقل من مستوى التركيب إلى مستوى الدلالة. محوِّلة بذلك البنية النصية إلى تبنيين مستمر يقوى بتنامي هذه التوالدات.

وقد أظهرت التطبيقات التي أجراها على رائية ابن عبدون امكانية ومقدرة واسعتين. كما كشفت هذه التطبيقات على أن جوهر التشاكل إنما يكمن في تعامله مع النصوص باختراقه الدال اللغوي.

فإذا كانت دلالة الحزن والزجر قد وجدت لها تجسيدا واضحا في تكرار بعض الأصوات الحلقية (آ. هـ. ع. ح) والشفوية فإن هذا التشاكل لا يكتسب دلالته الكاملة إلا في علاقته بالتشاكلات الأخرى.

ولذلك فقد ألفينا محمد مفتاح يركز على تظافر التراكيب لتشكيل كلاً جمالياً من خلال تعالقاتها. بحيث لا يمكن لأي وحدة سواء أكانت صوتية، معنوية، أو نحوية أن تكتسب دلالتها إلا بوجودها ضمن وحدات أخرى.

ان تشاكل الدهر / الفاجع، الدهر / الحرب، الدهر / الغادر لا يكتسب دلالته من مجرد وصيده المعجمي، أو تكرار لوحده الصوتية والنحوية وحتى المعنوية، وإنما يكمن هذا التبنيين «التشاكلي» في بعض المعطيات التأويلية. فبالإضافة إلى مقصدية الشاعر وموقفه الرؤيوي من الدهر. هناك بعض المصاحبات التي تضم من الدلالات ما يكشف عن المضمون الدلالي - الجوهري للخطاب الشعري ومثال ذلك معينات الضمائر التي تسند للخطاب وظيفة شعرية. أما المصاحبات والمتمثلة في الدهر / المرأة، الدهر / الحية فإنها تماثل أو تشاكل في مدلولها العام الأذية.

وبذلك يكون محمد مفتاح قد وسع من مفهوم التشاكل، حين تجاوز تراكم الوحدات إلى تناسل النواة، أو بمعنى آخر حينما أعطى له مدلولاً أوسع، يحتضن أكثر من دلالة، ويرتبط بالعمق الدلالي للخطاب، وليس بحسب مظهراته اللغوية. ولذلك فهو بحث مستمر عن تبنيين أقوى يتعدى البنية ليدخل في معنى التبنيين.

تقوم رؤية الناقد محمد مفتاح على النظرية الإيقاعية التي تحتضن الأبعاد المتعددة للأصوات، وخصائصها النغمية، ومؤثراتها، فيما تحدثه من تناغم وتناسب، وانسجام. وبذلك فإن تشاكل الأصوات لديه، يمتد ليشمل تشابه الأصوات، وتطابقها، وتقابلها، وتكرارها، وتراكبها. وبالإضافة إلى رمزيته، فإن التشاكل الإيقاعي يعتمد على الاشتراك في الأصوات والتناغم بين الألفاظ. ولا يخفى علينا بأن تعامل الدراسات النقدية التراثية مع التشاكل الإيقاعي، كان تعاملًا جديًا، وعميقًا التأمل ولم يكن مجرد إشارة جزئية. ولا شك في أن خير من يمثل هذه الرؤيا حازم القرطاجني الذي قارب المسألة (أي تشاكل الإيقاع) من وجهة نظر تقترب في مجملها من منطق تقارب الحروف وتباعدها، واختلافها واثتلافها، وانتظام الأصوات وتنافرها، وتناسبها وتناغمها «ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه. والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء: منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى اثتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها واثتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة الخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما، ومنها ألا تتفاوت الكلم المؤلفة في مقدار الاستعمال فتكون الواحدة في نهاية الابتذال والأخرى في نهاية الحوشية وقلة الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن تكون احدهما مشتقة من الأخرى مع تباين المعنيين من جهة أو جهات أو تتماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها، ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها» (١)

أ - وقد جعل محمد مفتاح من تشابه الأصوات وتطابقها دلالة على تطابق المعاني لينسحب بذلك التشاكل إلى كل من الحروف، والأصوات، والمعاني، من حيث التشابه والاشتراك والتطابق ويورد مثالاً على ذلك البيت الشعري الآتي:

١ - أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلقاء وسراج الأدياء، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨١، ص ٢٢٦.

كم دولة وليت بالنصر خدمتها
لم تبق منها - وسل ذكراك - من خبر

فالتشابه الحاصل بين الأصوات والمعاني، جعل الشاعر يختار ألفاظا معجمية في الشطر الأول ترجع إلى مجال دلالي وحيد رتبت عن طريق التداخي. فـ «(دولة، وولي، والنصر، والخدمة) تكون مجالا دلاليا منسجما» (١) - وفق هذا المنظور - يبدو أن القيمة الدلالية والايقاعية للأصوات، تنسجم مع المعطى الوجداني للقصدية القولية وهو ما يسعى لتأكيد الناقد.

ب - تناغم الألفاظ وتقابل الأصوات
بحيث نجد لهذه الفاعلية قيمة نغمية تجسد تشاكلا ايقاعيا أوضحه الناقد من خلال البيت التالي:

هوت بدارا وقلت غرب قاتله
وكان غضبا على الاملاك ذا أثر

«فوظيفة الأصوات الهندسية واضحة كل الوضوح في البيت، إذ جاءت أصواته متناغمة مترددة يأخذ بعضها برقاب بعض، وربما كانت الأصوات الموجهة المقام عليها بناء هذا البيت هي أصوات الحلق مثلا (هـ) و (غ) و (ع) و (أ) ويفترض في هذا السياق أنها تعني العنف وهي حينئذ تقابلها أصوات أخرى لبنية تتجلى في صوتي اللام و«الميم» (٢) ان استجابة الألفاظ لهذا التقابل بين الأحرف من حيث الليونة والقوة هو أيضا استجابة لبنية ايقاعية تضررها الدلالة الصوتية لهذه الأحرف، بحيث تقيم بناءها على تناغم ايقاعاتها الصوتية وهو ما يعد تشاكلا ايقاعيا.

١ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ١٩٩.

٢ - نفسه، ص ٢٠٢.

جـ - رمزية تشاكل الصوت

وتتجلى رمزية تشاكل الصوت من خلال ما يكسبها إياها المبدع باشتقاق المعاني، أو ما يضيفه عليها القارئ بالتأويل، وفي اعتقادنا أن الناقد في رصده لتشاكل الدهر يعتمد على القيمة التعبيرية للصوت كأنما اللفظ دليل على معناه والأصوات دلائل على ذاتها.

د - تكرار الأصوات

ويضيف عليه الناقد بعدا سيميائيا بوصفه بنية لا تنفصل عن النواة الكلية للمعنى، بل هي تسهم في خلق المعاني، وضمن هذا المنظور فإن كل تكرار للأصوات هو أيضا تكرار للمعاني ويعبر البيت التالي:

وما أقالت ذوي الهيئات من يمن
ولا أجارت ذوي الغايات من مضر

يعبر إذن عن معنى مكرور تحمل صداه أصوات مكرورة ومن ثمة فإن القيمة التشاكلية لهذا البيت هو فيما يحدث من ايقاعات مشتقة من جملة هذه الأصوات.

هـ - الاشتراك في الأصوات

إن تجاور الألفاظ وتقابلها، وتباعدها وتقاربها، وتناسبها وتنافرهما هو من العوامل الشعرية التي تحظى بتناغم ايقاعي، غير أن الاشتراك في الأصوات يخلق نوعا من التناغم الموسيقي، وبالتالي فإن سيميائية التشاكل الإيقاعي تجعل من الاشتراك في الأصوات مقوما جماليا وموسيقيا. وتظهر القيمة الإيقاعية لهذا المقوم في البيت الآتي:

أو دفع كارثة، أو ردع أرفة
أو قمع حادثة تعى على القدر

تظهر القيمة التشاكلية إذن من خلال مايزخر به من اشتراك في الأصوات ومايصاحبه من تدفق ايقاعي.

و - تراكم الأصوات

ويرتبط بتساوي معاني الكلمات، والتعادل في تركيبها النحوي، والتطابق في الأصوات التي تندمج في حقل دلالي واحد. وهكذا فإن سيميائية التشاكل ايقاعي تحمل تنوعا مكثفا، وتقارب الخطاب الشعري من منظور مغاير يحتمل تواجد وحدات ايقاعية يمكن استدراكها من خلال المماثلة الصوتية، سواء بالتكرار أو الاشتراك أو بالتطابق والتشابه.

وعلى الرغم من أن تراثنا النقدي لم يغفل هذه المعطيات إلا أنها لم تتعد حيز التعارض الدلالي بين اللفظ والمعنى من حيث تقارب الألفاظ وتناسبها، وإن حظيت ببعض التأمل الواعي الذي تمثلت نتائجه فيما بعد الروى النقدية الحديثة بتنمية نويات ذلك التأمل.

ان انفتاح الدال النصي على التعددية فتح المجال واسعا أمام الفهم والتأويل. وأصبح في مقدور القراءة الحديثة تناول النصوص من منظورات احتمالية تفترض فيضا من التأويلات، وبذلك فقد تعددت المفاهيم النظرية، لا من حيث تعاملها مع النصوص فحسب ولكن من حيث التصور المنهجي الذي تقترحه.

وفي هذا الشأن ألفينا مقولة التشاكل تنصرف إلى جملة من المفاهيم التي تتفق جميعها في استكشاف النص وحمولته الدلالية، غير أنها تختلف في تطبيق هذه الأداة الاجرائية من باحث إلى آخر.

فهل يعني ذلك أن المفاهيم النقدية الحديثة تحيل على الاختلافاني والتعددي؟ أم أن أفاق التقبل لدينا محدودة بحيث لا تتجاوز ظاهر هذه المفاهيم.

فمفهوم التشاكل عند محمد مفتاح لا يعد مجرد أداة إجرائية لتحليل النصوص بل يتخذ مفهوم النظرية في اقترابه من الفحص والقراءة الاستنتاجية اعتباراً من مفهوم التشاكل «الكريماصي» «ولا يعزب عن بال المهتمين أن هذا المفهوم خضع لتطويرات وتوسيعات مما جعل منه نظرية لتحليل النص من جميع جوانبه شأنه شأن كل مفهوم موسع. وإذا أخذناه بمفهومه الموسع فإنه سيتداخل - لا محالة - مع مفاهيم التوازي والتنضيد والاتساق، ولذلك فإننا نشير فقط إلى خاصية يمتاز بها من غيره وهو التحليل بالمقومات الذاتية وبالمقومات السياقية، مما يجعله يجمع بين التحليل المفردى والتحليل الجملي والتحليل النصي ويتجاوز المعاني الظاهرة في النص إلى إحياءاته الكاشفة عن التصور الانطولوجي والمعرفي والعاطفي للإنسان، وعن حاجاته وآليات اشباعها عبر المتخيل والمعتلن» (١).

وما يمكن ملاحظته هو أن التحليل بالمقومات لا يقتصر على الدلالات المباشرة للألفاظ، وإنما يعتمد في أساسه على استخلاص دلالاتها الخفية والتي تعرب عن نفسها، ويبقى للقارئ دور المؤول الذي يقرأ الباطن المستور فيما هو يربط بين النص وسياقه الإشاري وخصوصاً في أثناء تحليل مفرداته.

تشاكل الاحتياز

على غرار مانجده عند محمد مفتاح، فإن مفهوم التشاكل عند عبد الملك مرتاض، ودلالته كأداة سيميائية تحليلية، يستمد أولياته من مفهومي كل من غريماس وبروستي. غير أنه يسعى إلى اتخاذ صيغة مغايرة، ومغزى ذلك، أن «المشاكل أو التشاكل فرع من فروع السيميائية، وغايتها تتمخض لخدمة الدلالة عبر الجملة وبالتالي عبر النص، وبالتالي عبر الخطاب الأدبي. فهي إذن تستخدم في الكشف عن العلاقة الدلالية، بواسطة

١ - محمد مفتاح: التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٤م

الاجراءات التحليلية لتتخذ معنى خصوصيا يجب أن يتسم بالجدة والتشاكل يتألف من مكرورات «intinativite»، أو متواترات عبر سلسلة تراكبية كما يتألف من أصناف سيميائية تحفظ للخطاب الملفوظ تناسقه، وبناء على ذلك فإن أي تركيب يمكن أن يجمع في نفسه صورتين معنويتين على الأقل فيعد السياق الأدنى الذي يتيح إنشاء تشاكلة»^(١) وكما هو وارد لدى الناقد، فإن اجتماع مقومين معنويين بإمكانه أن يفضي إلى مشاكلة أو تشاكل، ويحيل بالتالي إلى دلالة ما. وذلك طبقا لمقولة غريماس حول اجتماع المقومات المعنوية. كما يتعرض عبد الملك مرتاض إلى اقتراح راستي F. Rastier الذي ينصرف مفهوم المشاكلة لديه إلى أنها «تكرارية لوحداث ألسنية تنتمي اما للتعبير واما للمضمون وهي على سبيل التجاوز والتوسع كل بدعة «Recurrence» لوحداث ألسنية»^(٢) متعاقبة، وتشتمل هذه الوحدات على مختلف العلاقات ليربط لقضاءات النص، من هذا المنظور يبلور عبد الملك مرتاض مفهوما مؤقتا على اعتبار أن التشاكل عنده يراد منه: «تشابك لعلاقات دلالية عبر وحدة ألسنية إما بالتكرار، أو بالتماثل أو بالتعارض سطحا وعمقا، وسلبا وإيجابا»^(٣).

وبناء على كل ذلك يمكن رصد ما توصلت إليه الدراسات لتوضيح البنى الدلالية التي أفرزتها المعايير التركيبية للمكرورات وفق هذه الاستنتاجات:

أ - نلاحظ اشتراك كل من محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض حول مفهوم التشاكل من حيث ارتباطه بدلالة المعنى بوصفه يقوم على تكرارية وحداته الألسنية من جهة. ومن حيث استقاء معرفتهما بهذا المصطلح من المصادر الغربية المشتركة.

١ - عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية،

ص ٤٢.

٢ - ينظر: عبد الملك مرتاض. شعرية القصيدة، قصيدة القراءة، ص ٤٢.

٣ - المرجع نفسه، ص ٤٣.

ب - جوهر الاختلاف بينهما هو أن الأول يؤكد على التداولية في حين لانجد لها ذكرا عند الثاني الذي لايركز عليها في تنظيراته ولكننا نعلمسها في تطبيقاته.

ج - يمثل التشاكل الصوتي والايقاعي عند محمد مفتاح جانبا عميقا في تشكيل وبنية الدلالة، في حين لوجود لذلك - إلا نادرا - عند عبد الملك مرتاض.

د - يقارب عبد الملك مرتاض التشاكل - التباين من جانب يطلق عليه زاوية «الانحصار - الانتشار» ويسعى من خلاله إلى الانتقال به من مستوى الأداة إلى مستوى الاجراء.

هـ - يرصد جملة من التشاكلات المتنوعة، ويطلق عليها اصطلاحات معينة مثل:

* التشاكل الملائمي - التلازمي - الانتشاري - الاحتيازي - المورفولوجي - الخبري - الانشائي...الخ.

* مايمثل تشاكلا وحسب: مثال: الجملة الشعرية التالية: هل عرفت أعينكم في الأرضة المهجورة معنى الدمع (١)

وبالتالي فإن هذه الجملة تحتوي على تشاكل تراكيبي يشتمل على جملة من المقومات أهمها:

مقوم الانتشارية } أعينكم — الدمع — تشاكل معنوي تلازمي (البكاء)
الأرضة — المهجورة — تشاكل معنوي تلازمي (التشرد)

* مايمثل تباينا وحسب: مثال ذلك:

أين الضوء ؟ شبح امرأة ظل ينادي وجهي، من خلف الليل
الضوء / الليل — تباين

من حيث أن الضوء انتشاري المعنى والليل انحصاريه. فالضوء

يكشف ويظهر، والليل يخفي ويبطن» (٢) ؟

١ - ينظر: عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، ص ٤٤.

٢ - المرجع نفسه، ص ٤٨.

* ما يشكل تشاكلا وتباينا معا. ومثال ذلك:
نخيل الجنوب — كروم الشمال — تشاكل / تباين (١)

فالتباين يظهر في الانتساب إلى المكان (المكانية هنا تصبح معنا دلاليا) بحيث أن البيئة الصحراوية هي ما يلائم النخيل عكس الكروم التي لاتجد ما يلائمها من المناخ إلا في الشمال. أما تشاكل جنوب / شمال يظهر من حيث كونهما ينتسبان لقضاء المكان وهنا نلاحظ ازدواجية الدلالة المكانية.

ان الذي أراد أن يصل إليه الناقد من خلال «مقاربة تشاكلية تحت زاوية الاحتياز» هو أن التشاكل بإمكانه أن يصبح مبحثا سيميائيا قائما بذاته، ومن شأنه أن يكشف عن مستويات خفية لا تدلي بها التظاهرات السطحية للنسيج النصي. ويقتدي التشاكل في هذه الحال ميدانا لاختبار متون اللغة ودلالاتها ويقضح انزياحاتها، ويعمل على تتبع فلتات المعنى المنتشر والمبثوث على ظاهر النسيج النصي.

ويقترح عبد الملك مرتاض نموذجا يقول بأنه جديد وصالح لكل ممارسة سيميائية تزعم الحداثة، وتتبنى المغايرة والاختلاف. وهذا النموذج التشاكلي هو ما يطلق عليه «بالتشاكل الاحتيازي» ويبادر إلى تبديد أية تساؤلات مسبقة بشأن هذا المفهوم غير المتداول في ميدان السيميائيات لنصية ليؤكد «بأنه لا ينبغي له أن يكون غريبا حيث إنما هو آت من حاز يحوز الشيء إذا امتلكه وآل إليه، فيكون الاحتياز هنا مرادفا للمتلاك. هذا لغة، أما من حيث المفهوم الاصطلاحي فإن الاحتياز يقوم على النزعة الذاتية التي تجسدها الأنا المفترسة في النفس البشرية» (٢) غير أنه يميز

١ - ينظر: عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، ص ٥٩.

٢ - ينظر: عدنان حب الله: التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان، مركز الانماء القومي، ص ٧.

بين «أنا» الذات الايروسية «EROS» المتمثلة في الحياة، في التوالد، في التعايش المشترك، في الابداع، والانتاج الانساني وبين «أنا» الذات التدميرية «Thonatos» ليؤكد على أن قضاء التشاكل الاحتيازي الذي يدور إليه إنما يصب في حيز الأنا الايروسية.

ان حرص الناقد الشديد على تبني هذا المصطلح نابع من تأكيد المستمر بأنه اصطلاح اجرائي - نقدي حديث تَضطلع به السيميائية التشاكلية في سعيها إلى امتلاك أدوات إجرائية أكثر حداثة تمكنها من استكناه أعماق لمقاليق النص وفك رموزه. ويعود ليؤكد هذا المغزى من خلال قوله «بأن مصطلح «الاحتياز» الذي تقترحه استعمالا لأول مرة في تحليل نص، استوحيناه من مفهوم «المشاكلة» حيث أنه لايمتنع أن يكون فرعاً من فروعها التي ستيدي عنها الدراسات التطبيقية الرصينة المتعمقة»(١).

وكما أوردنا - على حد ما جاء لدى عيد الملك مرتاض - فإنه ما يدخل في زاوية الاحتياز يرتبط بدلالات الامتلاك (التشاكل الامتلاكي) وفرض الأنا (الأناي) ويسط الذات (المتذاتي). إلا أن الرؤية التأملية للناقد ترفض كل تقسيم أو تمييز بين هذه التشاكلات إلا من باب بسط الرؤية، وتوضيح المفاهيم. والمسالك التحليلية.

والواقع أن الميدان التطبيقي لهذه الرؤية يكشف عن تصنيف لايعدو كونه اصطلاحيا كما يزعم، وإنما تجد تجسيدا لهذا التصنيف من خلال الخصائص أو المقومات التي ينسبها لكل صنف من هذه الأصناف. ويتضح ذلك أكثر من خلال ما جاء لدى الناقد نفسه حين يقول: «فإذا كان الصنف الأول من التشاكل ينصرف إلى تجسيد القدرة على الامتلاك أو التطلع إلى احتواء هذا الامتلاك، أو الاعتزاز به ثم إذا كان الصنف الثاني ينصرف إلى

١ - عيد الملك مرتاض: شعرية القميذة قميذة القراءة، ص ٨٩١.

روح المبادرة والاصرار على الفعل أو على الصراع أثناء ممارسة الفعل، فإن هذا الصنف قصاره التعلق في أغلب شأنه بعلاقة خارجية» (١) فعلى الرغم من القاسم المشترك (الاحتيازية) إلا أن فضاء التقبل لدى القارئ ينصرف إلى بعض التباينات التي تدعمها مقومات مختلفة، من ذلك أن التشاكل الامتلاكي تتقاسمه أشياء مادية ملموسة، وأخرى ذهنية أو حسية سواء بالافصاح أو بالاستناد وهو يتجه إلى الاسم [لغتي - حصاني، وجهي، عيني...] في حين يرتبط التشاكل الاناني بالفعل [تأكل - نشرب - نفترق - أمشي...] و [يتملكني - يفضحني] من حيث كون الذات في هذا الحيز التشاكلي فاعلة ومفعول بها وهذا يعني أن ما لـ (س) لا يمكن لـ (ص) أن يظفر به، وما لـ (ص) لا ينبغي لـ (س) أن ينتهي إليه. ومثل هذه التفرقة لاتصهر المتشاكلات في معنى دلالي واحد، وإنما تجعلها تتفكك باستمرار.

واعتقد أن التناقض الذي انتهى إليه عبد الملك مرتاض فيه جانب من الايجاب. إذ من طبيعة العلامة أن تحيل إلى ما لا نهاية من العلامات. ومن ثمة تبدو سيميائية التشاكل أشبه بسيميائية العلامة التي تحيل فيها كل واحدة على الأخرى فتغتدي أولية وثانية وثالثة ...

وإذا كان التشاكل لدى عبد الملك مرتاض يقوم في أغلبه على تساري الوحدات من حيث بنياتها التركيبية والدلالية والنحوية فإنه في موضع آخر ينشأ على مقوم المعنى أو كما يعبر عن ذلك بـ «تراكم الانتشار المعنوي» (٢) وتنهض هذه الفكرة لديه على وحدة الزمن ولتوضيح ذلك نورد هذا المثال:

واذكر من شتاء القرية النضاح فيه نور

١ - مرجع نفسه، ص ١٢١.

٢ - ينظر: عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري «قراءة مستوياتية لقصيدة شناسيل ابنة الجلبي» تحت النشر.

وبذلك فإن الفعل «أذكر» يحمل دلالة زمنية مبتدئة من «الماضي» منتهية إلى «الحاضر». وبالتالي فإن هذا الفعل الحركي ينطوي على دلالاتي الانتشار والانحصار «وبهذا المنظور من القراءة يمكن أن نلقي في «أذكر» تشاكلا وتباينا معاً» (١). وكذلك الشأن بخصوص شتاء القرية النضاح الذي يتخذ بعداً انتشارياً من حيث التسرب والسيلان أما دلالة «النور» فقد تجسدت في بعدها الانتشاري والانحصاري من حيث كون النور ينتشر في أثناء الظلام غير أنه ينتهي إلى مسافة معينة يحددها البصر وبذلك فإن التقاء هذين المستويين يعد تبايناً وتشاكلاً معاً ومن ناحية أخرى فإن هذا المقوم «اشتمل على الانتشارية والانحصارية معاً فتكون الانتشارية مما يؤكد تشاكل الكلام، والانحصارية مما يؤكد تباينه والحالان تفضيان إلى حمولة دلالية متسعة بالكثافة» (٢).

وهكذا فإن القراءة التفكيكية التي يسعى إليها عبد الملك مرتاض تحاول أن تصل إلى مدلولات متعددة لا يمكن للنص وحده أن يستكشفها، وإنما يظل قابلاً لاحتوائها فيما تظل الذات القارئة - بفضل ما تملكه من أداة استقرائية - تنقب عن معان ودلالات بوعي تحليلي، وتبصر تأويلي، وفي هذا الشأن فإن تشاكل الاحتياز والانتشار الذي يبحث في دلالات خفية لايفصح عنها النص الشعري المدروس وإنما يتحول إلى مفهوم اجرائي لا يكاد يتجاوز المدلول الذي جاءت به الدراسات النقدية من أنه تراكم لوحداث معنوية وصوتية، وتركيبية، غير أنه ينم عن جهد نقدي لا يستهان به في مجال سيميائ التشاكل التي يجعل منها نشاطاً لإنتاج قراءة متعددة، ومن ثمة فإن التشاكل الاحتيازي والانتشاري الذي يبرز على مستويات لغوية، ونفسية، وانطولوجية، واجتماعية لا يتعامل مع المظاهر الجزئية لهذه المستويات وإنما يلج في ما بعدها لتكتسب بذلك عمقها الدلالي في النصوص. وبذلك، فقد جاءت تطبيقات عبد الملك مرتاض على نصوص شعرية عربية ضاربة في العمق.

١ - المرجع نفسه، ص ٣٦

٢ - المرجع السابق، ص ٣٧

وتجدر الإشارة إلى أن الجهد النظري الذي تفرد به عبد الملك مرتاض فيما يخص تشاكل [الانتشار - الانحصار] كان قد استلهم النقد العربي الحديث من قبل، ونشير هنا إلى كتاب [جدلية الخفاء والتجلي] لكمال أبوديبي الذي أفضت قراءاته البنيوية إلى نوع من التحليل الكيماوي الذي يتعامل مع المفردة في طبيعتها البصرية والفيزيائية. ويكون بذلك قد أشار إلى الدلالة الانتشارية للضوء التي هي سمة الانفتاح، والدلالة الانحصارية للظلام التي هي سمة الانغلاق (١) غير أن عبد الملك مرتاض استطاع أن يقلب المعادلة ويحولها لصالح التشاكل - التباين وبذلك فقد أنشأ أفقا معرفيا - تناصيا.

إن سعي عبد الملك مرتاض إلى تطوير مفهوم التشاكل، والانتقال به من مستوى الأداة إلى مستوى الاجراء، يظل مبحثا سيميائيا مفتوحا على الاحتمالية والقراءة المتعددة، التي تقارب هذا المفهوم بروى متباينة قصد اثرائه، واعطائه مجالا أوسع للتجريب، والمقارنة، والفحص، ولتجعل منه اجراء نقديا وتحليليا يضيف إلى مجال الرؤية النقدية الحديثة وعيا مغايرا بمعرفة النصوص واستقرائها.

تشاكل التضمين

تنحصر هذه الرؤية باتجاه أدبية التأويل التي تستمد مفاهيمها من مبادئ الاستقراء في تمييز النصوص عبر مجموع خصائصها العامة، بحسب ما تمليه فعالية الفهم التأويلي. ومبعث ذلك أن النصوص تختلف من حيث أدبيتها وخصائصها الجوهرية، ومن ثمة يتعين على كل قراءة تدعي مثل هذه المبادئ استقصاء النصوص، واستكشاف مكوناتها الباطنية الموحى بها من خلال تمظهراتها اللغوية. ولذلك فإن ارتباط هذه الرؤية بعالم النص الباطني من شأنه أن يتعدى «في تعامله مع النص النقدي

١ - ينظر من ٧٢ من الكتاب.

حدود العرض، والتفسير والتحليل، إلى إعادة بنائه من جديد ضمن ما تقتضيه القراءة التأويلية، الاستنطاقية لمقومات هذا النص في علاقاته السياقية المشروطة...»(١).

لاشك في أن هذه الرؤية تكشف عن تطلع مبكر لمبادئ السيميائية التأويلية في دراسات عبد القادر فيدوح، والتي نجد لها تصورا شاملا يقترب من المنحى التحليلي المعاصر في «دلائلية النص الأدبي» بحيث يستمد الناقد بعض تأويلاته من التراث الفلسفي، والموقف التاريخي، ليضيف إلى رصيد المعرفة بالنص مدخلا تأمليا يستلهم تشاكل الباطن المتعدد «لاستكشاف البعد التأملي بحيث يخلق من النص الأول، نصا ثانيا يتشظى في نص آخر، فتقترب النصوص فيما بينها لتشكّل مجريات التناسل من خلال تفكيك الصورة الكلية إلى وحدات جزئية يكون التأويل فيها متسارعا مع وحدة الرؤيا الممكنة»(٢).

فما مفهوم التشاكل وفق هذا المنظور؟ وكيف يكتسب عمقه الدلالي؟

على الرغم من احاطة الناقد بما جاء لدى كل من غريماس وبروستي حول مفهوم التشاكل، إلا أنه لم يحصر نظريته في عامل التأثير، بل هو ينزع إلى توسيعه إلى نوع من التشاكل الذي يستوجب الانفتاح على أفق التأويل في مناخ من التلقي الحر، الذي لا يضمن للمتلقي حدود تلقيه ضمن قصيدة معينة، وإنما يترك الاستجابة النصية خاضعة لمدارك القارئ، وأفقه التقبلي بما ينسجم مع رؤيته بما هو منتج لدلالة ثانية أو نص ثان.

١ - عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٢، ص ٩٢.

٢ - عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط ١ / ١٩٩٣، ص ٣٠.

وبذلك يمثل تشاكل التضمين الذي يقترحه عبد القادر فيدوج تجسيدا واضحا لانصهار الموضوع في المحمول على اعتبار أن حركة الفعل تختلف في الزمن وفي الدلالة أيضا. لذلك فإن مظاهر هذا التشاكل «تتوالى في قوامها الدلالي للفعل، بين الموضوع والمحمول، وفي تراكم هذه الأفعال كمحرك للأزمة التي تبرهن على حضور الشاعر في موقف الفاعلية الاجرائية لخلق الذات وليس في موقف المفعولية» (١). ومن ثمة يتحول التشاكل لديه إلى نوع من التحقق الجمالي والتأثري والانفعالي «ضمن مناخات حرة تساعد المستقبل في أن يتفاعل مع المعنى وفق رؤياوية التأويل التي تمنح العمل نوعا من الحرية في وظيفة الخطاب الشعري الذي من شأنه أن يجمع بين المتناقضين وفي ذلك الجمع غرابة هي سر قبول الشعر والتلذذ به» (٢).

إن رؤية الدارس لتحليل النص قائمة على الكيفية التي ينبني عليها النص، وتتماسك بها معالنه. ذلك أن وحدة النص ودلالته مرهونة بالسياق الذي تتضمنه الوسيلة التي يتحقق بها، ومن هنا يعطي للوحدة اللغوية مكانتها في حركية التضمين، ولعل اهتمام الناقد بالفاعلية التضمينية مايؤكد على اعطاء النص وحدته الشمولية بين جوهر الكلمة وفعاليتها التركيبية. من هذا المنظور، يدخلنا الناقد - دون وعي منه - إلى ربط النص بالظاهرة الأسلوبية والتي - هي بدورها - تعكس صورة اللسانيات بوصفها ظواهر لغوية تحدد مستويات النص. فالتضمين على هذه الشاكلة - عنده - عبارة عن تمايز الجمل والعبارات في السياق المحدد الذي يتحقق به النص، سواء أكان الأمر في فاعليته التركيبية، أم في فاعليته الدلالية.

١ - عبد القادر فيدوج: دلالية النص الأدبي، ص ١٩٠.

٢ - ينظر: المرجع نفسه، ص ٩٨.

نستخلص - ضمن هذا السياق - أن التشاكل ليس له مواصفات محددة وإنما هو مرهون بتعدد دلالاته وتوالدها. وإن كنا نلاحظ - من خلال التطبيقات - ارتباط جل الدلالات واستوحائها من تشاكل الفعل. إلا أن حضور الفعل هنا يمثل مستوى آخر للدلالة، مما أفضى إلى ما لا نهاية من الدلالات، وليس حضوره بما هو حدث. فحين يندمج الفعل بالذات، فإن التشاكل يتم عن حركية باطنية تصعد من مفعوليتها دينامية الاندماج ذاته. فلا يصبح حينئذ تشاكل: أطلق أضرم، أشعل / انبثق، تفجرتني / يجري مجرد تشاكل في الفعل، وإنما يكمن جوهره في حركيته وصيرورته.

بناء على ما تقدم نرى تشاكل التضمين في استناده إلى السياق المعجمي يهدف إلى ترسيخ أنظمة العلاقة بين التركيب وتطابق الخصائص الدلالية فضلاً عن فتح أفاق التصور أمام استكشاف ما يثير له من المعالم الخفية، في النص بحسب قدرته على التأويل وتوظيف لازمة الاحتمال التي تميز خصوصية النص اللاحق. وربما كان هذا الفهم هو أهم ما يميز مجال التضمين على اعتبار أنه يعبر عن فعالية اشراك القارئ في خلق النص الذي يتبدى في مختلف البنى التركيبية التي يتشكل منها على الوجه المشترك بين المبدع والمتلقي.

وفي هذه الحال يكون تشاكل التضمين قائماً على خواص أسلوبية تميز النص في علائقه التركيبية، وذلك باتباع وسائل إجرائية تسهل مهمة فهم النص، ومن ثمة يعمد الباحث إلى توزيع السياق المعجمي بحسب مقتضى حال النص القائم على: البناء المعماري في هندسته التركيبية، والدافع اللغوي [نحوي - صرفي]، السني في أبنيته الصوتية، وكذا من حيث نظام العلاقات الدلالية، بخاصة ما يتعلق بتقارب النص في غاياته التعبيرية، وغاياته الدلالية من حيث «القرب» في التطابق الدلالي، بحيث تقوم إحدى هذه الكلمات مقام العبارة الأخرى في كثير من الأحيان وهو إثبات معبر عنه بطريق غير مباشر» (١) وإذا اعتبرنا أن التشاكل لا يحتفظ من اللفظة

١ - عبد القادر فيدوح: دلالية النص الأدبي، ص ١١٧.

بتمائل أشكالها « فقد يكون من الخطأ أن نفترض أنه يقتصر على عملية تطابق أشياء مثل أوراق التين أو أصناف أشكال أخرى، وأنه أيضا ذلك الذي يضمن الكلية داخل حدود الخطوط الخارجية المحددة ببناء العلاقات الصحيحة للاستعارات إضافة إلى ذلك، فإنه يضيفي التناسق على الاستعارات نفسها. ويسمح قانون التشاكل بتعريف العمل الأدبي على أنه إنشاء يشتمل على تعددية الاستعارات (وحدات خطية) الموضوعية على طول المحور الزمكاني للحدث اللفظي،^(١) ذلك أنه بعيد عن لغة التطابق والاستنساخ وإنما يقود اللغة إلى فرض علاماتها الدالة من خلال تمييز المختلف عن المتماثل، واستكشاف الواحد داخل المتعدد « والتشاكل الذي يحكم صور عمل ما، يحكم اللغة أيضا وأنه أيضا مصدر للالتزامن اللغوي الذي يميز «الإيجابي» في اللغة الأدبية من «السلبى» في الخطاب الإعتيادي. والتنوع كبير بحيث يكون التشاكل مضللا إلى حد يهدد القارئ ليجره إلى الإعتقاد بأنه يقرأ لغته الخاصة، ولكن حتى ولو خضع لاعتقاده هذا، فإن التشاكل يكون فاعلا فيقوده نحو الأعماق، إلى إندفاع لغوي نحو المركز متركزا على الصورة الانتحائية الرئيسية، و«الاستعارة الجامعة» عند نقطة التكوين الإبداعية (Cosmogenetic)^(٢) فالتشاكل بهذا المعنى، يمنح القراءة ثغرة للعبور داخل الخلية الرحمية للنص، ويعمل في الوقت ذاته على توالد أنسجتها النصية.

والحقيقة أن مثل هذه الطروح في أبنيتها التعبيرية والدلالية لاتعدو كونها تصب في نسيج التفكير الذي طرحه عبد الملك مرتاض ومحمد مفتاح، وحتى لانقول أن عبد القادر فيدوج كان يفتخر من معين ما جاء به هذان القطبان فإننا نعتبر - ضمنا - أن كلا منهم يتعامل مع النص بما هو نظام من العلامات، وذلك حين بدأنا نرى معالم الرؤية الحدائية تنغرس في عمق توجهاتهم، كما بدأنا نتلمس طريقها عبر سياقهم التحليلي باتخاذ نظام العلامة مؤشرا لاعادة بناء النص، فضلا عن وظائفه التي تندرج ضمن إطار الدال والمبدلول.

١ - فرانكلين ر. روجرز: الشعر والرسم، ثر: مي مظفر، دار المأمون، ١٩٩٠م، ١٧١-١٧٢.

٢ - المرجع نفسه ص ٢٠٩.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

- ١ - أرسطو : فن الشعر ، تر عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ط١١١، ١٩٧٣ .
- ٢ - ابن منظور : لسان العرب دار صادر بيروت .
- ٣ - البيهقي ، عبد الوهاب : المجموعة الكاملة دار العودة ط٣ ، ١٩٧٩ .
- ٤ - التوحيدي ، أبو حيان : الامتاع والمؤانسة ، دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ٥ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : الحيوان ج (٣) دار الكتاب العربي ط٣ ، ١٩٦٩ .
- ٦ - الزمخشري ، محمود بن عمر ، أساس البلاغة دار بيروت ١٩٦٥ .
- ٧ - صليبا ، جميل المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .
- ٨ - عبد الصبور ، صلاح : المجموعة الكاملة م ٣ دار العودة ١٩٧٧ .
- ٩ - عبد النور ، جبور : المعجم الأدبي ، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ .
- ١٠ - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : العين تحقيق مهدي الخزومي وإبراهيم السمراني ، وزارة الاعلام (العراق) ١٩٨١ .
- ١١ - القوطاجني ، منهج البلغاء وسراج الأدباء ، دار الغرب الاسلامي ١٩٨١ .
- ١٢ - الملائكة ، نازك : المجموعة الكاملة دار العودة ١٩٧١ .
- ١٣ - هوراس : فن الشعر ، تر لويس عوض الهيئة المصرية للكتاب ط٣ ، ١٩٨٨ .

قائمة المراجع

- ١ - ابراهيم ، زكريا :
- فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، دار مصر للطباعة .
- مشكلة البنية ، دار مصر للطباعة .
- ٢ - أبو ديب ، كمال : جدلية الخفاء والتجلي ، دار العلم للملايين ط ١١ ، ١٩٨٢ .
- ٣ - أبو منصور ، فؤاد : النقد البنيوي الحديث دار الجيل ط ١ ، ١٩٨٥ .
- ٤ - أدهم ، سامي : ما بعد الحداثة ، دار كتابات معاصرة ط ١ ، ١٩٩٤ .
- ٥ - أدونيس :
- الثابت والمتحول (تأصيل الأصول) ، دار العودة ط ١ ، ١٩٧٧ .
- الثابت والمتحول (صدمة الحداثة) ، دار العودة ط ٤ ، ١٩٨٣ .
- زمن الشعر ، دار العودة ط ١١ ، ١٩٧٨ .
- سياسة الشعر ، دار الآداب ط ١ ، ١٩٥٨ .
- فاتحة لنهايات القرن ، دار العودة ط ١ ، ١٩٨٠ .
- كلام البدايات ، دار العودة ط ١ ، ١٩٧٩ .
- مقدمة للشعر العربي ، دار العودة ط ٣ ، ١٩٧٩ .
- ٦ - إسماعيل ، عز الدين : الشغز العربي المعاصر ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
- ٧ - أفايا ، نور الدين : الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية الحديثة ،
أفريقيا الشرق ط ١ ، ١٩٩١ .
- ٨ - بارت ، رولاند : مبادئ في علم الأدلة تر : محمد البكري دار قرطبة
١٩٨٦ .

- ٩ - باروت ، محمد جمال : الشعر يكتب اسمه - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨١ .
- ١٠ - البحراري ، سيد : موسيقى الشعر عند شعراء أبوللو ، دار المعارف .
- ١١ - براوبري ، مالكم وجيمس ماكفارلن : الحداثة ، تر : مؤيد حسن فوزي ، دار المأمون ١٩٨٧ .
- ١٢ - بروليه ، جزيل : جماليات الابداع الموسيقي ، تر فؤاد كامل ، دار الشؤون الثقافية .
- ١٣ - بنيس ، محمد : حداثة السؤال ، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ١٩٨٥ .
- ١٤ - بورتنوي ، جوليوس : الفيلسوف وفن الموسيقى ، تر : فؤاد زكريا الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ١٥ - تامر ، فاضل : مدارات نقدية ، دار الشؤون الثقافية ١٩٨٧ .
- ١٦ - ت.س اليوت وآخرون : الشعر بين نقاد ثلاث ، تر : منح خوري ، دار الثقافة ١٩٦٦ .
- ١٧ - تشيشيرين . أ.ف. : الأفكار والأسلوب ، تر حياة شرارة ، دار الشؤون الثقافية .
- ١٨ - تودوروف ، تزفيطان : الشعرية ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء ابن سلامة دار طوبقال ط ١ ١٩٨٧ .
- ١٩ - الجابري - محمد عابد :
- التراث والحداثة : المركز الثقافي العربي ط ١ ، ١٩٩١ .
- نحن والتراث : المركز الثقافي العربي ط ٥ ، ١٩٨٦ .
- ٢٠ - جاب الله ، عدنان : التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان ، مركز الانماء القومي .

- ٢١ - جبرا ، جبرا ابراهيم : الرحلة الثامنة : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ، ١٩٧٩ .
- ٢٢ - جنيث ، جرار : مدخل لجامع النص ، تر : عبد الرحمن أيوب ، دار طويق ط١١ ، ١٩٨٦ .
- ٢٣ - حسن ، عبد الكريم : الموضوعية النبوية دراسة في شعر السياب .
- ٢٤ - حسين ، طه : من أدبنا المعاصر م١٢ دار الكتاب اللبناني .
- ٢٥ - الخال يعنى : الحداثة في الشعر ، دار الطليعة ط١ ، ١٩٧٨ .
- ٢٦ - خطابي ، محمد : لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) المركز الثقافي ط١١ ١٩٩١ .
- ٢٧ - خوري ، الياس : الذاكرة المفقودة ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط١ ١٩٨٢ .
- ٢٨ - خير بك ، كمال : حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر ، دار المشرق ط١ ، ١٩٨٢ .
- ٢٩ - درو ، اليزابيث : الشعر كيف نفهمه وتذوقه تر محمد ابراهيم الشوش ميمنة - بيروت ١٩٦١ .
- ٣٠ - درويش ، أسيمة : مسار التحولات قراءة في شعر أدونيس ، دار العودة ط١ ، ١٩٩١ .
- ٣١ - راي ، وليام : المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية ، تر : يؤيل يوسف عزيز دار المأمون ط١ ، ١٩٨٣ .
- ٣٢ - زيدان ، محمود فهمي : في فلسفة اللغة ، دار النهضة ١٩٨٥ .

- ٣٣ - سعيد ، خالدة :
- البحث عن الجذور : دار مجلة شعر ، ١٩٦٠ .
- حركية الابداع ، دار العودة ١٩٧٩ .
- ٣٤ - صفدي ، مطاع : استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية ،
مركز الانماء القومي ط ١ ، ١٩٨٦ .
- ٣٥ - عبود ، حنا : القصيدة والجسد اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٨ .
- ٣٦ - العزب ، محمد أحمد : ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر ، دار
المعارف ١٩٧٨ .
- ٣٧ - عزيز ، الطاهر : بنيوية كلود ليفي ستروس ، دار الكلام ١٩٩٠ .
- ٣٨ - العكش ، منير : أسئلة الشعر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ط ١ ، ١٩٧٩ .
- ٣٩ - العيد ، يوسف : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ط ١ ، ١٩٨٣ .
- ٤٠ - غانثشق ، غيوركي : الوعي والفن ، ترجمة نوفل نيوف سلسلة عالم
المعرفة الكويت ١٩٩٠ .
- ٤١ - الغانمي ، سعيد : اللغة والخطاب الأدبي ، المركز الثقافي الأدبي ١٩٩٣
- أقنعة النص ، دار الشؤون الثقافية ١٩٩١ .
- ٤٢ - فوكو ، ميشال : حفریات المعرفة ، تر : سالم يفوت ، المركز الثقافي
العربي ط ١ ، ١٩٨٧ .
- ٤٣ - فيدوح ، عبد القادر :
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي اتحاد الكتاب العرب ط ١ ، ١٩٩٢ .
- دلالية النص الأدبي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط ١ ، ١٩٩٣ .

- ٤٤ - كوهن ، جان : بنية اللغة الشعرية ، تر : محمد الولي ومحمد العمري ،
دار طوبقال ط١ ، ١٩٨٦ .
- ٤٥ - لوفيج ، هنري : ما الحداثة ، تر : كاظم جهاد ، دار ابن رشد
١٩٨٣ .
- ٤٦ - مرتاض ، عبد الملك :
- بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة ط١ ، ١٩٨٦ .
- التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحت الطبع .
- شعرية القصيدة وقصيدة القراءة دار المنتخب ط١ ، ١٩٩٤ .
- ٤٧ - مروة ، حسين : النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ج ١ ،
دار القرابي ط١ ، ١٩٧٩ .
- ٤٨ - السدي ، عبد السلام :
- الأسلوب والأسلوبية الدار العربية للكتاب ط١١ ، ١٩٨٢ .
- النقد والحداثة : دار الطليعة ط١ ، ١٩٨٣ .
- ٤٩ - مفتاح ، محمد :
- تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي ط١١ ، ١٩٨٦ .
- التلقي والتأويل ، المركز الثقافي العربي ط١ ، ١٩٩٤ .
- في سيمياء الشعر القديم ، دار الثقافة ١٩٨٩ .
- ٥٠ - مهدي ، سامي : أفق الحداثة وحداثة النمط ، دار الشؤون الثقافية
١٩٨٨ .
- ٥١ - نافع ، عبد الفتاح صالح : عضوية الموسيقى في النص الشعري ، مكتبة
المنار ط١ ، ١٩٨٥ .

٥٢ - هايدغر ، مارتن : في الفلسفة والشعر ، تر : عثمان أمين ، المدار
القومية ١٩٩٣ .

٥٣ - نيزجون ، جانباينز جانبا : الانسان عرض للثقافة الافريقية الحديثة ،
تر : عبد الرحمن صالح المدار القومية .

• • • • •

قائمة الدوريات

- ١ - أبو ديب ، كمال : الحداثة / السلطة / النص فصول ع٣ / م٤ سنة ١٩٨٤ .
- ٢ - أدهم ، سامي : ميتافيزيقا الجمال : بحث في الماهية الجمالية والحداثة كتابات معاصرة ع١٣ / ١٩٩٢ .
- ٣ - أدونيس : حوار مع محمود الراشد ، أوراق ع ١٤ ، ١٩٨٩ .
- ٤ - الأسعد ، محمد : وعي اللغة أو لغة الوعي ، الفكر العربي المعاصر .
- ٥ - ابنز ، وولف غانغ ، في نظرية التلقي التفاعل بين النص والقارئ . تر الجليلي الكدية ، دراسات سيميائية أدبية لسانية ع٧ / ١٩٩٢ .
- ٦ - ايغلون / تيري : ما بعد البنيوية في النظرية الأدبية تر : تائر ديب ، الموقف الأدبي ع ٢٨١ ، ١٩٩٤ .
- ٧ - باروت ، محمد جمال :
- تجربة الحداثة ومفهومها في مجلى شعر قضايا وشهادات (الحداثة ج١) مؤسسة عيال ع ١٤ ، ١٩٩٠ .
- مقاربات للبنىات الجمالية الشعرية في الخطاب الشعري الحديث في سورية الموقف الأدبي ع ١٩٣ ، سنة ١٩٨٧ .
- ٨ - برادة ، محمد : اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة ، فصول ع٣ م ٤ ، ١٩٨٤ .
- ٩ - بنفست ، اميل : طبيعة الدليل اللساني (ترجمة سعيد بن كراد / العرب والفكر العربي المعاصر ع ٢٦ / ١٩٨٣ .

- ١٠ - تامر ، فاضل :
- المقاربات النقدية العربية الجديدة كتابات معاصرة ع٨/١٩٩٠.
- من سلطة النص إلى سلطة القراءة الفكر العربي المعاصر ع٨/٤٩،
١٩٨٨.
- النقد العربي الحديث كتابات معاصرة ع١١ سنة ١١، ١٩٩١.
١١ - الجابري ، محمد عابد : الحداثة طريقنا اوحيد إلى العصر عن اليوم
السابع .
١٢ - جريم ، كونز : التأثير والتلقي المصطلح والموضوع : دراسات
سيمائية أدبية ولسانية ع٦ سنة ١٩٩٢.
١٣ - حافظ ، صبري ، التناس و اشاريات العمل الأدبي ألف البلاغة ع٤،
١٩٨٤.
١٤ - حرب ، علي : قراءة ما لم يقرأ الفكر العربي المعاصر ع٦٠/٦١ سنة
١٩٨٩.
١٥ - حسن ، ايهاب : أدب ما بعد الحداثة : كتابات معاصرة ع
١٦/١٩٩٣.
١٦ - حسن، عبد الكريم : دراسة في شعر السياب الفكر العربي المعاصر
ع١٩/١٩٨٢، ١٩٨٢.
١٧ - حمود ، كامل الحداثة الشعرية بين الرقض والقبول ع١١ سنة
١٩٩١.
١٨ - وريسان ، جورج : بحثا عن وجهي سوسير الفكر العربي المعاصر
٣٠/٣١، ١٩٨٤.
١٩ - درويش ، أحمد : الأسلوب والأسلوبية ، فصول ع١ م ٥، ١٩٨٩.

- ٢٠ - دميان ، جورج : نظرية المرجع في الألسنية الفكر العربي المعاصر
ع ١٩٨٣/٢٥.
- ٢١ - دورليان ، أوديبي : بدايات الحداثة العريسة ، كتابات معاصرة
ع ١٩٩٢/١٣.
- ٢٢ - ستميل ، وولف ديتر : المظاهر النوعية للتلقي العرب والفكر العالمي
ع ١٩٨٨ / ٣.
- ٢٣ - السعافين ، ابراهيم : اشكالية القارئ في النقد الألسني ، مجلة الفكر
العربي المعاصر ٦٠ / ٦١ ، ١٩٨٩.
- ٢٤ - سعيد ادوارد : العالم النص والتقدم العرب والفكر العالمي ع ١٩٨٩.٦.
- ٢٥ - سقال ، ديزير : المعنى والقضاء محاولة جديدة لقراءة أنشودة المطر ،
كتابات معاصرة ع ١٩٩١ / ٩.
- ٢٦ - سويدان ، سامي : حوار منهجي في النص والتناص ، الفكر العربي
المعاصر ع ٦٠ / ٦١ ، ١٩٨٩.
- ٢٧ - شعبان ، محمود : البحث عن ينابيع الشعر والرؤيا دراسات عريية
ع ١٩٩٠ / ١٢.
- ٢٨ - صفدي ، مطاع : عصر الحداثة البعدية ، الفكر العربي المعاصر
ع ١٩٨٩ ، ٦٧ / ٦٦.
- ٢٩ - الصكر ، حاتم : الأسلوبية وطاقات النص كتابات معاصرة
ع ١٩٩١ / ١١.
- ٣٠ - اصياح ، انطوان : تطور مفهوم البنيان في اللسانيات الحديثة ، الفكر
العربي المعاصر ع ٢٦ / ١٩٨٣.

- ٣١ - عود ، حنا : مقارنة الحداثة الناقد ع١٩٨٩/٨ .
- ٣٢ - عصفور ، جابر : معنى الحداثة في الشعر المعاصر فصول م٤/٤ع : ١٩٨٤ .
- ٣٣ - علوش ، سعيد : نقد البنيوية ، الفكر العربي المعاصر ع١٩/٤٠ ، ١٩٨٦ .
- ٣٤ - عياشي ، منذر :
- الخطاب الأدبي ولسانيات النص ، المعرفة ع٢٠٠-٢٠١ ، ١٩٨٧ .
- النظرية التوليدية ومناهج البحث عند شومسكي الفكر العربي المعاصر ع١٩٨٦/٤٠ .
- ٣٥ - الميها ، عبد الله : الحداثة وبعض العناصر الخدثة في القصيدة العربية عالم الفكر ع١٩٨٨/١ .
- ٣٦ - المنذري ، عمر بن مسعود بن ساعد : (مخطوط) مجلة نزوي ع١٤ ، ١٩٩٤ .
- ٣٧ - الكيلاني ، مصطفى :
- في العمل الفني والجمالية الفكر العربي المعاصر ع٦٦/٦٧ ، ١٩٨٩ .
- وجود النص الأدبي / نص الوجود . الفكر العربي المعاصر ع٥٤/٥٥ ، ١٩٨٨ .
- ٣٨ - الواد ، حسين : من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل فصول ع١٥م ، ١٩٨٤ .

فهرس الموضوعات

مقدمة:

الفصل الأول: أسس الحداثة

- أولاً: الحداثة الغربية: إشكالية المفهوم . فكرة مشروع الحداثة .
- تداخل المصطلح . القطيعة والمفارقة . شينائية الحداثة .
- ثانياً: الحداثة العربية: أوليات التأسيس . المرجعية / التجاوز .
- الحداثة الرؤيا .

الفصل الثاني: تجليات الحداثة في الوعي العربي

- عقدة التراث وصدمة الحداثة .
- موضعة الحداثة . حركية الحداثة الشعرية .

الفصل الثالث: خطاب الحداثة «من سلطة النص إلى سلطة

القراءة»

- لسانيات النص . البنيوية والنص .
- الأسلوبية / المنهج والتقبل .
- إشكالية الدلالة وحدود التقبل .

الفصل الرابع: سيمياء التشاكل

- تشاكل الإيقاع . تشاكل الاحتياز .
- تشاكل التضمين .

قائمة المصادر والمراجع

جدل الحداثة

في نقد الشعر العربي، دراسة

حُمر العين، خيرة

الطبعة الأولى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،

١٩٩٧

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

دمشق



اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق



هذا الكتاب

تتناول المؤلفة ، وهي كاتبة عربية جزائرية معروفة ، في فصول هذا الكتاب جدل الحداثة في الشعر العربي المعاصر من وجهة نظر ملهمة بل ومحيطة بكافة مراحل نشأة وتطور الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر ..
ومن خلال أسلوب ينم عن جدية المتابعة ويدل على جهد المؤلفة في دراسة وتقصي كل أبعاد وآفاق هذا الموضوع الثقافي الحيوي الهام

مطبعة إتحاد الكتاب العرب

دمشق

السعر داخل القطر ١٧٥ ل . س

السعر خارج القطر ٢٢٥ ل . س